

۱۳۰۲۹	دانش‌نمبر
۲۵	فن‌نمبر
۴۱۶۱	موضوع‌نمبر

3492 / 51A

مَخْرَجُ الْمَلِكِ

مخار

١٩٩

جميعها لأب يوحنا ليو وأب اغوستينوس روده
من الرهبنة اليسوعية

الجزء الأول

القسم الثالث

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى فُصُولٍ جُغْرَافِيَّةٍ وَقَوَائِدَ طَبِيعِيَّةٍ



طبع رابعة في مطبعة المرسلين اليسوعيين

في بيروت ١٨٨٤
21 1-11 -

لَا سِمَاءَ لِهَ أَمْوَالُ الْيَحْيَايَةِ وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَكُثْمَاءَ
طَاءَ وَطَوْفُوهُمْ الْهِنَ وَكَسَبُوا مِنْ يُونَاتِ الْأَشْرَافِ الْمَعْدِمِ
بِأَمْوَالِهِمْ بِمَا لَمْ يَدْخُ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسَنُوا لِعَنَاتِهِمْ الْخَوَائِرَ
يَأْتُوا عَلَى الْفَرَى وَالضَّبَاعِ مِنَ الصَّوَاخِبِ وَالْأَمْصَارِ فِي
أَيِّ حَتَّى أَسْفُوا الْبِطَانَةَ وَأَخَذُوا الْخَاصَّةَ وَأَغْصُوا أَهْلَ الْوِلَايَةِ
لَهُمْ وَجْهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ وَدَبَّتْ إِلَى مَهَادِيهِمُ الْوَيْدِ مِنْ
رَبِّ السَّعَايَةِ حَتَّى لَقَدْ كَانَ بَنُو قُحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَعْفَرٍ مِنْ أَكْثَرِ
عَلَمِهِمْ لَمْ تَعْطِيَهُمْ لِمَا وَفَّرَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ الْحَسَدِ عَوَاطِفُ الرَّحِمِ
مِنْ أَوَّاصِ الْفَرَايَةِ وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَ مَخْدُومِهِمْ نَوَاشِئُ الْغَيْبِ
أَفِي مِنَ التَّجْرِ وَالْأَنَّةِ وَكَامِنُ الْخُفُودِ إِلَيَّ بَعَثْتَهَا مِنْهُمْ صَغَائِرُ
نَهَى بِهَا الْإِضْرَارُ عَلَى شَاغِرِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْبِئْسَالَةِ كَيْفَ صَنَعْتُمْ فِي بَيْتِي
وَبَنِي حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخِي الْمَهْدِيِّ
بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى الْمَنْصُورِ وَبَيْتِي هَذَا هُوَ الَّذِي
الْفَضْلُ بْنُ بَيْتِي مِنْ بِلَادِ الدَّيْلَمِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ بِمَنْطِقِهِ وَبَدَلِ
أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ وَدَفَعَهُ الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرِ
مِنْقَالَةَ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظِيرٍ فَجَسَّهُ مَدَّةً ثُمَّ حَمَلَتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ
لَا سَبْدَادٍ بِحُلِّ عِقَالِهِ حَرَمًا لِدِيْمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ وَدَالَّةً عَلَى
نَبِيٍّ فِي حُكْمِهِ وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ عَنْهُ لَهَا وَثِيْقَةٌ إِلَيْهِ فَطَنَ وَقَالَ
فَأَبْدَى لَهُ وَجْهَهُ الْإِسْخَسَانِ وَأَسْرَهَا فِي نَفْسِهِ

جَدَّ السَّبِيلِ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى ثَلَّ عَرْشُهُمْ وَأَكْفَيْتْ عَلَمَهُمْ

سَمَاوَتُهُمْ وَخُسِفَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ وَبَدَارِهِمْ وَذَهَبَتْ سَلَامًا وَ
أَيَّامُهُمْ. وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَهُمْ وَاسْتَنْصَى سِيرَ الدَّوْلَةِ وَسِيرَتَهُمْ
مُحَقِّقَ الْأَثَرِ مُهَيِّدَ الْأَسْبَابِ. وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَ
الرَّشِيدِ عَمَّ جَدُّهُ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي شَأْنِ نَكْبَتِهِمْ مَا ذَكَرَهُ فِي
مِنْ كِتَابِ الْعِنْدِ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَصْمَعِيِّ لِلرَّشِيدِ وَالْفَضْلِ بْنِ
قُتَيْبَةَ أَنَّهُ إِذَا قُتِلَ الْغَيْبَةُ وَالْمَنَافَسَةُ فِي الْأَسْتِغَاثَةِ مِنَ الْخَلِيفَةِ
وَكَذَلِكَ مَا تَحِيلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ الْبَطَانَةِ فِيمَا دَسَّوهُ لِلْمَغِيْبِ
أَحْيَا لَا عَلَى إِسْمَاعِيلِ لِلْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيكِ حَفَائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ
لَيْتَ هَذَا أَتَجَزَّئْنَا مَا نَعِدُ وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مَا تَجِبُ
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَعِيذُ
وَأَنَّ الرَّشِيدَ لَهَا سَمْعَهَا قَالَ إِي وَاللَّهِ عَاجِزٌ حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْتَارِ
غَيْرَتِهِ وَسَلَطُوا عَلَيْهِمْ بِأَسْ أَنْتَقَامِيهِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَلْبَةِ الرِّجَالِ وَ
وَأَمَّا مَا نُبَوِّهُ بِهِ الْحِكَايَةَ مِنْ مُعَاوَرَةِ الرَّشِيدِ الْأَخْمَرِ وَأَفْتَرَادِ
يُسْكِرُ النَّدْمَانِ فَحَاشَا اللَّهَ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَأَبْنِ هَذَا
الرَّشِيدِ وَفِيَامِهِ بِمَا يَجِبُ بِمَنْصِبِ الْخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَدَالِ
عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَمُحَاوَرَتِهِ لِلْفَضْلِ بْنِ عِي
السَّمَاكِ وَالْعَمْرِيِّ وَمَكَاتِبِهِ سُبْحَانَ وَبِكَايَتِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَا
فِي طَوَافِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْحِفَاظَةِ عَلَى أَوْفَاتِ أ
وَشُهُودِ الصُّحُبِ الْأَوَّلِ فِي وَفْقِهَا
حَكَى الطَّبْرِيِّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةٍ

الزَّلَفِ وَالْبَجْعِ عَامًا. وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنُ أَبِي مَرْثَمٍ مُصْحِكُهُ وَسَمِيحُهُ حِينَ تَعَرَّضَ
 الْقَرَايَةَ الْعَرَكِ فِي الصَّلَاةِ لَهَا سَمِعَهُ يَقْرَأُ وَمَا يَلِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي .
 وَفَكُّوا الْعَالِيَا أَذْرِي لَمْ . فَأَتَمَّا لَكَ الرَّشِيدُ أَنْ ضَحِكَ . ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ مُغَضِبًا
 وَالصَّلَاتِ وَابْنُ أَبِي مَرْثَمٍ فِي الصَّلَاةِ أَيْضًا إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالَّذِينَ
 سَائِرِ الْمَمَالِكِ بَعْدَهَا

فَكَشِفَتْ مَذْكَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّادَةِ بِمَكَانٍ لِقُرْبِ عَهْدِهِ مِنْ سَلَفِهِ
 الدَّوْلَةِ عَقًا لِذَلِكَ . وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ يَعْبُدُ زَمَنًا إِلَّا مَّا
 السَّاعِينَ مَّا . وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالَّذِينَ قَبْلَ الْخِلَافَةِ
 وَلَا وَزَعَتْهُ وَهُوَ الْقَائِلُ لِمَالِكٍ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِأَلْفِ الْمُوطَّأِ يَا أَبَا عَبْدِ
 وَالْإِسْنِدُكُمْ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ وَإِنِّي قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ
 الدَّالَّةُ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَتَفَعَّلُونَ بِهِ تَجَنَّبَ فِيهِ رَخَصَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَشَدَّائِدَ
 بَنِي عَبْدِ اللَّهِ وَوُطِئَتْهُ لِلنَّاسِ تَوَطُّعَتْ: قَالَ مَالِكٌ قَوْلَهُ لَقَدْ عَلِمَنِي التَّنْصِيفَ
 الْمَلْفَبِ وَلَقَدْ أَذْرَكَهُ ابْنُهُ الْمَهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كَسْوَةِ
 اسْتَنْزَلَهُ لِعِيَالِهِ مِنْ يَتِّبِ الْمَالِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِجَلِيسِهِ يَبَاشِرُ
 لَمْ يُجِبْهُ الْغَدَنَ فِي إِرْقَاعِ الْخُلُقَانِ مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ . فَأَسْتَنْكَفَ الْمَهْدِيُّ مِنْ
 وَجَلِيًّا أَوْ قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ كَسْوَةَ هَذِهِ الْعِيَالِ عَامَنَا هَذَا مِنْ
 سَيِّطَامِي فَقَالَ لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَصُدَّ عَنْهُ وَلَا سَمَحَ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَمْوَالِ
 يَأْتِي الْمُسْلِمِينَ

فَكَيْفَ يَلْبِقُ بِالرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخِلَافَةِ وَأَبُو تَيْبَةٍ وَمَا رَمَى
 جُرْأَتِهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَالْخُلُقِي بِهَا أَنْ يُعَاقِرَ فِي الْخَمْرِ أَنْ

يُجَاهِرُ بِهَا. وَقَدْ كَانَتْ حَالُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْأَجَاهِلِيَّةِ فِي أَجْنَابِ
الْخَمْرِ مَعْلُومَةٌ وَلَمْ تَكُنِ الْكُزْمُ تُجَرَّمُ وَكَانَ شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَبِيرِ مِنْهُمْ
وَالصَّغِيرِ وَالرَّشِيدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَجْعٍ مِنْ أَجْنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ
وَدُنْيَاهُمْ وَالتَّخَلُّقِ بِالْعَمَادِ وَأَوْصَافِ الْكَمَالِ وَتَزَعَاتِ الْعَرَبِ. وَأَنْظُرْ مَا
نَقَلَ الطَّبْرِيُّ وَالسَّعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جَبْرِئِيلَ بْنِ بَجْنِشُوعَ الطَّبِيبِ حِينَ
أُخْضِرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَنَجَّاهُ عَنْهُ. ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ الْمَائِدَةِ بِمَحْلُوهِ إِلَى
مَنْزِلِهِ وَقَطِنَ الرَّشِيدُ وَأَرْتَابَ بِهِ وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى عَابَنَهُ بِشَاوِلِهِ. فَأَعَدَّ
أَبْنُ بَجْنِشُوعَ لِلْإِعْذَارِ ثَلَاثَ فِطَعٍ مِنَ السَّمَكِ فِي ثَلَاثَةِ أَفْدَاجٍ خَلَطَ
إِحْدَاهَا بِاللَّحْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَالِيلِ وَالتَّبُولِ وَالتَّبُولِ وَالتَّبُولِ وَالتَّبُولِ. وَصَبَّ
عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً مُتَجَلِّجًا. وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْرًا صَرَفًا. وَقَالَ فِي الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ:
هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ خَلِطَ السَّمَكُ بِغَيْرِهِ أَوْ لَمْ يُخْلَطْ. وَقَالَ فِي
الثَّالِثَةِ هَذَا طَعَامُ أَبْنِ بَجْنِشُوعَ وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا أَتَتْهُ
الرَّشِيدُ وَأَخْضَرَ التَّبْوِيجَ أَخْضَرَ الْأَفْدَاجَ فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ أَخْضَرَهُ
وَأَمَاعَ وَتَفَنَّتْ وَوَجَدَ الْآخَرِينَ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُمَا
فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْدِرَةٌ وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالِ الرَّشِيدِ هَكَذَا
أَجْنَابِ الْخَمْرِ كَانَتْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ. وَلَقَدْ ثَبَتَ
أَنَّهُ عَهْدَ بَجْنِشِ أَبِي نَوَاسٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ أَهْمَاكِهِ فِي الْمَعَاوِرِ حَتَّى تَابَ وَأَفَّ
وَأَمَّا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ الْخَمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَقَفَاوِيهِمْ فِي
مَعْرُوفَةٍ. وَأَمَّا الْخَمْرُ الصَّرْفُ مِنَ الْعَنْبِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى أَهْمَايِهِ بِهَا وَلَا نَقْلًا
الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا. فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يَحْبُثُ بِوَافِعٍ مُحَرَّمًا مِنَ الْكَبَرِ الْكَبَرِ

عِنْدَ أَهْلِ الْيَمَلَةِ . وَلَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ النَّوْمُ كُلُّهُمْ بَخَاةٍ مِنْ حِنْثِ السَّرَفِ
وَالْتَرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِيَارَتِهِمْ وَسَائِرِ مَتَنَالِهِمْ لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ
الْبَدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّيبِ الَّتِي لَمْ يُقَارِ قُوَهَا بَعْدُ . فَمَا ظَنُّكَ بِهَا يَخْرُجُ عَنِ
الْإِبَاحَةِ إِلَى الْحَظَرِ وَعَنِ الْحِلْيَةِ إِلَى الْحَرَمَةِ . وَلَقَدْ أَتَقَفَ الْمَوْرُخُونَ
الطَّبْرِيُّ وَالسُّعُودِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَلَى أَنْ جَمَعَ مِنْ سَلَفٍ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ
وَبَنِي الْعَبَّاسِ إِذَا كَانُوا يَرْكَبُونَ بِأَحْلِيَةِ الْخَفِيفَةِ مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ
وَالسُّيُوفِ وَاللِّجَمِّ وَالسُّرُوحِ وَلَنْ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحَدَتْ الرُّكُوبَ بِحِلْيَةِ الذَّهَبِ
هُوَ الْمَعْنَزُ بْنُ الْمَتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ
أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ . فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِعِهِمْ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ مِنْ هَذَا إِذَا
فُهِمَتْ طَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبَدَاوَةِ وَالْفَظَاظَةِ كَمَا نَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ
الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ قَاضِي
يَوْمَاؤُنِ وَصَاحِبِهِ وَلَنْ كَانَ يُعَافِرُ الْهَامُونَ الْمُحَرَّمُونَ وَأَنَّهُ سَكَّرَ لَيْلَةً مَعَ شَرِبِهِ
أَجْفَنَ فِي الرِّيحَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيَنْشُدُونَ عَلَى لِسَانِهِ

أَيَا يَاسِيدُ بِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْتَفِينِي
وَجِدْ لِي غَفْلَتُ عَنِ السَّافِي فَصِيرَتِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَنْلِ وَالَّذِينَ
سَيِّءَ وَحَالُ أَيْنَ أَكْثَمُ وَالْهَامُونَ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَشَرَاهُمْ إِذَا
أَكَلَتِ النَّبِيدَ وَلَمْ يَكُنْ مَحْظُورًا عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ
لَمَّا صَحَابَتُهُ لِلْهَامُونَ إِذَا كَانَ خَلَّةً فِي الدِّينِ . وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَنَامُ مَعَهُ
مُجَرَّبِي الْبَيْتِ وَنُقِلَ مِنْ فُضَائِلِ الْهَامُونَ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ أَنَّهُ أَنْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ

فَقَامَ يَجَسُّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ خَافَةَ أَنْ يُوَفِّظَ بَيْتِي بَنُ أَكْثَمَ وَتَبَتَ أَنَّهَا
كَانَا بِصِلَانِ الصَّبْحِ جَمِيعًا. فَأَمِنَ هَذَانِ الْمَعَاقِرُ. وَأَيْضًا بَيْتِي بَنُ أَكْثَمَ
كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّحْدِيثِ. وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَالْقَاضِي
إِسْمَاعِيلُ وَخَرَجَ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِهِ الْجَمَاعِ. وَذَكَرَ الْحَافِظُ الْهَرُزِيُّ أَنَّ
الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَمَاعِ. قَالَ لَفُذِحَ فِيهِ قَذَحٌ فِي جَمِيعِهِمْ
وَكَذَلِكَ نَبَرَةُ الْجَبَانِ بِالْمِيلِ إِلَى الْغِلْمَانِ يَهْتَانَا عَلَى اللَّهِ وَفِرَّةً عَلَى الْعُلَمَاءِ
وَيَسْتَنْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَخْبَارِ الْقِصَاصِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي لَعَلَّهَا مِنْ أَفْرَاءِ
أَعْدَائِهِ. فَإِنَّهُ كَانَ مُحْسَدًا فِي كِبَالِهِ وَخَلِيَّةً لِلسُّلْطَانِ وَكَانَ مَقَامُهُ مِنَ الْعِلْمِ
وَالدِّينِ مُنْزَعًا عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. وَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ
فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَنْ يَقُولُ هَذَا وَأَنْكَرُ ذَلِكَ إِنْكَارًا شَدِيدًا
وَأَتَى عَلَيْهِ. وَقِيلَ لِإِسْمَاعِيلَ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ فَقَالَ مَعَادَ اللَّهِ أَنْ تَزُولَ
عِدَالَةُ مِثْلِهِ يَتَكَلَّبُ بَاغٍ وَحَاسِدٍ وَقَالَ كَانَ بَيْتِي بَنُ أَكْثَمَ أَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ
مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْغِلْمَانِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَقِفُ
عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ لِلَّهِ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خُلُقٍ
قُرْبَى بِهَا رُمِيَ بِهِ وَذَكَرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ فِي الثِّقَاتِ وَقَالَ لَا يُشْتَغَلُ بِهَا بِجُحَى
عَنْهُ لِأَنَّهُ أَكْثَرَهَا لَا تَصِحُّ عَنْهُ

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعُقَدِ مِنْ
حَدِيثِ الزُّنَيْلِ فِي سَبَبِ إِضْهَارِ الْهَامُونِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ فِي بَيْتِهِ
بُورَانَ..... وَأَمِنَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ حَالِ الْهَامُونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعَلَيْهِ
وَأَفْتِنَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ آبَائِهِ وَأَخِيهِ بِسِيَرَةِ الْخُلَفَاءِ

الْأَرْبَعَةَ أَزْكَانَ الْبِلَّةِ وَمَنَظَرَتِهِ لِلْعُلَمَاءِ وَحِفْظُهُ لِلْخُدُودِ فِي صَلَواتِهِ
وَأَحْكَامِهِ فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ أَحْوالُ النَّسَاقِ الْمُسْتَهْزِئِينَ فِي التَّطَوُّافِ بِاللَّبْلِ
وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ وَغِشْيَانِ السَّمَرِ سَبِيلِ عُشَّاقِ الْأَعْرَابِ وَأَيِّنَ ذَلِكَ
مِنْ مَنَصِبِ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ يَدَارِ أَيْبَها مِنَ الصُّونِ
وَالْعَنَافِ

وَأَمثالُ هَذِهِ أَمْحَكَاياتُ كَبِيرَةٍ وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ وَإِنَّمَا يَسَعُ
عَلَى وَضْعِها وَالتَّحْدِيثِ بِها إِلَّا نِهَاكَ فِي اللَّذَاتِ الْخُرْمَةِ وَهَتَكَ فِنَاعِ
الْمُرُواتِ وَيَتَعَلَّلُونَ بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونُهُ مِنْ طَاعَةٍ لَدَائِمٍ فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ
كثيراً ما يُلَهَّجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَيَتَقَرُّونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّهِمْ لِأَوْرَاقِ
الدَّوَالِيزِ. وَلَوْ اتَّسَعُوا بِهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمالِ الْأَلَانِيَةِ
بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ عَذَلْتُ يَوْمَما
بَعْضَ الْأُمَرَاءِ مِنْ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ الْغِنَاءِ وَوُلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ
وَقُلْتُ لَهُ لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيْقُ بِمَنْصِبِكَ. فَقَالَ لِي أَفَلَا تَرَى إِلَى
إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَرَئِيسَ الْبُغَيْنِ فِي
زَمَانِهِ. فَقُلْتُ لَهُ يَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلَا تَأْسَيْتَ بِأَيِّهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ
قَعَدَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ فَصَمَّ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ

وَمِنَ الْغَلَطِ الْخَفِيِّ فِي التَّارِيخِ الدُّهُولُ عَنْ تَبَدُّلِ الْأَحْوالِ فِي الْأُمَمِ
وَالْأَجْيَالِ بِتَبَدُّلِ الْأَعْصَارِ وَمُرُورِ الْأَيَّامِ وَهُوَ دَائِمٌ دَوِيبٌ وَشَدِيدٌ
أَخْتِامٌ إِذْ لَا يَنْفَعُ إِلَّا بَعْدَ أَخْطَابِ مُتَطَاوِلَةٍ وَلَا يَكَادُ يَنْفُطُنُ لَهُ إِلَّا الْأَحَادُ
مِنْ أَهْلِ الْخَلِيفَةِ. وَذَلِكَ أَنَّ أَحْوالَ الْعَالَمِ وَالْأُمَمِ وَعَوَائِدُهُمْ وَنَحْلُهُمْ

لَا تَدُومُ عَلَى وَدَّعٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهَا جِ مُسْتَقَرٌّ. إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ عَلَى الْأَبَامِ
وَالْأَزْمِنَةِ وَانْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَكَأَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْخَاصِ
وَالْأَوْقَاتِ وَالْأَمْصَارِ فَكَذَلِكَ يَنْبَغُ فِي الْأَقَانِ وَالْأَقْطَارِ وَالْأَزْمِنَةِ
وَالْأَدْوَلِ

وَقَدْ كَانَتْ فِي الْعَالَمِ أُمَمُ الْفَرَسِ الْأُولَى وَالسَّرِ بَايُونَ وَالنَّبَطُ وَالنَّبَايَعَةُ
وَبَنُو إِسْرَائِيلَ وَالْقَبَطُ. وَكَانُوا عَلَى أَحْوَالٍ خَاصَةٍ بِهِمْ فِي دُورِهِمْ وَمَمْلَكَتِهِمْ
وَسِيَاسَتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ وَأَصْطِلَاحَاتِهِمْ وَسَائِرِ مُشَارِكَاتِهِمْ مَعَ آبْنَاءِ
جَنَسِهِمْ وَأَحْوَالٍ أَعْيَانِهِمْ لِلْعَالَمِ تَشْهَدُ بِهَا أَقَارُفُهُمْ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ
الْفَرَسُ الثَّانِيَّةُ وَالرُّومُ وَالْعَرَبُ وَالْفَرَنْجَةُ. وَتَبَدَّلَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ
وَأَنْقَلَبَتِ الْعَوَائِدُ إِلَى مَا يُجَانِسُهَا وَيُشَابِهُهَا وَإِلَى مَا يَبَايِنُهَا وَيُبَاعِدُهَا. ثُمَّ
جَاءَ الْإِسْلَامُ بِدَوْلَةٍ مُضَرَّةٍ. فَأَنْقَلَبَتْ تِلْكَ الْأَحْوَالُ أَجْمَعُ انْقِلَابَةً أُخْرَى
وَصَارَتْ إِلَى مَا أَكْثَرُ مُتَعَارِفٍ لِهَذَا الْعَهْدِ بِأَخْذِ الْخُلَفَاءِ عَنِ السَّلَفِ. ثُمَّ
خَرَسَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ وَأَبَامُهُمْ وَذَهَبَ الْأَسْلَافُ الَّذِينَ شَبَدُوا عِزَّهُمْ
وَمَهَّدُوا مُلْكَهُمْ وَصَارَ فِي أَيْدِي سَوَاقِمٍ مِنَ الْعَجَمِ يَنْفِلُ التُّرْكُ بِالْمَشْرِقِ وَالْبَرْبَرِ
بِالْمَغْرِبِ وَالْفَرَنْجُ بِالشَّمَالِ فَذَهَبَتْ بِدَهَائِمِهِمْ أُمَمٌ وَأَنْقَلَبَتْ أَحْوَالُ وَعَوَائِدُ
نُسَبِي شَأْنِهَا وَأَغْفِلَ أَمْرَهَا

وَالسَّبَبُ الشَّائِعُ فِي تَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ وَالْعَوَائِدِ. أَنَّ عَوَائِدَ كُلِّ جِيلٍ
تَابِعَةٌ لِعَوَائِدِ سُلْطَانِهِ كَمَا يُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ الْحِكْمِيَّةِ النَّاسُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ.
وَأَهْلُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ إِذَا اسْتَوْلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْأَمْرِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَرَعَّوْا
إِلَى عَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهُمْ فَيَأْخُذُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا وَلَا يُغْفِلُونَ عَوَائِدَ جِلْسِهِمْ

مَعَ ذَلِكَ فَبَقِيَ فِي عَوَائِدِ الدَّوْلَةِ بَعْضُ الْمُخَالَفَةِ لِعَوَائِدِ الْجَمِيلِ الْأَوَّلِ. فَإِذَا جَاءَتْ دَوْلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَزَجَتْ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَعَوَائِدَهَا خَالَتْ أَيْضًا بَعْضُ الشَّيْءِ وَكَانَتْ لِلأُولَى أَشَدَّ مُخَالَفَةً. ثُمَّ لَا يَزَالُ التَّدْرِجُ فِي الْمُخَالَفَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمُبَابَةِ بِالْجُمْلَةِ. فَمَا دَامَتِ الْأُمَمُ وَالْأَجْبَالُ تَتَعَاقَبُ فِي الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ لَا تَزَالُ الْمُخَالَفَةُ فِي الْعَوَائِدِ وَالْأَحْوَالِ وَاقِعَةً

وَالْيَبَاسُ وَالنَّحَاكَةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ وَمِنْ الْغَلَطِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ تَخْرُجُهُ مَعَ الدُّهُولِ وَالْعَفْلَةِ عَنْ مَقْصِدِهِ وَتَعْوِجُ بِهِ عَنْ مَرَايِهِ. قَرُبًا مَعَ السَّامِعِ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ فَلَا يَنْفُطُنُ لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَانْقِلَابِهَا فَيُغَيِّرُهَا لِأَوَّلِ وَهَلَفَ عَلَى مَا عَرَفَ وَيَقْسِمُ بِهَا بِشَهْدٍ. وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَتَوَهَّمُ الْمُتَنَصِّحُونَ لِكُتُبِ النَّارِخِ إِذَا سَمِعُوا أَحْوَالَ الْقَضَاءِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّئَاسَةِ فِي الْحُرُوبِ وَقَوْدِ الْعَسَاكِرِ فَتَنَرَّاهُمْ وَسَاوَسُوا إِلَيْهِمْ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الرُّتَبِ بِحَسَبِ أَنْ الشَّأْنَ فِي خِطَةِ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَيَنْظُرُونَ بِأَبْنِ أَبِي عَامِرٍ حَاجِبِ هِشَامِ الْمُسْتَبْدِ عَلَيْهِ وَابْنِ عَبَّادٍ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَانِبِ بِإِسْطَبِلِيَّةٍ إِذَا سَمِعُوا أَنَّ أَبَاهُمْ كَانُوا قَضَاءَهُمْ مِنْهُ مِثْلَ الْقَضَاءِ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَا يَنْفُطُنُونَ لِمَا وَقَعَ فِي رُتْبَةِ الْقَضَاءِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَوَائِدِ كَانَتْ بَيْنَهُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ. وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ وَابْنُ عَبَّادٍ كَانَا مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَهْلٍ عَصِيَّةٍ بِهَا. وَكَانَ مَكَانُهُمْ

فِيهَا مَعْلُومًا وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَهُمُ لِمَا نَالُوهُ مِنَ الرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ بِحُطَّةِ النِّضَاءِ كَمَا
هِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ . بَلْ إِنَّمَا كَانَ الْقَضَاءُ فِي الْأَمْرِ الْقَدِيمِ لِأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ
مِنْ قَبَائِلِ الدَّوْلَةِ وَمَوَالِيهَا كَمَا هِيَ الْوِزَارَةُ لِعَهْدِنَا بِالْمَغْرِبِ . وَانْظُرْ
خُرُوجَهُمْ بِالْعَسَاكِرِ فِي الصَّوَانِبِ وَتَقْلِيدَهُمْ عِظَامَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَقْلُدُ
إِلَّا لِمَنْ لَهُ الْغَنَاءُ فِيهَا بِالْعَصَبِيَّةِ فَيَغْلُطُ السَّامِعُ فِي ذَلِكَ وَيَحْمِلُ الْأَحْوَالَ
إِلَى غَيْرِ مَا هِيَ

وَأَكْثَرُ مَا يَنْبَغُ فِي هَذَا الْغَلَطِ ضَعْفُ الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا
الْعَهْدِ لِقَدَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهِمْ مِنْذُ أَنْصَارِ بَعْدِكَ لِفَتْاهِ الْعَرَبِ
وَدَوْلَتِهِمْ بِهَا وَخُرُوجِهِمْ عَنْ مَلَكَةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ مِنَ الْبَرَبَرِ فَيَقْبِتُ أَنْسَابَهُمْ
الْعَرَبِيَّةَ مَحْفُوظَةً وَالذَّرْبَةَ إِلَى الْعِزِّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالْتِمَاضَ مَقْنُودَةً بَلْ
صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الرِّعَايَا الْمُتَخَذِلِينَ الَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ الْفَهْرُ وَزَيْمُوا لِلْمَهْلَةِ
يَحْسِبُونَ أَنَّ أَنْسَابَهُمْ مَعَ مُحَالِطَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْغَلَبُ وَالْتِحْكُمُ
فَيَجِدُ أَهْلَ الْحَرْبِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ مُتَصِدِّينَ لِذَلِكَ سَاعِينَ فِي نَبْلِهِ . فَأَمَّا
مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّةِ فِي دَوْلِهِمْ بِالْعُدُوفِ الْمَغْرِبِيَّةِ وَكَيْفَ
يَكُونُ التَّغْلُبُ بَيْنَ الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ فَقَلْبًا يَغْلُطُونَ فِي ذَلِكَ وَيُحْطِثُونَ
فِي أَغْيَابِهِ

تَمَّ الْمَنْقُولُ مِنْ كِتَابِ الْعَبَرِ وَدِيَّانِ الْمُبْتَدَأِ وَالْمُخْبَرِ
لِابْنِ خَلْدُونِ

مِنْ كِتَابِ نَحْرِ الطِّبِّ مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرُّطِيبِ
تَأَلَّفَ الْعَلَّامَةُ الْمُقَرَّبِيُّ

فِي وَصْفِ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ

فَأَقُولُ مُحَاسِنُ الْأَنْدَلُسِ لَا تُسْتَوَى بِعِبَارَةٍ وَمُجَارِبَةٍ فَضْلُهَا لَا يَشُقُّ
مُجَارَهُ وَأَتَى مُجَارَى وَهِيَ الْحَائِثُ قَصَبُ السُّبْحِ فِي أَقْطَارِ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ.
قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِالْأَنْدَلُسِ بْنِ طُوَيْلٍ بْنِ يَافَثَ بْنِ نُوحٍ
لِأَنَّهُ نَزَلَهَا كَمَا أَنَّ أَخَاهُ سَبْتَةَ بْنِ يَافَثَ نَزَلَ الْعُدُوَّةَ الْمُقَابِلَةَ لَهَا وَإِلَيْهِ
تُنْسَبُ سَبْتَةُ. قَالَ وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ يُحَافِظُونَ عَلَى فِوَامِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
لِأَنَّهُمْ إِمَّا عَرَبٌ أَوْ مُعَرَّبُونَ أَنْتَهَى. وَقَالَ ابْنُ غَالِبٍ إِنَّهُ أَنْدَلُسُ بْنُ
يَافَثَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الرَّبْعِ وَغَدَقَ السُّفْيَا
وَلَدَاذَةَ الْأَقْوَاتِ وَنَرَاهُ الْحَيَوَاتِ وَدَوْرَ الْفَوَاكِهِ وَكَثْرَةَ الْيَبَاهِ وَتَجَرُّ
الْعِمْرَانِ وَجُودَةَ اللَّيَاسِ وَشَرَفَ الْإِنْيَةِ وَكَثْرَةَ السِّلَاحِ وَصِحَّةَ الْهَوَاءِ
وَأَبْيَاضَ الْوَانِ الْإِنْسَانِ وَنَبْلَ الْأَذْهَانِ وَفُنُونِ الصَّنَائِعِ وَشَهَامَةِ
الطِّبَاعِ وَتَفُؤْذِ الْأَذْرَاكِ وَأَحْكَامِ النَّمَلِ وَالْإِعْيَارِ بِهَا حُرْمَةُ الْكَثِيرِ مِنَ
الْأَقْطَارِ مِائِ سَوَاهَا. أَنْتَهَى

قَالَ أَبُو عَامِرٍ السُّلَمِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِدُرَرِ الْقَلَائِدِ وَغَرَرِ النُّوَائِدِ
الْأَنْدَلُسُ مِنَ الْأَقْلِيمِ الشَّامِجِ وَهُوَ خَيْرُ الْأَقَالِمِ وَأَعْدَلُهَا هَوَاءً وَنَرَابًا
وَأَعْدَبُهَا مَاءً وَأَطْيَبُهَا هَوَاءً وَحَيَوَانًا وَنَبَاتًا وَهُوَ أَوْسَطُ الْأَقَالِمِ وَخَيْرُ

الأمور أو ساطها. انتهى

قال أبو عبيد البكري الأندلس شامية في طبيها وهوائها بباية في
أعندالها واستواها هندية في عطرها وذكاها أهوارية في عظم جبانها
صينية في جواهر معادنها عدية في منافع سواجلها. فيها آثار عظيمة
اليونانيين أهل المحكمة وحاملي الفلسفة. وكان من ملوكهم الذين آثروا
الآثار بالأندلس هرقلس وله الأثر في الصم بحرية فاحس وصم جليفة
والأثر في مدينة طركونة الذي لا نظير له

قال المسعودي بلاد الأندلس تكون مسيرة عمايرها ومدينها نحو
شهرين ولمن من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة انتهى باختصار
ونحو لابن السع إذ قال طولها من أربونة إلى إشبونة وهو قطع
سنتين يوما للفراس الجيد وتتقد بأمرين أحدها أنه يقتضي أن أربونة
داخلة في جزيرة الأندلس والصحيح أنها خارجة عنها. والثاني أن قوله
سنتين يوما للفراس الجيد إجماع وإفراط وقد قال جماعة أنها شهر
ونصف. قال ابن سعيده وهذا يقرب إذا لم يكن للفراس الجيد
والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر وكذا قال النجاشي
وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمرجل الجيد
أفضى إلى نحو شهر ونصف قليل

قال النجاشي في موضع من كتابه إن طول الأندلس من الحجاز
إلى إشبونة ألف ميل ونصف. وبالجمله فالمراد التقريب من غير
مشاركة كما قاله ابن سعيده وأطال في ذلك. ثم قال بعد كلام ومسافة

الْحَاجِزُ الَّذِي بَيْنَ بَحْرِ الرُّقَاقِ وَبَحْرِ الْبَحْرِ أَرْضُونَ مِيلاً وَهَذَا عَرْضُ
الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ رَأْسِهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ وَلِغَلِيهِ سُمِّيَتْ جَزِيرَةً وَإِلَّا فَلَبَسَتْ
بِحَزْبِهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ لِاتِّصَالِ هَذَا الْقَدْرِ بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ. وَعَرْضُ جَزِيرَةِ
الْأَنْدَلُسِ فِي مَوْسَطِهَا عِنْدَ طَلَبُطَلَّةِ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا.....

قَالَ السُّنُّجُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنُ مُوسَى الرَّازِي : بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ هُوَ آخِرُ
الْإِفْلِيمِ الرَّابِعِ إِلَى الْمَغْرِبِ وَهُوَ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ بَلَدٌ كَرِيمٌ الْبَقْعَةُ طَيِّبٌ
الْزَيَّةُ خِصْبُ الْجَنَابِ مُنَجِّسُ الْأَنْهَارِ الْغَزَارِ وَالْعُمُونِ الْعَذَابُ. قَلِيلُ
الْهَوَاءِ ذَوَاتِ السُّمُومِ. مُعْتَدِلُ الْهَوَاءِ وَالْجَوِّ وَالنَّسِيمِ رَيْعُهُ وَخَرِيفُهُ
وَمَشْتَاؤُهُ وَمَصِيفُهُ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْإِعْتِدَالِ وَسَطُهُ مِنَ الْحِمَالِ لَا يَتَوَلَّدُ فِي
أَحَدِهَا فَضْلٌ يَتَوَلَّدُ مِنْهُ فِيمَا يَتَلَوُّهُ اتِّقَاصٌ تَنْصِلُ قَوَائِمُهُ أَكْثَرَ الْأَرْضِينَ
وَتَدُومُ مِتْلَاحِفَةٌ غَيْرُ مَفْقُودَةٍ. أَمَّا السَّاحِلُ مِنْهُ وَنَوَاحِيهِ فَيَبْدَأُ
بِيَاكُورِهِ. وَأَمَّا الثَّغَرُ وَجِهَانُهُ وَالْجِبَالُ الْخُصُوصَةُ يَبْدَأُ الْهَوَاءُ فَيَنْتَهِرُ
بِالْكَبِيرِ مِنْ قَدَرِهِ فَادَّةُ الْخُبَرَاتِ بِالْبَلَدِ مَنَادِيَةٌ فِي كُلِّ الْأَحْيَانِ وَقَوَائِمُهُ
عَلَى الْجَمَلَةِ غَيْرُ مَعْدُومَةٍ فِي كُلِّ أَوَانٍ. وَلَهُ خَوَاصٌّ فِي كَرَمِ النَّبَاتِ
تُؤَافِقُ فِي بَعْضِهَا أَرْضَ الْهِنْدِ الْخُصُوصَةَ بِكَرَمِ النَّبَاتِ وَجَوَاهِرِهَا مِنْهَا
أَنْ الْخَلْبَ وَهُوَ الْمَقْدَمُ فِي الْأَقَاوِيهِ وَالْمَنْفُضُ فِي أَنْوَاعِ الْأَشْنَانِ
لَا يَنْبُتُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا بِالْهِنْدِ وَالْأَنْدَلُسِ. وَالْأَنْدَلُسُ الْمَدَنُ
الْحَصِينَةُ وَالْعَافِلُ الْمُبِينَةُ وَالْفَلَاحُ الْحَرِيرَةُ وَالْمَصَانِعُ الْجَمِيلَةُ وَلَهَا الْبَرْ
وَالْبَحْرُ وَالسَّهْلُ وَالْوَعْرُ وَشَكْلُهَا مِثْلُ

وَهِيَ مُعْتَبَدَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي فِيهِ صَمٌّ قَادِسٌ

الْمَشْهُورُ بِالْأَنْدَلُسِ وَمِنْهُ مَخْرَجُ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ الشَّامِيِّ الْأَخْذِ فِيهِ
 الْأَنْدَلُسِ وَالرُّكْنُ الثَّلَاثِي هُوَ شَرْقِي الْأَنْدَلُسِ بَيْنَ مَدِينَةِ بَرْبُوتَةَ وَمَدِينَةِ
 بَرْدِيلَ مَا بِيَايِدِي الْفَرْجَةِ الْيَوْمَ يَزَارُهُ جَزِيرَتِي مَبُورَقَةَ وَمَنُورَقَةَ بِجَاوَرَةِ
 مِنَ الْبَحْرَيْنِ الْبَحْرِ الْخَبِيطِ وَالْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ وَسَمَّا الْبَرْبُوتَةَ يُعْرَفُ
 بِالْأَبْوَابِ وَهُوَ الْمَدْخَلُ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ عَلَى
 بَلَدِ أَرْجَةَ. وَمَسَافَتُهُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ مَسِيرَةُ يَوْمَيْنِ وَمَدِينَةُ بَرْبُوتَةَ تُقَابِلُ
 الْبَحْرَ الْخَبِيطَ. وَالرُّكْنُ الثَّلَاثُ مِنْهَا هُوَ مَا بَيْنَ الْجُوفِ وَالْغَرْبِ مِنْ حِزِّ
 جِلْفِيَّةَ حَيْثُ الْجَبَلُ الْمَوْفِيُّ عَلَى الْبَحْرِ. وَفِيهَا الصَّمْعُ الْعَالِي الْمَشْبَهُ بِصَمْعِ
 قَادِسَ وَهُوَ الطَّالِعُ عَلَى بَلَدِ بَرْطَانِيَّةَ

قَالَ وَالْأَنْدَلُسُ أَنْدَلَسَانِ فِي اخْتِلَافِ هُبُوبِ رِيَاحِهَا وَمَوَاقِعِ
 أَمْطَارِهَا وَجَرَيَانِ أَنْهَارِهَا أَنْدَلُسُ غَرْبِي وَأَنْدَلُسُ شَرْقِي. قَالَ غَرْبِي مِنْهَا
 مَا جَرَتْ أَوْدِيَّتُهُ إِلَى الْبَحْرِ الْخَبِيطِ الْغَرْبِيِّ وَبُسْطَرُ بِالرِّيَّاحِ الْغَرْبِيَّةِ
 وَمُبْتَدَأُ هَذَا الْخَوْزِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ مَعَ الْمَفَازَةِ الْخَارِجَةِ مَعَ الْجُوفِ إِلَى
 بَلَدِ شَنْتَهْرِيَّةَ طَالِعًا إِلَى خَوْزِ إَغْرِيطَةَ الْجَاوَرَةِ لِبُلْكَبُلَّةَ مَاثِلًا إِلَى
 الْغَرْبِ وَمَجَاوِرًا لِلْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ الْمَوَازِي لِقَرْطَاجَنَةِ الْخُلَنَاءِ الَّتِي مِنْ بَلَدِ
 لُورَقَةَ وَالْخَوْزُ الشَّرْقِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْأَنْدَلُسِ الْأَفْصَى وَتَجْرِي أَوْدِيَّتُهُ إِلَى
 الشَّرْقِ وَأَمْطَارُهُ بِالرَّيْحِ الشَّرْقِيَّةِ وَهُوَ مِنْ حَدِّ جَبَلِ الْبَشْكَنْشِ هَائِلًا مَعَ
 وَادِيهِ إِتْرَ إِلَى بَلَدِ شَنْتَ مَرِيَّةَ. وَمِنْ جُوفِ هَذَا وَغَرْبِهِ الْبَحْرُ الْخَبِيطُ
 وَفِي الْقِبْلَةِ مِنْهُ الْبَحْرُ الْغَرْبِيُّ الَّذِي مِنْهُ يَجْرِي الْبَحْرُ الْمَتَوَسِّطُ الْخَارِجُ إِلَى
 بَلَدِ الشَّامِ وَهُوَ الْبَحْرُ الْمَسْمِيُّ بِبَحْرِ يَبْرَانَ وَمَعْنَاهُ الَّذِي بِشَقِّ حَائِرَةٍ

الْأَرْضِ وَبَسَمِ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ. أَنْتَهَى

قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ الْمَعْرُوفُ بِأَبْنِ النَّظَامِ. بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ
عِنْدَ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ. قَالَ الْأَنْدَلُسُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ مَا صَبَتْ أَوْدِيَّتُهُ إِلَى
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ الْمَتَوَسِّطِ الْمَتَّاعِدِ مِنْ أَسْفَلِ أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى الْمَشْرِقِ
وَذَلِكَ مَا بَيْنَ مَدِينَةِ تَدْمِيرَ إِلَى سَرَفُسْطَةَ. وَالْأَنْدَلُسُ الْغَرْبِيُّ مَا صَبَتْ
أَوْدِيَّتُهُ إِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالْمَحِيطِ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ الْخُدَّ إِلَى
سَاحِلِ الْمَغْرِبِ. فَالْشَّرْقِيُّ مِنْهَا يُمَطَّرُ بِالرَّيْحِ الشَّرْقِيَّةِ وَيَضْلُجُ عَلَيْهَا وَالْغَرْبِيُّ
يُمَطَّرُ بِالرَّيْحِ الْغَرْبِيَّةِ وَبِهَا صَلَاحَةٌ وَجِبَالُهُ هَاطِطَةٌ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلًا بَعْدَ
جَبَلٍ. وَإِنَّمَا قَسَمَتُهُ الْأَوَّلُ جُزْءَيْنِ لِاخْتِلَافِهَا فِي حَالِ أَمْطَارِهَا وَذَلِكَ
أَنَّهُ مِمَّا اسْتَحْكَمَتِ الرِّيحُ الْغَرْبِيَّةُ كَثُرَ مَطَرُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيِّ وَفَحَطَ
الْأَنْدَلُسُ الشَّرْقِيُّ وَمِمَّا اسْتَحْكَمَتِ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ كَثُرَ مَطَرُ الْأَنْدَلُسِ
الشَّرْقِيِّ وَفَحِطَ الْغَرْبِيُّ. وَأَوْدِيَّتُهُ هَذَا النِّسْمُ تَجْرِي مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ
بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ. وَجِبَالُ الْأَنْدَلُسِ الْغَرْبِيِّ تَمْتَدُّ إِلَى الشَّرْقِ جَبَلًا بَعْدَ
جَبَلٍ تَقْطَعُ مِنَ الْجُوفِ إِلَى الْقِبْلَةِ وَالْأَوْدِيَّةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْجِبَالِ
تَقْطَعُ بَعْضُهَا إِلَى الْقِبْلَةِ وَبَعْضُهَا إِلَى الشَّرْقِ وَتَنْصَبُّ كُلُّهَا إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ
بِالْأَنْدَلُسِ الْقَاطِعِ إِلَى الشَّامِ وَهُوَ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ. وَمَا كَانَتْ مِنْ بِلَادٍ
جَوْفِي الْأَنْدَلُسِ مِنْ بِلَادٍ جَلِيفَةٍ وَمَا يَلِيهَا فَإِنَّ أَوْدِيَّتَهُ تَنْصَبُّ إِلَى الْبَحْرِ
الْكَبِيرِ الْمَحِيطِ بِتَاجِيَةِ الْجُوفِ. وَصِفَةُ الْأَنْدَلُسِ شَكْلٌ مُرَكَّنٌ عَلَى مِثَالِ
الشَّكْلِ الْمَثَلِيِّ. وَكُنْهَا الْوَاحِدُ فِيمَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ حَيْثُ اجْتِمَاعُ
الْبَحْرَيْنِ عِنْدَ صَمِّ قَادِسَ. وَرَكُنْهَا الثَّانِي فِي بَلَدِ جَلِيفَةٍ حَيْثُ الصَّمِّ

الْمُسِيَّةُ صَمَّ قَادِسَ مُقَابِلَ جَزِيرَةِ بَرْطَانِيَّةَ. وَرَكِبَهَا الْفَالِكُ بَيْنَ مَدِينَةِ
بَرْبُونَةَ وَمَدِينَةِ بَرْجِيلَ مِنْ بَلَدِ الْفَرَنْجَةِ يَحْتَبُ بِقُرْبِ الْبَحْرِ الْخِيطِ مِنْ
الْبَحْرِ الشَّامِيِّ الْمَتَوَسِّطِ فَبَكَادَانِ يَجْتَمِعَانِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَبْصِيرُ بَلَدِ
الْأَنْدَلُسِ جَزِيرَةٌ بَيْنَهُمَا فِي الْحَقِيقَةِ لَوْلَا أَنَّهُ يَتَنَفَّسُ بَيْنَهُمَا بَرْزَخُ بَرْيُو صَحْرَاءَ
وَعِمَارَةُ مَسَافَةِ مَسِيرَةِ يَوْمٍ لِلرَّاكِبِ مِنْهُ الْمَذْخَلُ إِلَى الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي
يُقَالُ لَهَا الْأَبْوَابُ وَمِنْ قُبُلِهِ يَتَّصِلُ بَلَدُ الْأَنْدَلُسِ يَتْلُكَ الْيَلَادِ الْمَعْرُوفَةِ
بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ ذَاتِ الْأَلْسِنِ الْمُخْتَلِفَةِ

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَمِيزَانُ وَصَفِ الْأَنْدَلُسِ أَنَّهَا جَزِيرَةٌ قَدْ أَحْدَقَتْ
بِهَا الْبَحَارُ فَكَثُرَتْ فِيهَا الْخُصْبُ وَالْعِمَارَةُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ. فَمَتَى سَافَرْتَ مِنْ
مَدِينَتِهِ إِلَى مَدِينَتِهِ لَا تَكَادُ تَنْقَطِعُ مِنَ الْعِمَارَةِ مَا بَيْنَ قُرَى وَمِيَاهِ وَمَزَارِعِ
وَالصَّحَارِيِّ فِيهَا مَعْدُومَةٌ. وَمَا أَخْصَصَتْ بِهِ أَنْ قُرَاهَا فِي نَهَائِيَةِ مِنَ الْجُمَالِ
يَتَصَنَعُ أَهْلُهَا فِي أَوْضَاعِهَا وَتَنْبِيضِهَا لِئَلَّا تَنْبُو الْعُيُونُ عَنْهَا فَبِئْسَ مَا قَالَ
الْوَزِيرُ ابْنُ الْحَجَّارَةِ فِيهَا

لَا حَتَّ قُرَاهَا بَيْنَ خُضْرٍ أَيْكَمَا كَالْدُرِّ بَيْنَ زَبَرْجَدٍ مَكُونٍ
وَلَقَدْ تَعَجَّبْتُ لَهَا دَخَلْتُ الدِّيَارَ الْبَصْرِيَّةَ مِنْ أَوْضَاعِ قُرَاهَا الَّتِي تُنْكَرُ
الْعَيْنَ يَسْرَادَهَا وَيَضِيقُ الصَّدْرُ بِضِيقِ أَوْضَاعِهَا. وَفِي الْأَنْدَلُسِ جِهَاتٌ
تُقَرَّبُ فِيهَا إِلَى بَيْتِ الْعَظِيمَةِ الْمُبَصَّرَةِ مِنْ مِثْلِهَا. وَالْمِثَالُ فِي ذَلِكَ أَنَّكَ
إِذَا تَوَجَّهْتَ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ فَعَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَبَعْضِ آخِرِ مَدِينَةِ شَرِيشَ وَهِيَ
فِي نَهَائِيَةِ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالنَّصَارَةِ. ثُمَّ يَلِيهَا الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءُ كَذَلِكَ ثُمَّ
مَالَقَةُ. وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْأَنْدَلُسِ وَلِهَذَا كَثُرَتْ مَدَنُهَا وَكَثُرَ مَا مَسُورٌ مِنْ

أَجَلِ الْأَسْتِعْدَادِ لِلْعَدُوِّ فَحَصَلَ لَهَا بِذَلِكَ التَّشْيِيدُ وَالزَّيْنُ وَفِي حُصُونِهَا
مَا يَنْتَفِي فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ مَا يُنْفَتُ عَلَى عَشْرِينَ سَنَةً لَا مِتْنَاعَ مَعَاظِلِهَا وَخُرْبَةِ
أَهْلِهَا عَلَى الْحَرْبِ وَأَعْيَادِهَا لِمُجَاوَرَةِ الْعَدُوِّ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ وَكَثْرَةِ مَا
تُخْزِنُ الْغَلَّةُ فِي مَطَابِيرِهَا . فَمِنْهَا مَا يَطُولُ صَبْرُهُ عَلَيْهَا نَحْوَ مِائَةِ سَنَةٍ .
قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ وَلِذَلِكَ أَدَامَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَفَتْ أُلُفْعُ إِلَى الْآنَ . وَإِنْ كَانَ
الْعَدُوُّ قَدْ نَفَصَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَشَارَكَ فِي أَوْسَاطِهَا . فَبِئْسَ الْبَنِيَّةُ مَنَعَةُ عَظِيمَةٌ
فَأَرْضُ بَقِي فِيهَا مِثْلُ إِشْبِيلِيَّةَ وَغَرْنَاطَةَ وَمَالْفَةَ وَالْبَرْنَةَ وَمَا يُنْصَافُ إِلَى
هَذِهِ الْأَحْوَاضِ الْعَظِيمَةِ الْمُبَصَّرَةِ الرَّجَاءَ فِيهَا قُوَى بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ . أَنْتَهَى
وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي إِشْبِيلِيَّةَ إِنَّهَا قَاعِدَةُ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ وَحَاضِرَتُهَا
وَمَدِينَةُ الْأَدَبِ وَاللَّهُوِ وَالطَّرَبِ وَهِيَ عَلَى ضَفَةِ النَّهْرِ الْكَبِيرِ عَظِيمَةٌ
أَشْأَنُ طَبِيعَةِ الْمَكَانِ لَهَا الْبَرُّ الْمَدِيدُ وَالْبَحْرُ السَّاكِنُ وَالْوَادِي الْعَظِيمُ وَهِيَ
قَرِيبَةٌ مِنَ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ إِلَى أَنْ قَالَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ الشَّرَفِ إِلَّا مَوْضِعُ
الشَّرَفِ الْمُقَابِلِ الْمُطْلُ عَلَيْهَا الْمَشْهُورُ بِالزَّيْتُونِ الْكَبِيرِ الْمُسْتَدِ فَرَاسِخَ
فِي فَرَاسِخِ لَكُونِ . وَبِهَا مَنَارَةٌ فِي جَانِبِهَا بَنَاهَا بَعْنُوبُ الْمَنْصُورُ لَيْسَ فِي بِلَادِ
الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ بِنَاءٍ مِنْهَا وَعَسَلُ الشَّرَفِ يَبْقَى حِينًا لَا يَنْزَمُلُ وَلَا يَنْبَدِلُ
وَكَذَلِكَ الزَّيْتُ وَالزَّيْتُونُ . وَقَالَ ابْنُ مُنْجَرٍ إِنَّ إِشْبِيلِيَّةَ عَرُوسُ بِلَادِ
الْأَنْدَلُسِ لِأَنَّ تَاجَهَا الشَّرَفُ وَفِي عُنُقِهَا سِمَطُ النَّهْرِ الْأَعْظَمِ وَلَيْسَ فِي
الْأَرْضِ أَثَمٌ حَسَنًا مِنْ هَذَا النَّهْرِ يُضَاهِي دِجْلَةَ وَالْفَرَاتَ وَالنَّيْلَ تَسِيرُ
الْقَوَارِبُ فِيهِ لِلزَّهْوَةِ وَالسَّيْرِ وَالصَّيْدِ تَحْتَ ظِلَالِ الْفَارِ وَتَغْرِيدُ الْأَطْبَارِ
أَرْبَعَةَ وَعَشْرِينَ مِيلًا وَيَتَعَاطَى النَّاسُ السَّرْحَ مِنْ جَانِبَيْهِ عَشْرَةَ فَرَاسِخَ فِي

حجارة منسوبة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى. وبالجبلية فهي قد حازت البر والبحر والزرع والضرع وكثرة الفار من كل جنس وقصب السكر ويجمع منها الفريز الذي هو أجل من اللبك الهندي وزيوتها بخزن تحت الأرض أكثر من ثلاثين سنة. ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طري. انتهى ملخصاً

ولما ذكر ابن الأندلس قال لا يتروّد فيها أحد ما حبس سلك كثير أيامها وعيونها وربما لقي المسافر فيها في اليوم الواحد أربع مداين ومن المعاقيل والقرى ما لا يحصى وهي بطاح خضر وقصور بيض. قال ابن سبيد وأنا أقول كلاماً فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر المدونة ورأيت مدنها العظيمة كبراكش وفاس وسلا وسبتة. ثم طفت في أفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط قرأت بحاية ونونس. ثم دخلت الديار البصرية قرأت الإسكندرية والقاهرة والنسطاط. ثم دخلت الشام قرأت دمشق وحلب وما بينهما لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ومدينة دمشق بالشام وفي حاة منحة أندلسية ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشيد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في حولة بني عبد المؤمن وبعض الأماكن في نونس. وإن كان الغالب على نونس البنية بالحجارة كالإسكندرية ولكن الإسكندرية أفسح شوارعاً وبسطاً وأندع ومباني حلب داخله فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة وفي وضعها وترتيبها إثنان. انتهى. ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قول ابن سفي

لَرِيفٍ وَالْإِحْسَانُ لَهُ عَادَةٌ

فِي أَرْضٍ أُنْدَلُسُ تَلْنَدُ نَعْمَاءَ
وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا بِأَلْعَبِشِ مُتَمَعٌ
وَأَيْنَ بَعْدُلٍ عَنْ أَرْضٍ تُحْضُ بِهَا
وَكَيْفَ لَا يَبْهَجُ الْأَبْصَارُ رَوْقُهَا
أَنْهَارُهَا فِضَّةٌ وَالْبَيْسُكَ تَرْبُهَا
وَاللَّهْوَاءُ بِهَا لُطْفٌ يَرِيقُ بِهِ
لَيْسَ النَّسِيمُ الَّذِي يَهْفُو بِهَا سَحَرًا
وَأِنَّمَا أَرْجُ النَّدَى أَسْتَنَارَ بِهَا
وَأَيْنَ يَبْلُغُ مِنْهَا مَا أُصِفَتْهُ
قَدْ مِزَّتْ مِنْ جِهَاتِ الْأَرْضِ حِينَ بَدَتْ
دَارَتْ عَلَيْهَا نِطَافًا أَمَجْرُ خَفَّتْ
لِذَاكَ يَسِيمُ فِيهَا الزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ
فِيهَا خَلَعْتُ عِدَارِي مَا بِهَا عَوْضٌ
وَلَا يَبْقَى فِيهَا الْقَلْبُ سِرَاءَ
وَلَا تُقَارِقُ فِيهَا الْقَلْبُ سِرَاءَ
وَلَا تُقَوْمُ بِحُفِّ الْأَنْسِ صَهْبَاءَ
عَلَى الْمَدَامَةِ أَمْوَاهُ وَأَفْبَاءَ
وَكُلُّ رَوْضٍ بِهَا فِي الْوَشْيِ صَنْعَاءَ
وَالْحَزْرُ رَوْضُهَا وَالذُّرُ حَصْبَاءَ
مَنْ لَا يَرِيقُ وَتَبْدُو مِنْهُ أَهْوَاءُ
وَلَا أُنْتَارُ لِأَيِّ الطَّلَبِ أُنْدَاءُ
فِي مَاءٍ وَرَدٍ فَطَابَتْ مِنْهُ أَرْجَاءُ
وَكَيْفَ تَجْوِي الَّذِي حَازَتْهُ إِحْصَاءُ
وَجَدَا بِهَا إِذْ تَبَدَّتْ وَهِيَ حَسْنَاءُ
وَالطَّبَرُ يَشْدُو وَلِلْأَغْصَانِ إِضْعَاءُ
فَهِيَ الرِّيَاضُ وَكُلُّ الْأَرْضِ صَحْرَاءُ

وَلِلَّهِ دَرُّ آيِنِ خَفَاجَةٌ حَيْثُ يَقُولُ

إِنِّ لِلْجَنَّةِ بِأَلْأَنْدَلُسِ
فَسَنَى صُنْعِيهَا مِنْ شَنْبٍ
فَإِذَا مَا هَبَّ الرِّيحُ صَبَا
وَقَدْ تَقَدَّمَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ. قَالَ آيِنُ سَعِيدٍ قَالَ آيِنُ خَفَاجَةٌ هَذِهِ
الْآيَاتُ وَهُوَ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى فِي بَرِّ الْعُدُوفِ وَمَنْزِلُهُ فِي شَرْقِ

الْأَنْدَلُسِ بِحَزْبَةِ شَفَرٍ. وَقَالَ ابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمَغْرِبِ مَا نَصَهُ قَوَاعِدُ مِنْ
كِتَابِ الشُّهُبِ الثَّانِيَةِ فِي الْإِنْصَافِ بَيْنَ الْمَشَارِقَةِ وَالْمَغَارِبَةِ أَوَّلُ مَا
تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى فَاعِلَةِ السُّلْطَنَةِ يَا الْأَنْدَلُسِ فَتَقُولُ إِنَّمَا مَعَ مَا بِيَدِي
عُبَادُ الصَّلِيبِ مِنْهَا أَعْظَمُ سُلْطَنَةٍ كَثُرَتْ مَمَالِكُهَا وَتَشَعَّبَتْ فِي وَجُوهِ
الْإِسْطِظْهَارِ لِلْسُّلْطَانِ إِعَانَتُهَا وَنَدَعُ كَلَامَنَا فِي هَذَا الشَّأْنِ وَنَنْتَقِلُ مَا
قَالَهُ ابْنُ حَوْقَلٍ النَّصِيبِيُّ فِي كِتَابِهِ لَمَّا دَخَلَهَا فِي مُدَّةِ خِلَافَةِ بَنِي مَرْوَانَ
بِهَا فِي الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَهَا قَالَ وَأَمَّا جَزِيرَةُ الْأَنْدَلُسِ
فَجَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ طَوَّلُهَا دُونَ الشَّهْرِ فِي عَرْضِ نِيفٍ وَعِشْرِينَ مَرَّحَلَةً
تَغْلِبُ عَلَيْهَا أَلْبَاهُ الْحَجَارِيَّةِ وَالشَّجَرُ وَالشَّهْرُ وَالرُّخْصُ وَالسَّعَةُ فِي الْأَحْوَالِ
مِنَ الرَّفِيفِ الْفَاحِشِ وَالْخَضْبِ الظَّاهِرِ إِلَى أَسْبَابِ التَّمَلُّكِ الْفَاشِيَةِ فِيهَا
وَلَمَّا هِيَ مِنْ أَسْبَابِ رَغْدِ الْعَيْشِ وَسَعْنِهِ وَكَثْرَتِهِ بِمِلْكِ ذَلِكَ مِنْهُمْ مَهْمُومٌ
وَلَرَبَابُ صَنَائِعِهِمْ لِقَلَّةِ مُؤُونَتِهِمْ وَصَلَاحِ بِلَادِهِمْ . ثُمَّ أَخَذَ فِي عِظَمِ
سُلْطَانِهَا وَوَصْفِ وَفُورِ جَبَابِيَّتِهِ وَعِظَمِ مَرَاتِفِهِ

وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَمِمَّا يُدَلُّ بِالْقَلِيلِ مِنْهُ عَلَى كِبَرِهِ أَنَّ سِكَّةَ دَارِ
ضَرْبِهِ عَلَى الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ دَخَلَهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَتَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَرَفُ
الدِّينَارِ سَبْعَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا هَذَا إِلَى صَدَقَاتِ الْبَلَدِ وَجَبَابِيَّتِهِ وَخَرَاجَاتِهِ
وَأَعْشَارِهِ وَضَمَانَاتِهِ وَالْأَمْوَالِ الْمَرْسُومَةِ عَلَى الْمَرَاكِبِ الْوَارِدَةِ وَالصَّادِرَةِ
وغير ذلك . وَذَكَرَ ابْنُ بَشْكُوَالٍ أَنَّ جَبَابَةَ الْأَنْدَلُسِ بَلَغَتْ فِي مُدَّةِ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ خَمْسَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَارْبَعِينَ أَلْفَ وَثَمَانِينَ
أَلْفًا مِنَ السُّوقِ وَالْمُسْتَخْلَصِ سَبْعِينَ أَلْفَ وَخَمْسَةَ وَسِتُّونَ أَلْفَ دِينَارٍ

ثُمَّ قَالَ آيُنُ حَوْقَلٍ. وَمِنْ أَعْجَبِ مَا فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بَقَاؤُهَا عَلَى مَنْ هِيَ فِي يَدِهِ مَعَ صِغَرِ أَحْلَامِ أَهْلِهَا وَضَعَةِ نُفُوسِهِمْ وَتَقْصِ عُقُولِهِمْ وَبُعْدِهِمْ مِنَ الْبَاسِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْفُرُوسِيَّةِ وَالْبَسَالَةِ وَلِقَاءِ الرِّجَالِ وَمَرَاسِ الْأَنْجَادِ وَالْأَبْطَالِ مَعَ عِلْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِعَمَلِهَا فِي نَفْسِهَا وَمَقْدَارِ جَبَائِلِهَا وَمَوَاقِعِ نَعِيمِهَا وَلَذَائِهَا

قَالَ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ مُكْبِلُ هَذَا الْكِتَابِ. لَمْ أَرُبْدَا مِنْ إِثْبَاتِ هَذَا الْفَضْلِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَهْلِ بَلَدِي فِيهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْتَعَصُّبِ مَا لَا يَخْفَى وَلِسَانُ أَتْحَالٍ فِي الرَّدِّ أَنْطَقُ مِنْ لِسَانِ الْبَلَاغَةِ. وَلَيْتَ شِعْرِي إِذْ سَلِبَ أَهْلُ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْعُقُولَ وَالْآرَاءَ وَالْهَيْمَ وَالشَّجَاعَةَ. فَمَنِ الَّذِينَ دَبَّرُوها بِأَرْأَيْهِمْ وَعُقُولِهِمْ مَعَ مُرَاصَدَةِ أَعْدَائِهَا الْجَاوِرِينَ لَهَا مِنْ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ وَتَيْفٍ وَمَنِ الَّذِينَ حَمَوْهَا بِسَالَتِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُتَصِلَةِ بِهِمْ فِي دَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا نَحْوَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي نُصْرَةِ الصَّلِيبِ وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْهُ إِذْ كَانَ فِي زَمَانٍ قَدْ دَلَّتْ فِيهِ عِبَادُ الصَّلِيبِ إِلَى الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَعَانُوا كُلَّ الْعَبَثِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ حَيْثُ الْجُمْهُورُ وَالْقَبَّةُ الْعُظْمَى حَتَّى أَنَّهُمْ دَخَلُوا مَدِينَةَ حَلَبَ وَمَا أَذْرَاكَ وَقَعَلُوا فِيهَا مَا فَعَلُوا وَبِلَادَ الْإِسْلَامِ مُتَصِلَةً بِهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَا هُوَ مُسْطَوِّرٌ فِي كُتُبِ التَّوَارِيخِ وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ وَأَشَدِّ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْمُحَصَّنِينَ مِنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَتِمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ بَسَاطِطِ بِلَادِهِمْ فَيَسْبُونَ وَيَأْسِرُونَ فَلَا تَجْنِبُ عَنْهُمْ الْمُلُوكُ الْجَاوِرَةُ عَلَى حِمَمِ الدَّاءِ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاءِ الَّذِي لَا يُطْبَقُ. وَقَدْ كَانَتْ

جَزِيرَةُ الْأَنْدَلُسِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بِالضُّدَيْنِ الْبِلَادِ الَّتِي تَرَكَ وَرَاءَهُ ظَهْرَهُ
وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي تَارِيخِ ابْنِ حِبَّانَ وَغَيْرِهِ
فِي الْإِقْلَامِ الْأَنْدَلُسِيِّ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِبَاةِ وَفِيهَا عَلَى يَدِ مُوسَى
بْنِ نَصِيرٍ وَمَوْلَاهُ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ

قَالَ ابْنُ خَلْدُونُ بَعْدَ ذِكْرِ أَنْ الْقَوَاطِينِ كَانَ لَمْ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ
وَأَنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَخَلَ بَيْتَهُ لَدَرِيْقٍ مَا نَصَهُ وَكَانَتْ لَمْ خُطُوهُ وَرَاءَهُ الْبَحْرَ
فِي هَذِهِ الْعُدُوفِ الْجَنُوبِيَّةِ خَطُّوْهَا مِنْ فُرْصَةِ الْحِجَازِ بِطَنْجَةَ وَمِنْ رُقَاقِ
الْبَحْرِ إِلَى بِلَادِ الْبَرْبَرِ وَاسْتَعْبَدُوْهُمْ. وَكَانَ مَلِكُ الْبَرْبَرِ بِذَلِكَ الْقَطْرِ
الَّذِي هُوَ الْيَوْمَ جِبَالُ غَمَارُفٍ يُسَمَّى بِلِيَانٍ فَكَانَ يَدِينُ بِطَاعَتِهِمْ وَيَمْلِكُهُمْ
وَمُوسَى بْنُ نَصِيرٍ أَمِيرُ الْغَرْبِ إِذْ ذَاكَ عَامِلٌ عَلَى آفَرِيْقِيَّةٍ مِنْ قَبْلِ
الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَنْزِلُهُ بِالْقَبْرِوَانِ. وَكَانَ قَدْ أَغْزَى لِذَلِكَ الْعَهْدِ
عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَدَوَّخَ أَقْطَارَهُ وَأَخْنَعَ فِي جِبَالِ
طَنْجَةَ هَذِهِ حَتَّى وَصَلَ خَلِيجَ الرُّقَاقِ وَاسْتَنْزَلَ بِلِيَانَ لِبَطَاعَةِ الْإِسْلَامِ وَخَلَفَ
مَوْلَاهُ طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ اللَّيْثِي وَالْيَا بِطَنْجَةَ. وَكَانَ بِلِيَانُ يَنْتَفِعُ عَلَى لَدَرِيْقٍ

(١) ان لدریق (ای رودریق) اخر ملوک الوزیقوطی فی اسپانیا کان ولد دوکا قرطبة
الذی امر قلع اعینہ فیتہسا الملک الوزیقوطی. فنہض رودریق المشار الہ ضده وحاربه فترع
منہ التاج الملوکی (سنہ ٧١٠ مہجیہ) غیر ان اولاد الملک واقاربہ استغاثوا بالعرب فانوا
لنجدنہم وامامہم طارق فاستولى علی البوغاز المعروف باسمہ وهو بوغاز جبل طارق. فسلم
الہ رودریق بجموشہ وكانت نحو ٢٠ الف مقاتل فحارب الجیشان مئة تسعة ايام فی کبریس
فقتل رودریق فی الیوم الثالث (سنہ ٧١١). هذا ومن القبل التابع ان الکونت بلیان
(ای جولیانوس) قد استغاث بالعرب لیتنقم عن اہانہ الحفت بابتہ (بوللیر)

مَلِكِ الْقُوْطِ لِعَهْدِهِ بِالْأَنْدَلُسِ فَعَلِمَا زَعَمُوا بِابْنِهِ النَّاشِئَةِ فِي دَارِهِ
فَغَضِبَ لِذَلِكَ وَأَجَازَهُ إِلَى لُدْرِيقَ وَأَخَذَ ابْنَتَهُ مِنْهُ . ثُمَّ لَحِقَ بِطَارِقِ
فَكَشَفَ لِلْعَرَبِ عَوْرَةَ الْقُوْطِ وَدَلَّهُمْ عَلَى عَوْرَةِ فِيهِمْ أَمَكَّتْ طَارِقًا فِيهَا
الْفُرْصَةُ فَأَنْتَهَزَهَا لَوْفِيهِ وَأَجَازَ الْبَحْرَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ
يَا ذِي أَيْمَنِ مُوسَى بْنُ تَصِيرٍ فِي نَحْوِ ثَلَاثِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَأَخْشَدَ مَعَهُمُ
مِنَ الْبَرَبِرِ زُهَاءَ عَشْرَةِ آلَافٍ قَصِيرَهَا عَسْكَرُ بْنُ أَحَدَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَنَزَلَ
بِهِ جَبَلُ الْتَغْرِ قُسَيْيَ جَبَلُ طَارِقِ بِهِ وَالْآخِرُ عَلَى طَرِيفِ بْنِ مَالِكِ
الْتَغْيِيِّ وَنَزَلَ بِمَكَانٍ مَدِينَةِ طَرِيفِ قُسَيْيَ بِهِ وَأَدَارُوا الْأَسْوَارَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
لِللَّحْصَنِ . وَبَلَغَ الْخَبْرُ إِلَى لُدْرِيقَ وَنَهَضَ إِلَيْهِمْ بِجُرْأَمِ الْأَعَاجِمِ وَأَهْلِ
مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي زُهَاءَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا وَزَحَنُوا إِلَيْهِ فَالْتَقَوْا بِمُحْصِي شَرِيشَ
فَهَزَمَهُ اللَّهُ وَنَفَلَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَرِقَابَهُمْ

وَكَتَبَ طَارِقُ إِلَى مُوسَى بْنِ تَصِيرٍ بِالْتَغْرِ وَبِالْفَنَاءِ فَحَرَكْنَهُ الْغَيْثُ
وَكَتَبَ إِلَى طَارِقِ بِتَوَعُّدٍ إِنْ تَوَعَّلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَيَأْمُرُهُ أَنْ لَا يَجَاوِزَ
مَكَانَهُ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْقَبْرَوَانِ وَلَدُ عَبْدِ اللَّهِ وَخَرَجَ مَعَهُ
حَبِيبُ بْنُ مَسَدَةَ الْهَنْدِيُّ وَنَهَضَ مِنَ الْقَبْرَوَانِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ مِنَ
الْهِجْرَةِ فِي عَسْكَرٍ ضَخْمٍ مِنْ وُجُوهِ الْعَرَبِ الْمَوَالِي وَعُرْفَاءُ الْبَرَبِرِ وَوَأَنَّى
خَلِيجُ الرُّفَاقِ مَا بَيْنَ طَلْجَةِ وَالْجَزِيرَةِ الْمُحْضَرَاءِ . فَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ وَتَلَقَّاهُ
طَارِقُ فَأَنْقَادًا وَاتَّبَعَ وَأَتَمَّ مُوسَى الْتَغِ وَتَوَعَّلَ فِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى بَرَشْلُونَةَ
فِي جِهَةِ الشَّرْقِ وَلَدُونَةُ فِي الْجَوْفِ وَصَنَمَ قَادِسَ فِي الْغَرْبِ وَدَوَّخَ أَفْطَارَهَا
وَجَمَعَ غَنَائِمَهَا . وَاجْتَمَعَ أَنْ بَاتِيَ الْمَشْرِقَ مِنْ نَاحِيَةِ قُسْطَنْطِينَةِ وَبَجَاوَزَ إِلَى

الشام خروبه ودروب الأندلس ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم
 النصرانية مجاهداتهم مستلجماً لهم إلى أن يلحق يدار الخلافة
 ونما الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه به كان المسلمين من دار الحرب
 ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين . فبعث إليه بالتوقيع
 والأنصاف وأسر إلى سيفيه أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع وكتب
 له بذلك عهد ففت ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن
 أنزل الرابطة والحامية يشغورها وأنزل ابنه عبد العزيز لسيدها وجهاد
 عدوها وأنزله يقرطبة فاتخذها دار إماره وأحل موسى بالقرطبة سنة
 خمس وتسعين وأرسل إلى المشرق سنة ست بعدها يها كان معه من
 الغنائم والدخائر والأموال على العجل والظهير يقال إن من جملتها
 ثلاثين ألف رأس من السبي

وولي موسى على إفريقية ابنه عبد الله وقدم على سليمان بن عبد
 الملك فخطه ونكبه وفارت عساكر الأندلس بإبنه عبد العزيز بإغراء
 سليمان فقتلوه لستين من ولايته . وكان خيراً فاضلاً وأفتتح في ولايته
 مدائن كثيرة وولي من بعده أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت

(١) موسى بن نصير قائد جيوش الخليفة الوليد الأول أقامه مولاة ملكاً على إفريقية
 في ٧٠٥ فاستفد الكونت جوليانوس في ٧١٠ فارسل مولاة طارقاً فاحذ من اليزقوط
 أكثر ولايتهم . ثم دخل البلاد فاتتحتها وقطع جبال برباني وتقدم إلى فرنسا حتى ابواب
 كاركاسون فطلبه الوليد إلى دمشق في ٧١٥ بصفة كونه قد اذنب بعبه على مولاة طارق
 لحسه له فحكم عليه بدفع ٢٠٠٠٠٠ دوكا ذهب أي نحو مليوني فرنك وضرب بالعصي
 ثم بقي إلى مكة فتوفي في ٧١٨ (بولس)

مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ قَوْلِي عَلَيْهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ
ثُمَّ تَنَابَعَتْ وَلَاَةُ الْعَرَبِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ نَارَةٌ مِنْ فَيْلٍ أَنْجَلِيْفَةٍ وَنَارَةٌ مِنْ
فَيْلٍ عَامِلِيَةٍ بِالْقَبْرَوَانِ وَأُخْخُوا فِي أَمْرِ النَّصَارَى وَافْتَتَحَ بَرَشْلُونَةَ مِنْ جِهَةِ
الْمَشْرِقِ وَحُصُونِ قَشْتَالَةَ وَسَائِطَهَا مِنْ جِهَةِ الْجُوفِ وَأَنْقَرَضَتْ أُمُّ
الْقُوطِ وَلَوَى الْجَلَالِيَّةُ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أَمْرِ الْعَجَمِ إِلَى جِبَالِ قَشْتَالَةَ وَلَرُبُونَةَ
وَأَقْوَاهِ الدُّرُوبِ فَتَحَصَّنُوا بِهَا وَأَجَارَتْ عَسَاكِرُ الْمُسْلِمِينَ مَا وَرَأَتْ
بَرَشْلُونَةَ مِنْ دُرُوبِ الْحَزْبِ حَتَّى أَخْلَوْا الْبَسَائِطَ وَرَأَتْهَا وَتَوَعَّلُوا فِي
يَلَادِ الْفَرَنْجَةِ وَعَصَنْتْ رِيحُ الْإِسْلَامِ بِأَمْرِ النَّصَارَى مِنْ كُلِّ جِهَةٍ
وَرُبَّمَا كَانَتْ بَيْنَ جُنُودِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعَرَبِ اخْتِلَافٌ وَتَنَازُعٌ أَوْجَدَ
لِلْعَدُوِّ بَعْضَ الْكَرِّ فَرَجَعَ الْإِفْرَنْجُ مَا كَانُوا غَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ مِنْ يَلَادِ
بَرَشْلُونَةَ لِعَهْدِ ثَمَانِينَ سَنَةً مِنْ لَدُنْ فَتْحِهَا وَاسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ

انتهى المنقول

من كتاب فتح الطب من غصن الأندلس الرطيب

للعلامة المغربي

٢٠
مِنْ كِتَابِ الْإِقَادَةِ وَالْإِعْبَارِ فِي الْأُمُورِ الْمَشَاهِدَةِ وَالْأَحْوَاثِ

الْمُعَابَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ

لِأَبِي اللَّطِيفِ

الْمَقَالَةُ الْأُولَى وَهِيَ سِتَّةُ فُصُولٍ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

فِي خَوَاصِّ مِصْرَ الْعَامَةِ لَهَا

إِنَّ أَرْضَ مِصْرَ مِنَ الْبِلَادِ الْعَجِيبَةِ الْآثَارِ الْغَرِيبَةِ الْأَخْبَارِ وَهِيَ وَادٍ
يَكْتَفِيهِ جَبَلَانِ شَرْقِيٌّ وَغَرْبِيٌّ وَالشَّرْقِيُّ أَعْظَمُهُمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَسْوَافِ
وَيْتَارِبَانِ بِأَسْنَا حَتَّى يَكَاذِبَانِ بِنَاسَانِ ثُمَّ يَنْفَرُ جَانِ قَلِيلًا قَلِيلًا وَكُلُّهُمَا أَمْتَدَا
طَوَلَا أَنْفَرَجَا عَرْضًا حَتَّى إِذَا زَايَا الْفُسْطَاطَ كَانَ بَيْنَهُمَا مَسَافَةٌ يَوْمَ قَا
دُونَهُ ثُمَّ يَتْبَاعُ عِدَابُ أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ وَالنَّيْلُ يَنْسَابُ بَيْنَهُمَا وَيَتَشَعَّبُ
بِأَسَافِلِ الْأَرْضِ وَجَمِيعُ شُعْبِهِ تَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْمَلْحِ

وَهَذَا النَّيْلُ لَهُ خَاصَّتَانِ الْأُولَى بَعْدَ مَرَمَاهُ فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ فِي الْمَعْمُورَةِ نَهْرًا
أَبْعَدَ مَسَافَةٍ مِنْهُ لِأَنَّ مَبَادِئَهُ عِيُونٌ تَأْتِي مِنْ جَبَلِ الْقَهْرِ وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا
الْجَبَلَ وَرَأْسَهُ خَطٌّ الْأَسْنَوَاءُ بِأَحْدَى عَشْرَةَ دَرَجَةٍ وَعَرْضُ أَسْوَافِ وَهِيَ
مَبْدَأُ أَرْضِ مِصْرَ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَنِصْفُ دَرَجَةٍ وَعَرْضُ حِمْيَاطَ
وَهِيَ أَقْصَى أَرْضِ مِصْرَ أَحْدَى وَثَلَاثُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثُ دَرَجَةٍ فَتَكُونُ مَسَافَةُ
النَّيْلِ عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ ثَلَاثًا وَارْبَعِينَ دَرَجَةً تَنْقُصُ سُدُسًا وَمَسَاحَةُ
ذَلِكَ تَقْرِيبًا تِسْعَ مِائَةِ فَرَسَخٍ هَذَا سِوَى مَا يَأْخُذُ مِنَ التَّنْعِيجِ وَالتَّوْرِيبِ
فَإِنْ أُعْذِرَ ذَلِكَ تَضَاعَفَتِ الْمَسَاحَةُ جِدًّا

وَالْخَاصَّةُ الثَّانِيَةُ أَنَّهُ يَزِيدُ عِنْدَ نُضُوبِ سَائِرِ الْأَنْهَارِ وَتَشْبِيشِ الْيَمَاءِ
لِأَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِالزِّيَادَةِ عِنْدَ أَنْتِهَاءِ طُولِ النَّهَارِ وَتَشْنَاهِي زِيَادَتُهُ عِنْدَ
الْإِعْتِدَالِ الْخَرِيفِيِّ وَحِينَئِذٍ تَنْفَعُ التَّرْعُ وَتَنْبِضُ عَلَى الْأَرَاضِي وَعِلَّةُ ذَلِكَ
أَنْ مَوَادِّ زِيَادَتِهِ أَمْطَارٌ غَزِيرَةٌ دَائِبَةٌ وَسُبُلٌ مُتَوَاصِلَةٌ تَمُدُّ فِي هَذَا
الْأَوَانِ. فَإِنْ أَمْطَرَ الْإِفْلِيمَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي إِمَّا تَغَزَّرُ فِي الصَّبْفِ وَالْقَبْظِ
وَأَمَّا أَرْضُ مِصْرَ فَلَهَا أَيْضًا خَوَاصٌ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَبْقَى بِهَا مَطَرٌ إِلَّا مَا لَا
أَحْتِنَالَ بِهِ وَخُصُوصًا صَعِيدُهَا. فَأَمَّا أَسَافِلُهَا فَتَذِنُّ بِهَا مَطَرٌ جَوْدٌ
لَكِنَّهُ لَا يَبْقَى بِحَاجَةِ الزَّرْعَةِ. وَأَمَّا دِمِشَاطُهَا لِاسْكَنْدَرِيَّةِ وَمَا دَانَاهَا فَهِيَ
غَزِيرَةُ الْمَطَرِ وَمِنْهُ يَشْرَبُونَ وَيَسْرَى بِأَرْضِ مِصْرَ عَيْنٌ وَلَا تَهْرُ سِوَى نِيلِهَا
وَمِنْهَا أَنْ أَرْضَهَا رُمْلِيَّةٌ لَا تَصْلُحُ لِلزَّرْعَةِ لَكِنَّهُ بَاتِنِهَا طِينٌ أَسْوَدٌ عَلَيْكَ
فِيهِ دُسُومَةٌ كَثِيرَةٌ يُسَمَّى الْإِيلِيَزَ بَاتِنِهَا مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ مُخْتَلِطًا بِمَاءِ
النَّيْلِ عِنْدَ مَدْيَ قَسْتَنْزِ الطِّينِ وَتَنْضُبُ الْمَاءُ فَيَعْرَثُ وَيُزْرَعُ وَكُلُّ سَنَةٍ
بَاتِنِهَا طِينٌ جَدِيدٌ وَلِهَذَا يُزْرَعُ جَمِيعُ أَرْضِهَا وَلَا يَرَاغُ شَيْءٌ مِنْهَا كَمَا يَفْعَلُ
فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ لَكِنَّهَا تُخَالِفُ عَلَيْهَا الْأَصْنَافُ. وَقَدْ لَحَظْتَ الْعَرَبُ
ذَلِكَ فَأَتَمَّ نَقْلُ إِذَا كَثُرَ الرِّيحُ جَادَتِ الْحِرَاءَةُ لِأَنَّهَا تَجِيءُ بِتُرَابٍ
غَرِيبٍ وَنَقْلُ إِذَا كَثُرَتِ الْهَوْتَنُكَاتُ زَكَا الزَّرْعُ. وَلِهَذَا الْعِلَّةُ
تَكُونُ أَرْضُ الصَّعِيدِ زَكِيَّةً كَثِيرَةً لِأَنَّهُ وَالزَّرْعُ إِذَا كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى
الْمَبْدَأِ قَبَضُ فِيهَا مِنْ هَذَا الطِّينِ مِقْدَارٌ كَثِيرٌ بِخِلَافِ أَسْفَلِ الْأَرْضِ
فَإِنَّهَا أَسَافَةٌ مُضْرِبَةٌ إِذَا كَانَتْ رَفِيفَةً ضَعِيفَةً الطِّينِ لِأَنَّهُ بَاتِنِهَا الْمَاءُ
وَقَدْ رَأَى وَصَفًا وَلَا أَعْرِفُ شَيْئًا بِذَلِكَ إِلَّا مَا حَكِي لِي عَنْ بَعْضِ جِبَالِ

الإقليم الأول أن الرياح تأتيه وقت الزراعة يرباب كثير ثم يقع عليه المطر فينبد فيموت ويزرع فإذا حصد جاءته رياح أخرى فتسفته حتى يعود أجرة كما كان أولاً

ومنها أن الفصول بها متغيرة عن طبيعتها التي لما فإن أخص الأوقات بالبسي في سائر البلاد أعني الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة يمرض يمدو نيلها وقبضه لأنه يمد في الصيف يطبق الأرض في الخريف فأما سائر البلاد فإن مياهها تنش في هذا الأوان وتغزر في أخص الأوقات بالرطوبة أعني الشتاء والربيع ويمرض إذا ذلك تكون في غابة الفحولة والبسي وهذه العلة تكثر عفوناتها واختلاف هواها وتغلب على أهلها الأمراض العنيفة الحادة عن أخلط صراوية وبلغية وقلما تجد فيهم أمراضاً صراوية خالصة بل الغالب عليها البلغم حتى في الشباب والهرورين وكثيراً ما يكون مع الصفراء خام وأكثر أمراضهم في آخر الخريف ولول الشتاء لكنها يغلب عليها حميد العافية وتقل فيهم الأمراض الحادة والدموية الوجبة وأما أصحائهم فيغلب عليهم الترهل والكسل وشحوب اللون وكمودته وقلما ترى فيهم مشبوب اللون ظاهر الدم وأما صبيانهم فضاويون يغلب عليهم الدامة وقلة النضارة وإنما تحدث لهم البدانة والفسامة غالباً بعد العشرين وأما ذكائهم وتوفد أذهانهم وخنة حركاتهم فليحارة بلدتهم الدائمة لأن رطوبة عريضة ولذا كان أهل الصعيد أقل جسوماً وأجف أمزجة والغالب عليهم السموم وكان ساكنوا الفسطاط إلى دمياط أرطب أبداناً

وَالْقَالِبُ عَلَيْهِمُ الْبَيَاضُ
وَلَمَّا رَأَى قُدَمَاةَ الْبَصْرِيِّينَ أَنَّ عِمَارَةَ أَرْضِهِمْ إِنَّمَا فِي يَدَيْهَا جَعَلُوا
أَوَّلَ سَنَتِهِمْ أَوَّلَ الْحَرِيفِ وَذَلِكَ عِنْدَ بُلُوغِ اللَّيْلِ الْغَايَةِ الْقُصْوَى مِنَ
الزِّيَادَةِ

وَمِنْهَا أَنَّ الصَّبَا مَحْبُوبَةٌ عَنْهُمْ بِحَبْلِهَا الشَّرْقِيِّ الْمَسْمُومِ الْمَغْطَمِ فَإِنَّهُ يَسْنُرُ
عَنْهَا هَذِهِ الرِّيحَ الْفَاضِلَةَ وَقَلَمًا تَهْبُ عَلَيْهِمْ خَالِصَةً اللَّهُمَّ لَا تَنْكَأَنَّ. وَهَذَا
أَخْبَارُ قُدَمَاةَ الْبَصْرِيِّينَ أَنْ يَجْعَلُوا مُسْتَقَرَّ الْمَلِكِ مَنْفً وَنَحْوَهَا مَا يَبْعُدُ
عَنْ هَذَا الْجَبَلِ الشَّرْقِيِّ إِلَى الْغَرْبِيِّ وَأَخْبَارُ الرُّومِ الْإِسْكَندَرِيَّةَ وَتَجَنُّبُوا
مَوْضِعَ النَّسْطَاطِ لِقُرْبِهِ مِنَ الْمَغْطَمِ فَإِنَّ الْجَبَلَ يَسْنُرُ عَمَّا فِي لِحْفِهِ أَكْثَرَ مِمَّا
يَسْنُرُ عَمَّا بَعْدَ مِنْهُ. ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ يَتَأَخَّرُ طُلُوعُهَا عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ فِي هَوَائِهِمْ
الْتَفُحْ وَيَبْقَى زَمَانًا عَلَى نَهْوَةِ اللَّيْلِ وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْمَوَاضِعَ الْمُنْكَشِفَةَ لِلصَّبَا
مِنْ أَرْضٍ يَصْرَ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ غَيْرِهَا وَلِكثَرَةِ رُطُوبَتِهِ يَتَسَارَعُ الْعَفْنُ
إِلَيْهَا وَيَكْثُرُ فِيهَا الْفَارُ وَيَتَوَلَّدُ مِنَ الطِّينِ وَالْعَقَارِبُ تَكْثُرُ يَقُوصُ وَكَثِيرًا
مَا تَقْتُلُ بِلِسَانِهَا وَالْبَقُ الْمُنِينُ وَالذُّبَابُ وَالْبَرَاغِثُ تَدُومُ زَمَانًا طَوِيلًا
وَمِنْهَا أَنَّ الْجَنُوبَ إِذَا هَبَّتْ عِنْدَهُمْ فِي الشِّتَاءِ وَالرَّبِيعِ وَفَمَا بَعْدَ
ذَلِكَ كَانَتْ بَارِدَةً جِدًّا وَيَسْمُونَهَا الْمَرْبِيعِي لِمُرُورِهَا عَلَى أَرْضِ الْمَرْبِيعِ
وَهِيَ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ. وَسَبَبُ بَرْدِهَا مُرُورُهَا عَلَى بَرَكٍ وَنَفَاتِجٍ. وَالذَّلِيلُ
عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ إِنَّهَا إِذَا دَامَتْ أَيَّامًا مُتَوَالِيَةً عَادَتْ إِلَى حَرَارَتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ
وَمَا تَحْتَنِي أَلْوَاكُ وَأَخَذْتُ فِيهِ يَبَسًا

الفصل الثاني

فَمَا تَخَصُّصُهُ مِنْ النَّبَاتِ

مِنْ ذَلِكَ الْجَمِيزُ وَهُوَ يَبْصُرُ كَثِيرٌ جِدًّا وَرَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئًا يَسْتَلَانِ
وَالسَّاحِلَ وَكَأَنَّهُ يَنْبُرِي وَيَخْرُجُ نَمْرَتُهُ فِي الْخَشَبِ لَانْتِ الْوَرَقِ
وَيُخْلِفُ فِي السَّنَةِ سَبْعَةَ بَطُونٍ وَيُؤْكَلُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَيَحْمِلُ وَقَرًا عَظِيمًا
وَقَبْلَ أَنْ يَنْجِي بِأَيَّامٍ بَصْعَدُ رَجُلٌ إِلَى الشَّجَرِ وَمَعَهُ حَدِيدَةٌ يَسِمُ بِهَا
حَبَّةَ حَبَّةٍ مِنَ الشَّعْرِ فَيَجْرِبُ مِنْهَا لَبَنٌ أَيْضٌ ثُمَّ يَسْوُدُ الْمَوْضِعُ وَيَحْمِلُ
الشَّعْرَ بِذَلِكَ الْغِلِّ . وَقَدْ بُوْجِدَ مِنْهُ نَبِيَّةٌ شَدِيدُ الْحَلَاوَةِ أَحْلَى مِنَ
الْتَيْنِ لَكِنَّهُ لَا يَنْفَكُ فِي آخِرِ مَضِغِهِ مِنْ طَعْمِ خَشْيَةِ مَا . وَتَجَرَّتُهُ
كَبِيرَةٌ كَتَجَرَّتِ الْجُوزِ الْعَائِيَةِ وَيَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِهِ وَغَصْنِيهِ إِذَا فُصِدَتْ
لَبَنٌ أَيْضٌ إِذَا طَلِيَ عَلَى ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ صَبَّغَهُ وَاحْمَرَّ . وَخَشَبُهُ نَعْمَرٌ بِهِ
الْمَسَاكِينُ وَيَتَّخِذُ مِنْهُ الْأَبْوَابُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَلَاتِ الْجَفَافَةِ وَلَهُ بَقَاءَةٌ عَلَى
الدَّهْرِ وَصَبْرٌ عَلَى الْمَاءِ وَالشَّمْسِ وَقَلْبًا يَأْكُلُ هَذَا مَعَ أَنَّهُ خَشَبٌ
خَفِيفٌ قَلِيلُ اللَّدُونَةِ . وَيَتَّخِذُ مِنْ ثَمَرَتِهِ خَلٌ حَادِيقٌ وَنَبِيذٌ حَادٍ . قَالَ
جَالِينُوسُ الْجَمِيزُ بَارِدٌ رَطْبٌ فِيمَا بَيْنَ الثَّوْبِ وَالتَّيْنِ وَهُوَ رَدِيٌّ لِلْبَعِذَةِ
وَلَبَنُ شَجَرَتِهِ لَهُ قُوَّةٌ مُلِينَةٌ تُلْصِقُ الْأَجْرَاجَ وَتَنْفُسُ الْأَوْرَامَ وَيُلْطِخُ عَلَى لَسَعِ
الْهُوَامِ وَيَحْمِلُ جُسَاءَ الطِّحَالِ وَلَوْ جَاعَ الْبَعِذَةُ ضِمَادًا وَيَتَّخِذُ مِنْهُ شَرَابٌ
لِلْسَعَالِ الْمُنْقَادِمِ وَنَوَازِلِ الصَّدْرِ وَالرَّيَّةِ وَعَمَلُهُ بِأَنْ يُطْبَخَ فِي الْمَاءِ حَتَّى
يَخْرُجَ فِيهِ قُوَّتُهُ وَيُطْبَخَ ذَلِكَ الْمَاءُ مَعَ السُّكَّرِ حَتَّى يَنْعَدَ وَيَرْفَعُ . وَقَالَ
أَبُو حَنِيفَةَ وَمِنْ أَجْنَاسِ التَّيْنِ الْجَمِيزُ وَهُوَ تَيْنٌ حُلُوٌّ رَطْبٌ لَهُ

مَعَالِيْقُ طَوَالٍ وَيَرْبَبُ وَضَرْبُ آخَرٍ مِنَ الْجَمِيْزِ حَمْلُهُ كَالْتَيْنِ فِي الْخِلْفَةِ
وَوَرَقُهُ أَصْغَرُ مِنَ وَرَقِ الْتَيْنِ. وَبَيْنَهُ أَصْفَرُ صَغَارٍ وَأَسْوَدُ وَيَكُونُ بِالْغَوْرِ
وَيُسَمَّى الْتَيْنُ الذَّكَرَ وَالْأَصْفَرُ مِنْهُ حَلَوٌ وَالْأَسْوَدُ بُدْيِي الْفَمِ وَلَيْسَ
لِيَبْنِيهِ عِلَاقَةٌ بَلْ لَاصِقٌ بِالْعُودِ

وَمِنْ ذَلِكَ الْبَلَسَانُ فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ الْيَوْمَ إِلَّا يَبْصُرُ بَعَيْنِ شَمْسٍ فِي
مَوْضِعٍ مُحَاطٍ عَلَيْهِ مُخْتَفِظٌ بِهِ مَسَاحَتُهُ نَحْوُ سَبْعَةِ أَفْدَنِيَّةٍ. وَأَرْتِفَاقُ شَجَرَتِهِ
نَحْوُ ذِرَاعٍ وَكَثْرَتُهُ مِنْ ذَلِكَ وَعَلَيْهَا فِشْرَانِ الْأَعْلَى أَحْمَرُ خَفِيفٌ وَالْأَسْفَلُ
أَخْضَرُ نَجِيفٌ. وَإِذَا مُضِغَ ظَهَرَ فِي الْفَمِ مِنْهُ دُهْنِيَّةٌ وَرَائِحَةُ عِطْرَةٍ. وَوَرَقُهُ
شَبِيهُ يَوْزَقِ السَّدَابِ وَيُخْتَفِقُ دُهْنُهُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّعْرِ بِأَن تَشْدَخَ السُّوقُ
بَعْدَ مَا بَحْتُ عَنْهَا جَمِيعَ وَرَقِهَا وَشَدَخُهَا يَكُونُ بِحَجَرٍ تُنْقِذُ مُحَدَّدَةً وَيَتَغَيَّرُ
شَدَخُهَا إِلَى صِنَاعَةٍ يَحِثُّ يَنْقَطِعُ الْفِشْرُ الْأَعْلَى وَيَشُقُّ الْأَسْفَلُ شَقًّا لَا يَنْفِذُهُ
إِلَى الْخَشَبِ فَإِنْ نَفَّذَ إِلَى الْخَشَبِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ فَإِذَا شَدَخَهُ كَمَا وَصَفْنَا
أَمَهَلَهُ رَبَّنَا يَسِيلُ لَنَاءً عَلَى الْعُودِ فَيَجْمَعُهُ بِأَصْبَعِهِ مَسْحًا إِلَى قَرْنٍ فَإِذَا امْتَلَأَ
صَبَّهُ فِي قَنَائِي زُجَاجٍ وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَنْتَبِي جَنَاهُ وَيَنْفَطِعَ لَنَاءً
وَكُلَّمَا كَثُرَ النَّدَى فِي الْجَوْ كَانَ لَنَاءُهُ أَكْثَرَ وَأَغْزَرَ وَفِي الْجَذْبِ وَقَلَّةُ النَّدَا
يَكُونُ اللَّئَاءُ أَنْزَرًا وَمِقْدَارُ مَا خَرَجَ مِنْهُ فِي سَنَةِ سِتَّةٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسَ مِائَةٍ
وَفِي عَامٍ جَذْبٍ نِيفٍ وَعَشْرُونَ رِطْلًا. ثُمَّ تُؤْخَذُ الْقَنَائِي فَتُدْفَنُ إِلَى
الْقَبْطِ وَحِمَارَةِ الْحَرِّ وَتُخْرَجُ مِنَ الدَّفْنِ وَتُجْعَلُ فِي الشَّمْسِ. ثُمَّ تُنْفَقَدُ كُلُّ
يَوْمٍ فَيُوجَدُ الدَّهْنُ وَقَدْ طَفَأَ فَوْقَ رُطُوبَةٍ مَائِيَّةٍ وَأَثْقَالِ أَرْضِيَّةٍ فَيَنْقَطِفُ
الدَّهْنُ ثُمَّ تُعَادُ إِلَى الشَّمْسِ وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ بِشَمْسِهَا وَيَنْقَطِفُ دُهْنُهَا

حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهَا دُهْنٌ فَيُؤْخَذُ ذَلِكَ الدُّهْنُ وَيَطْبَخُهُ فَيْسَهُ فِي الْخَيْبَةِ
يُطْلَعُ عَلَى طَبْعِهِ أَحَدًا. ثُمَّ يَرْفَعُهُ إِلَى خِزَانَةِ الْمَلِكِ وَمِقْدَارُ الدُّهْنِ الْمُخَالِصِ
مِنَ اللَّقَا بِالزُّرْبِيِّ نَحْوُ عَشْرِ أَجْمَلَةٍ وَقَالَ لِي بَعْضُ أَرْبَابِ الْخَبْرِ إِنَّ
الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ دُهْنِهِ تَعْوِينَ عَشْرِينَ رِطْلًا

وَرَأَيْتُ جَالِينُوسَ يَقُولُ إِنَّ أَجْوَدَ دُهْنِ الْبَلْسَانِ مَا كَانَتْ يَارِضُ
فَلَسْطِينَ وَأَضْعَفُهُ مَا كَانَ يَبْصُرُ وَنَحْنُ فَلَا نَجِدُ الْيَوْمَ مِنْهُ يَفْلَسْطِينَ شَيْئًا
الْبَتَّةَ. وَقَالَ يَفُولَاوُسُ فِي كِتَابِ النَّبَاتِ. وَمِنَ النَّبَاتِ مَا لَهُ رَائِحَةُ طَيِّبَةٌ
فِي بَعْضِ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا رَائِحَتُهُ الطَّيِّبَةُ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهِ كَالْبَلْسَانِ الَّذِي
يَكُونُ فِي الشَّامِ يَقْرُبُ بَحْرَ الزَّرْفَةِ وَالْبَيْدُ الَّذِي يُسَمَّى مِنْهَا نَسَمَى بِدَرِ الْبَلْسَمِ
وَمَاؤُهَا عَذْبٌ. وَقَالَ ابْنُ سَعْدُونَ: إِنَّمَا يُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هَذَا يَبْصُرُ
فَقَطُّ وَيُسْتَخْرَجُ دُهْنُهُ عِنْدَ طُلُوعِ كَلْبِ الْجُبَارِ وَهُوَ الشَّعْرَاءُ وَذَلِكَ فِي
الشُّبَّاطِ. وَمِقْدَارُ مَا يُخْرَجُ مَا بَيْنَ خَمْسِينَ رِطْلًا إِلَى سِتِينَ وَيَبَاقُ فِي مَكَانِهِ
يَضَعُهُ نِصْفًا. وَكَانَ هَذِهِ الْحَالُ قَدْ كَانَتْ فِي زَمَنِ ابْنِ سَعْدُونَ وَحُكْمِ
عَنِ الرَّازِيِّ أَنَّ بَدَلَهُ دُهْنُ الْفُجْلِ وَهَذَا يَعْبُدُ. وَالْبَلْسَانُ الدُّهْنِيُّ لَا يَنْبُرُ
وَأِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ فُسُوحٌ فَتُغْرَسُ فِي شُبَّاطٍ فَتَعْلَقُ وَتَنْبِي. وَإِنَّمَا الشَّهْرُ
لِلذِّكْرِ الْبَرِّيِّ وَلَا دُهْنَ لَهُ وَيَكُونُ يَنْبُدُ وَتَهَامَةُ وَبَرَارِي الْعَرَبِ
وَسَوَاحِلُ الْيَمَنِ وَبَارِضُ فَارِسَ وَيُسَمَّى الْبَلْسَمَ وَيَرْبَى فِشْرٌ قَبْلَ
اسْتِخْرَاجِ دُغْنِهِ فَيَكُونُ نَافِعًا مِنْ جَمِيعِ السُّمُومِ. وَأَمَّا خَوَاصُّهُ وَمَنَافِعُهُ
فَالْأَلْفَى بِهَا غَيْرُ هَذَا الْكِتَابِ

٢٧٠
الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِيمَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ

مِنْ ذَلِكَ الْحَمِيرُ وَالْحَمِيرُ يَبْضُرُ فَارِهَةٌ جِدًّا وَتُرَكَّبُ بِالسُّرُجِ وَتَجْرِي
مَعَ الْخَيْلِ وَالْبَعَالِ النَّفِيسَةُ وَلَعَلَّهَا تَسْبُهَا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَثِيرَةُ الْعَدَدِ
وَمِنْهَا مَا هُوَ عَالٍ يَحْتُ إِذَا رَكِبَ بِسُرْجٍ أَخْنَأَطَ مَعَ الْبَعَالِ . يَرْكَبُهُ
رُؤَسَاءُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . يَبْلُغُ ثَمَنُ الْوَاحِدِ مِنْهَا عَشْرِينَ دِينَارًا إِلَى
أَرْبَعِينَ

وَأَمَّا بَقَرُومُ فَعَظِيمَةُ الْخَلْقِ حَسَنَةُ الصُّورِ . وَمِنْهَا صِنْفٌ هُوَ أَحْسَنُهَا
وَأَعْلَاهَا فَبِمَا يُسَمَّى الْبَقَرُ الْحَمِيسَةُ وَهِيَ ذَوَاتُ قُرُونٍ كَانَتْهَا الْفِئَةُ غَيْرَاتُ
الْبَنَى

وَأَمَّا خَيْلُهَا فَعِتَاقٌ سَافَةٌ وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ ثَمَنُهُ أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى أَرْبَعَةِ أَلْفٍ
وَمِنْ ذَلِكَ التَّمَسِجُ وَالتَّمَسِجُ كَثِيرَةٌ فِي النَّيْلِ وَخَاصَّةً فِي الصَّعِيدِ
الْأَعْلَى وَفِي الْجَنَادِلِ فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلَى الْمَاءِ وَيَنَ صُخُورِ الْجَنَادِلِ كَالذُّودِ
كَثَرَةً وَتَكُونُ كِبَارًا وَصِغَارًا وَيَنْتَبِي فِي الْكِبَرِ إِلَى نِيفٍ وَعَشْرِينَ ذِرَاعًا
طُولًا . وَتُوجَدُ فِي سَطْحِ جَسَدِ مَا يَلِي بَطْنَهُ سِلْعَةٌ كَالْيَضَةِ تَحْنُوِي عَلَى
رُطُوبَةٍ دَمَوِيَّةٍ وَهِيَ كَنَافَةِ الْهَيْسِكِ فِي الصُّورَةِ وَالطَّبِيبُ وَخَبَرَنِي الْفَتَى
أَنَّهُ يَنْدُرُ فِيهَا مَا يَكُونُ فِي عُلُوِّ الْهَيْسِكِ لَا يَنْقُصُ عَنْهُ شَيْئًا . وَالتَّمَسَاجُ
يَبْيَضُ يَضًا شَبِيهَا بَيَاضِ الدَّجَاجِ وَرَأَيْتُ فِي كِتَابِ مَنْسُوبٍ إِلَى أَرِسْطُو
مَا هَذِهِ صُورَتُهُ . قَالَ التَّمَسَاجُ وَلَا يَعْمَلُ فِي جِلْدِهِ أَحَدٌ . وَمِنْ فَقَارِ
رَقِيَّتِهِ إِلَى ذَنْبِهِ عَظْمٌ وَاحِدٌ وَلِهَذَا إِذَا انْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَنْدُرْ أَنَّ

تَرْجِعَ . قَالَ وَيَبِضُ بُضَاطًا لَا كَالْأَوْزِ وَيَذْفِنُهُ فِي الرَّمْلِ فَإِذَا أُخْرِجَ
كَانَ كَالْحَرَاذِينِ فِي جَنَمِهَا وَخَلَقْنَاهَا . ثُمَّ بَعَثُوهُمْ حَتَّى يَكُونَ عَشْرَ أَذْرُعٍ
وَأَزِيدَ وَيَبِضُ سِتِينَ بَيْضَةً لِأَنَّ خِلْقَتَهُ تَجْرِي عَلَى سِتِينَ سِنًا وَسِتِينَ عِرْفًا
وَمِنْ ذَلِكَ فَرَسُ الْبَحْرِ وَهَذِهِ تَوْجِدُ بِأَسْفَلِ الْأَرْضِ وَخَاصَّةً بِبَحْرِ
دِمَاطٍ وَهُوَ حَيَوَاتٌ عَظِيمٌ الصُّورَةُ هَائِلٌ الْمَنْظَرُ شَدِيدُ الْبَاسِ يَنْتَبِعُ
الْمُرَاكِبُ فَيَعْرِفُهَا وَيَهْلِكُ مَنْ ظَفَرَ بِهِ مِنْهَا وَهُوَ بِأَجْمَامُوسَ أَشْبَهُ مِنْهُ
بِالْفَرَسِ لَكِنَّهُ لَيْسَ لَهُ قَرْنٌ وَفِي صَوْتِهِ صَحْلَةٌ بِشِبْهِ صَهْلِ الْفَرَسِ بَلْبُ
الْبَغْلِ وَهُوَ عَظِيمُ الْمَامَةِ هَرِيْتُ الْأَشْدَاقِ حَدِيدُ الْأَنْبَابِ عَرِيضُ
الْكُلْكُلِ مُتَبَعُ الْجَوْفِ قَصِيرُ الْأَرْجُلِ شَدِيدُ الْوُجْبِ قَوِيُّ الدَّفْعِ مَهِيْبُ
الصُّورَةِ مَخُوفُ الْغَائِلَةِ وَخَبَرَنِي مَنْ أَصْطَادَهَا مَرَاتٍ وَشَقَّهَا وَكَشَفَ عَنْ
أَعْضَائِهَا الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ أَنَّهَا خَنْزِيرٌ كَبِيرٌ وَلَنْ أَعْضَاءَهَا الْبَاطِنَةَ
وَالظَّاهِرَةَ لَا تُغَادِرُ مِنْ صُورَةِ الْخَنْزِيرِ شَيْئًا إِلَّا فِي عِظْمِ الْخِلْقَةِ . وَرَأَيْتُ
فِي كِتَابِ بَيْطُولِيسَ فِي الْحَيَوَانِ مَا بَعْضُهُ ذَلِكَ وَهَذِهِ صُورَتُهُ . قَالَ
خَنْزِيرُ الْمَاءِ تَكُونُ فِي بَحْرِ مِصْرَ وَهِيَ تَكُونُ فِي عِظْمِ الْفِيلِ وَرَأْسُهَا بِشِبْهِ
رَأْسِ الْبَغْلِ وَلَهَا شِبْهُ الْجَمَلِ . قَالَ وَشَمُّ مَتْنِهَا إِذَا أُذِيبَ وَلَتْ بِسَوِيْقِ
وَشَرِبَتْهُ أُمْرَأَةٌ اسْمُهَا حَتَّى تَحْزَرَ الْهَيْدَارَ

وَكَانَتْ وَاحِدَةً يَبْحُرُ دِمَاطٌ قَدْ ضَرَبَتْ عَلَى الْمُرَاكِبِ تَعْرِفُهَا وَصَارَ
السَّافِرُ فِي ذَلِكَ أَلْجِهَةً مُغَرَّرًا وَضَرَبَتْ أُخْرَى بِجِهَةٍ أُخْرَى عَلَى الْجَوَامِيسِ
وَالْبَقَرِ وَبَنِي آدَمَ تَقْتُلُهُمْ وَتَفْسِدُ الْحَرَاثَ وَالنَّسْلَ . وَأَعْمَلُ النَّاسُ فِي
قَتْلِهِمَا كُلِّ جِلْدَيْنِ نَصَبِ الْحَبَائِلِ الْوَيْفَةِ وَحَشْدِ الرِّجَالِ بِأَصْنَافِ

السَّالِحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَلَمْ يُجِدْ شَيْئًا فَاسْتَدْعَى بَنِيهِ مِنَ الْإِيسِ صِنْفٍ مِنَ
السُّودَانِ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِدْهَا وَأَنَّهَا كَثِيرَةٌ عِنْدَهُمْ وَمَعَهُمْ
مَزَارِيقُ. فَتَوَجَّهُوا نَحْوَهَا فَفَقَّطَلُوهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ وَبَاهُونَ سَعْيَ وَاتِّوَا
بِهَا إِلَى الْقَاهِرَةِ فَشَاهَدَتْهَا فَوَجَدَتْ جِلْدَ إِحْدَاهَا أَسْوَدَ أَجْرَدَ خُفِينَا
جِلْدًا وَطُولَهَا مِنْ رَأْسِهَا إِلَى ذَنْبِهَا عَشْرُ خُطَوَاتٍ مُعْتَدِلَاتٍ وَهِيَ فِي غِلْظِ
أَجْمُوسٍ نَحْوِ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ وَكَذَلِكَ رَقَبَتُهَا وَرَأْسُهَا. وَفِي مَقْدَمِ فِيهَا
أَثْنَا عَشَرَ نَابًا سِتَّةٌ مِنْ فَوْقٍ وَسِتَّةٌ مِنْ أَسْفَلِ الْمُنْطَرِفَةِ مِنْهَا نِصْفُ ذِرَاعٍ
زَائِدٌ وَالْمَنُوسَةُ أَنْقَصُ بِقَلِيلٍ. وَبَعْدَ الْأَنْبَابِ أَرْبَعَةُ صُفُوفٍ مِنْ
الْأَسْنَانِ عَلَى خُطُوطٍ مُسْتَقِيمَةٍ فِي طُولِ الْقَمَرِ فِي كُلِّ صَفٍّ عَشْرَةٌ كَأَمْثَالِ
بَيْضِ الدُّجَاجِ الْمُبْصُفِ صَفَّانِ فِي الْأَعْلَى وَصَفَّانِ فِي الْأَسْفَلِ عَلَى
مُفَابَلَتِهَا. وَإِذَا فَعِرْفُوهَا وَسِعَ شَاةٌ كَثِيرَةٌ وَذَنْبُهَا فِي طُولِ نِصْفِ ذِرَاعٍ
زَائِدٍ غَلِظٌ وَطَرَفُهُ كَالْأَصْبَعِ أَجْرَدٌ كَأَنَّهُ عَظْمٌ شَبِيهُهُ بِذَنْبِ الْوَرْلِ
وَأَرْجُلُهَا فِصَارٌ طُولُهَا نَحْوُ ذِرَاعٍ وَثَلَاثُ وَلَهَا شَبِيهُهُ خُفٌّ الْبَعِيرِ إِلَّا أَنَّهُ
مَشْفُوقُ الْأَطْرَافِ بِأَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ وَأَرْجُلُهَا فِي غَايَةِ الْغِلْظِ. وَجُمْلَةُ جَنَّتِهَا
كَأَنَّهَا مَرْكَبٌ مَكْبُوبٌ لِعَظَمِ مَنْظَرِهَا. وَبِالْجُمْلَةِ هِيَ أَطْوَلُ وَأَغْلَظُ مِنْ
الْفِيلِ إِلَّا أَنَّ أَرْجُلَهَا أَقْصَرُ مِنْ أَرْجُلِ الْفِيلِ بِكَثِيرٍ وَلَكِنْ فِي غِلْظِهَا أَوْ
أَغْلَظُ مِنْهَا

وَأَمَّا أَصْنَافُ السَّمَكِ عِنْدَهُمْ فَكَثِيرَةٌ لِأَنَّهُ يَجْتَنِعُ إِلَيْهِمْ سَمَكُ النِّيلِ
وَسَمَكُ الْبَحْرِ الْمَلَحِ وَلَا يَنْبَغِي الْقَوْلُ بِنَعْمَتِهَا لِكَثَرَةِ أَصْنَافِهَا وَأَخْيَالِهَا أَشْكَالِهَا
وَالْوَلَدِهَا

٤٠ الفصل الرابع

في افتصاص ما شوهد من آثارها القديسة

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديسة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في غيرها فاقصر على أعجب ما شاهدته

فإن ذلك الأهرام وقد أكثر الناس من ذكرها وصفها ومساحتها وهي كثيرة العدد جدا وكلها ببر النجينة وعلى سمت مصر القديسة وتمتد في نحو مسافة يومين وفي بؤصر منها شيء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولين وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملت. وقد كان منها بالنجينة عدد كثير لكنها صغار فهدمت في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدي قراقوش بعض الأمراء. وكان خصبارا وميا سامي الهمة وكان يتولى عمارة مصر وهو الذي بنى السور من الحجارة محبطين بالنسطاط والتاهر وما بينهما وبالقلعة التي على المنطم وهو أيضا الذي بنى القلعة وأنبط فيها البرين الموجودين اليوم وهما من العجايب وينزل إليهما بدرج نحو ثلثمائة درجة. وأحد حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى القناطر الموجودة اليوم بالنجينة. وهذه القناطر من الآنية العجيبة أيضا ومن أعمال الجبارين وتكون بنفا ورعين فنطرة. وفي هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمس مائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يجف الماء فيروية النجينة فتوبت عليها جربة الماء فزلزلت منها ثلث قناطر ونشفت. ومع

ذَلِكَ فَلَمْ يَزِدْ مَا رَجَا أَنْ يُزَيَّيَ. وَقَدْ بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الْأَهْرَامِ الْمَهْدُومَةِ قَلْبُهَا
وَحُشُونُهَا وَفِي رَدْمٍ وَحِجَارَةٍ صِغَارٌ لَا تَصْلُحُ لِلْقَنَاطِيرِ فَلِأَجْلِ ذَلِكَ
تُرِكَتْ

وَأَمَّا الْأَهْرَامُ الْمُتَحَدِّثُ عَنْهَا الْمَشَارُ إِلَيْهَا الْمَوْصُوفَةُ بِالْعِظَمِ. فَتِلْكَ
أَهْرَامُ مَوْصُوعَةٍ عَلَى خَطِّ مُسْتَقِيمٍ بِأَجْمِيعِ قِبَالَةِ الْفُسْطَاطِ وَبَيْنَهَا مَسَافَاتٌ
بَسِيرَةٌ وَذَوَابِهَا مُتَقَابِلَةٌ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَاثْنَانِ مِنْهَا عَظِيمَانِ جِدَا وَفِي قَدْسٍ
وَاحِدٍ وَبِهَا أُولُوعُ الشُّعْرَاءِ وَشَبُوهَا يَهْدِينِ قَدْ نَهَدَا فِي صَدْرِ الدِّيَارِ
الْبَصْرِيَّةِ وَهِيَ مُتَقَارِبَانِ جِدَا وَمِثْلَانِ بِأَجْمَارَةِ الْبَيْضِ. وَأَمَّا الثَّلَاثُ فَبِنْتُصُ
عَنْهَا بِخَوِ الرَّبْعِ لَكِنَّهُ مِنْهُ بِحِجَارَةِ الصَّوَانِ الْأَحْمَرِ الْمُنْقَطِ الشَّدِيدِ
الْصَّلَاةِ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ الْحَدِيدُ إِلَّا فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ وَتَجِدُ صَغِيرًا
بِالْقِيَاسِ إِلَى ذَيْنِكَ فَإِذَا قُرِبْتَ مِنْهُ وَأَفْرَدْتَهُ بِالنَّظَرِ هَالِكٌ مَرَاهُ وَحَسَرَ
الْطَّرْفُ عِنْدَ تَأْمُلِهِ

وَقَدْ سَلِكُ فِي بَيَانَةِ الْأَهْرَامِ طَرِيقٌ مِنَ الشَّكْلِ وَالْإِثْنَانِ وَلِذَلِكَ
صَبَرْتُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ بَلْ عَلَى مَرِّهَا صَبَرْتُ الزَّمَانُ فَإِنَّكَ إِذَا تَجَرَّعْتَهَا وَجَدْتَ
الْأَذْهَانَ الشَّرِيفَةَ قَدْ اسْتَهْلَكْتَ فِيهَا وَالْعُقُولَ الصَّافِيَةَ قَدْ أَفْرَعْتَ عَلَيْهَا
مَجْهُودَهَا وَالْأَنْفُسَ النَّبِيَّةَ قَدْ أَفَاصَتْ عَلَيْهَا أَشْرَفَ مَا عِنْدَهَا هَا وَالْمَلَكَاتِ
الْهِنْدَسِيَّةِ قَدْ أَخْرَجَتْهَا إِلَى الْعَمَلِ مَثَلًا هِيَ غَايَةُ إِمْكَانِهَا حَتَّى أَتَمَّهَا تَكَادُ
تُحَدِّثُ عَنْ قَوْمِهَا وَتُخَبِّرُ بِحَالِهِمْ وَتُنْطِنُ عَنْ عُلُومِهِمْ وَأَدْعَائِهِمْ وَتَتَرَجِّمُ
عَنْ سِيرَتِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ ذَلِكَ أَنَّ وَضْعَهَا عَلَى شَكْلِ مَخْرُوطٍ يَتَدَيُّ مِنْ
قَاعِدَةٍ مُرَبَّعَةٍ وَيَنْتَهِي إِلَى نُقْطَةٍ. وَمِنْ خَوَاصِ الشَّكْلِ الْخُرُوطِ أَنَّ مَرَكِّزَ

ثِقَلُهُ فِي وَسْطِهِ وَهُوَ يَتَسَانَدُ عَلَى نَفْسِهِ وَيَتَوَاقِعُ عَلَى ذَاتِهِ وَيَحْمَلُ بَعْضُهُ
عَلَى بَعْضٍ فَلَيْسَ لَهُ جِهَةٌ أُخْرَى خَارِجَةٌ عَنْهُ يَتَسَاقَطُ عَلَيْهَا. وَمِنْ عَجِيبِ
وَضْعِهِ أَنَّهُ شَكْلُ مُرَبَّعٍ قَدْ قُوِيَ بِزَوَايَاهُ مَهَبُ الرِّيحِ الْأَرْبَعِ فَإِنَّ الرِّيحَ
تَنْكَبِرُ سَوْرَتَيْهَا عِنْدَ مُصَادَمَتِهَا الزَّوَايَةَ وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ عِنْدَ مَا تَلْقَى
السَّطْحَ

وَلَنَرْجِعْ إِلَى ذِكْرِ الْأَرْمَنِ الْعَظِيمِينَ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ ذَكَرُوا أَنَّ قَاعَةَ كُلِّ
مِنْهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ طُولًا فِي مِثْلِهَا عَرْضًا وَأَرْتِفَاعُ عُمُودِهَا أَرْبَعُ مِائَةِ
ذِرَاعٍ وَذَلِكَ كُلُّهُ بِالذِّرَاعِ السُّودَاءِ. وَيَنْقَطِعُ الْخُرُوطُ فِي أَعْلَاهُ عِنْدَ
سَطْحِ مِسَاحَتِهِ عَشْرَ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا. وَأَمَّا الَّذِي شَاهَدْتُهُ مِنْ حَالِهَا فَإِنَّ
رَأْيِي كَانَ مَعَارِئِي سَهْمًا فِي فُطْرٍ أَحَدِهَا وَفِي سَمَكِهِ فَسَطَ السَّهْمِ دُونَ
نِصْفِ الْمَسَافَةِ وَخَيْرٌ نَأْنٍ فِي الْفَرِيَةِ الْبَعَاوِرَةِ لَهَا قَوْمًا قَدْ اعْتَادُوا أَرْتِفَاعَ
الْأَرْمِ بِأَلَا كُلُّنَا فَاسْتَدْعَيْنَا رَجُلًا مِنْهُمْ وَرَضَخْنَا لَهُ بِشْيً. فَجَعَلَ يَصْعَدُ فِيهَا
كَأَنَّهُ يَرَى أَحَدُنَا فِي الدَّرَجِ بَلْ أَسْرَعَ وَرَفَى يَنْعَلَيْهِ وَأَنْوَابُهُ وَكَانَتْ سَابِغَةً
وَكُنْتُ أَمَرْتُهُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَوَى عَلَى سَطْحِهِ فَاسْأَلْهُ بِعَمَامَتِهِ. فَلَمَّا نَزَلَ ذَرَعْنَا
مِنْ عَمَامَتِهِ مِقْدَارَ مَا كَانَ قَاسَ فَكَانَ إِحْدَى عَشْرَةَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْيَدِ.
وَرَأَيْتُ بَعْضَ أَرْبَابِ الْقِيَاسِ قَالَ أَرْتِفَاعُ عُمُودِهَا ثَلَاثُمِائَةِ ذِرَاعٍ
وَمَحْوُ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا يُحِيطُ بِهِ أَرْبَعَةُ سَطُوحٍ مُثَلَّثَاتٍ الْأَضْلَاعَ طُولُ
كُلِّ ضِلْعٍ مِنْهَا أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ وَسِتُّونَ ذِرَاعًا وَلَرَى هَذَا الْقِيَاسَ
خَطَأً وَلَوْ جُعِلَ الْعُمُودُ أَرْبَعُ مِائَةِ ذِرَاعٍ لَصَحَّ قِيَاسُهُ وَإِنْ سَاعَدَتْ
الْمَقَادِيرُ نَوَلَّيْتُ قِيَاسَهُ بِنَفْسِي

وَفِي أَحَدِ هَذَيْنِ الْهَرَمَيْنِ مَدْخَلٌ يَلِيحُهُ النَّاسُ يُنْفِضِي بِهِمْ إِلَى مَسَالِكِ
صِنْفَةٍ وَأَسْرَابٍ مُتَنَافِئَةٍ وَأَبَارٍ وَمَهَالِكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا يَحْكِيهِ مِنْ يَلِيحُهُ
وَيَتَوَعَّلُهُ. فَإِنْ نَاسًا كَثِيرِينَ لَمْ يَغْرَامُ بِهِ وَتَحْمِلُ فِيهِ فَيُؤْغِلُونَ فِي أَعْمَاقِهِ
وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهَوْا إِلَى مَا يَحْجُزُونَ عَنْ سُلُوكِهِ. وَأَمَّا الْمَسْلُوكُ فِيهِ الْمَطْرُوقُ
كَثِيرًا فَزِلَافَةٌ تُنْفِضِي إِلَى أَعْلَاهُ. فَيُوجَدُ فِيهِ بَيْتٌ مُرَبَّعٌ فِيهِ نَاوُوسٌ مِنْ
حَجَرٍ وَهَذَا الْمَدْخَلُ لَيْسَ هُوَ الْبَابُ الَّتِي تَخْتَدُّ لَهُ فِي أَصْلِ الْبِنَاءِ وَإِنَّمَا هُوَ
مَنْشُوبٌ نَبَاً صُورِيّاً آتِنَافَا. وَذِكْرُ أَنَّ الْمَأْمُونَهُ هُوَ الَّذِي فَتَحَهُ وَجَلُّ مَنْ
كَانَ مَعَنَا وَلَجَّوْا فِيهِ وَصَعِدُوا إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي فِي أَعْلَاهُ. فَلَمَّا نَزَلُوا حَدَّثُوا
بِعَظِيمِ مَا شَاهَدُوا وَأَنَّهُ مَمْلُوءَةٌ بِاتِّخَانِافِشٍ وَأَبْوَالِهَا حَتَّى يَكَادُ يَمْنَعُ السَّالِكُ
وَيَعْظُمُ فِيهَا الْخُفَافُ حَتَّى يَكُونَ فِي قَدْرِ الْحِمَامِ. وَفِيهِ طَافَاتٌ وَرَوَازِينُ
نَحْوِ أَعْلَاهُ وَكَانَهَا جُعِلَتْ مَسَالِكُ لِلرَّجْحِ وَمَنَافِدُ لِلضُّوءِ وَوَلَجْنُهُ مَرَّةً
أُخْرَى مَعَ جَاعَةٍ وَلَبَغَتْ نَحْوُ ثُلَاثِي الْمَسَافَةِ فَأُعْجِي عَلَيَّ مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ
فَرَجَعْتُ بِرَمَقٍ

وَهَذِهِ الْأَهْرَامُ مَبْنِيَّةٌ بِحِجَارَةٍ جَافِيَةٍ يَكُونُ طُولُ الْحَجَرِ مِنْهَا مَا بَيْنَ عَشْرِ
أَذْرُعٍ إِلَى عِشْرِينَ ذِرَاعاً وَسَمَكُهُ مَا بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ إِلَى ثَلَاثٍ وَعَرْضُهُ نَحْوُ
ذَلِكَ وَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ عَلَى الْحَجَرِ بِهَذَا لَيْسَ فِي
الْإِمْكَانِ أَصَحُّ مِنْهُ يَحْتَضِرُ لَا يَجِدُ بَيْنَهُمَا مَدْخَلٌ إِبْرَقٌ وَلَا خَلَلٌ شَعْرٌ وَبَيْنَهُمَا
طِينٌ كَأَنَّهُ الْوَرَقَةُ لَا أَذْرِي مَا صِنْفُهُ وَلَا مَا هُوَ. وَعَلَى تِلْكَ الْحِجَارَةِ كِتَابَاتٌ
بِالْقَلَمِ الْقَدِيمِ الْجَهْلُولِ الَّذِي لَمْ أَجِدْ بِدِيَارِ مِصْرَ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مِنْ
بَعْرِفَةٍ. وَهَذِهِ الْكِتَابَاتُ كَثِيرَةٌ جِدًّا حَتَّى لَوْ نُقِلَ مَا عَلَى الْهَرَمَيْنِ فَقَطَّ إِلَى

صُحِبَ لَكَانَتْ زُهْرًا عَشْرَةَ آلَافٍ صَحِيفَةً وَقَرَأْتُ فِي بَعْضِ كُتُبِ الصَّائِبَةِ
الْقَدِيمَةِ أَنَّ أَحَدَ هَذَيْنِ الْأَهْرَمَيْنِ هُوَ قَبْرُ آغَاذِيْمُونَ وَالْآخَرُ قَبْرُ هَرْمِسَ
وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا نِيَّانُ عَظِيمَانِ وَلَنْ آغَاذِيْمُونَ أَقْدَمُ وَأَعْظَمُ وَأَنَّهُ كَانَ
يُحْجَى إِلَيْهِمَا وَيُهَوَّسَ نَحْوُهُمَا مِنْ أَفْطَارِ الْأَرْضِ . وَقَدْ وَسَعْنَا الْقَوْلَ فِي
الْمَنْقُولِ فِي الْكِتَابِ الْكَبِيرِ فَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فَعَلَيْهِ بِهِ فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ
مَنْصُورٌ عَلَى الْمَشَاهِدِ

وَكَانَ الْمَلِكُ الْعَزِيزُ عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ لَمَّا اسْتَفْلَ بَعْدَ أَبِيهِ سَوَّلَ لَهُ
جَهْلُهُ أَصْحَابِيهِ أَنْ يَهْدِمَ هَذِهِ الْأَهْرَامَ . فَبَدَأَ بِالصَّغِيرِ الْأَخْصَرِ وَهُوَ ثَالِثُ
الْآثَانِي . فَأَخْرَجَ إِلَيْهِ الْحَلِيَّةَ وَالنَّفَائِينَ وَالْمُحَارِبِينَ وَجَاعَةً مِنْ عَظْمَاءِ
دَوْلَتِهِ وَأَمْرَاءِ مَمْلَكَتِهِ وَأَمْرَمَهُمْ بِهَدْمِهِ وَوَكَّلَهُمْ بِخِرَابِهِ . فَحَبَّسُوا عِنْدَهَا
وَحَشَرُوا عَلَيْهَا الرِّجَالَ وَالصُّنَاعَ وَوَقَرُوا عَلَيْهِمُ النَّفَقَاتِ وَأَقَامُوا نَحْوَ
ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ يَحْتَلِمُهُمْ وَرَجُلُهُمْ يَهْدِمُونَ كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ ذَلِكَ الْجَهْدِ
وَأَسْتَفْرَاغِ الْوُسْعِ الْحَجَرَ وَالْمُحَجَّرِينَ . فَقَوْمٌ مِنْ فَوْقَ يَدْفَعُونَهُ بِالْأَسَافِينِ
وَالْأَمْخَالِ وَقَوْمٌ مِنْ أَسْفَلٍ يَجْدُبُونَهُ بِالْفُلُوسِ وَالْأَشْطَانِ فَإِذَا سَفَطَ
سُيِّعَ لَهُ وَجَبَةُ عَظِيمَةٌ مِنْ مَسَافَةٍ يَبْعِدُهُ حَتَّى تَرْجُفَ لَهُ الْجِبَالُ وَتَزَلْزَلَ
الْأَرْضُ وَيَغُوضَ فِي الرَّمْلِ فَيَتَعَبُونَ نَعْبًا آخَرَ حَتَّى يَخْرِجُوهُ ثُمَّ يَمْرِبُونَ
فِيهِ الْأَسَافِينَ بَعْدَ مَا يَنْقُبُونَ لَهَا مَوْضِعًا وَيُيْتِنُونَهَا فِيهِ فَيَتَقَطَّعُ قِطْعًا
فَيُسْحَبُ كُلُّ قِطْعَةٍ عَلَى الْعَجَلِ حَتَّى تُتْلَى فِي ذَيْلِ الْجَبَلِ وَهِيَ مَسَافَةٌ
قَرِيبَةٌ . فَلَمَّا طَالَ ثَوَاؤُهُمْ وَنَفِدَتْ نَفَقَاتُهُمْ وَتَضَاعَفَ نَصَبُهُمْ وَوَهَتْ
عَزَائِمُهُمْ وَخَارَتْ قُوَاهُمْ كَفَلُوا مُحْشُورِينَ مَذْمُومِينَ لَمْ يَدُلُّوا بِغِيَّةٍ وَلَا

بَلِّغُوا غَايَةَ بَلِّ كَانَتْ غَايَتُهُمْ أَنْ شَوْهُوا الْهَرَمَ وَأَبَانُوا عَنْ عَجْزٍ وَفَشَلٍ .
وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّائِي
لِحِجَارَةِ الْهَرَمِ يَظُنُّ أَنَّ الْهَرَمَ قَدْ اسْتَوْصِلَ فَإِذَا عَايَنَ الْهَرَمَ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ
يُهْدمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنَّمَا جَانِبٌ مِنْهُ كُشِطَ بَعْضُهُ . وَحِينَ مَا شَاهَدْتُ الْمَشْفَةَ
الَّتِي يَحْدُوْنَهَا فِي هَدمِ كُلِّ حَجَرٍ سَأَلْتُ مُقَدِّمَ الْحَجَّارِيِّنَ فَقُلْتُ لَهُ لَوْ
بُذِلَ لَكُمْ أَلْفُ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تَرُدُّوا حَجَرًا وَاحِدًا إِلَى مَكَانِهِ وَهَذَا يَهُ هَلْ
كَانَ يَتِمُّكُمْ ذَلِكَ فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ تَعَالَى إِنَّهُمْ لَيَعْجِزُونَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ
بُذِلَ لَهُمْ أضعافُهُ

وَيُزَارَاهُ الْأَهْرَامُ مِنَ الصُّفَةِ الشَّرْقِيَّةِ مَغَايِرُ كَثِيرَةٍ الْعِدَدِ كَثِيرَةُ الْيَقْدَارِ
عَمِيقَةُ الْأَغْوَارِ مُتَدَاخِلَةٌ . وَفِيهَا مَا هُوَ ذُو طَبَقَاتٍ ثَلَاثٌ وَتُسَمَّى الْمَدِينَةُ حَتَّى
لَعَلَّ النَّارِيسَ يَدْخُلُهَا بِرُحْمِهِ وَيَخْبُلُهَا بِوَمَا أَجْمَعَ وَلَا يَنْهِيهَا لِكثَرَتِهَا وَسَعَتِهَا
وَبُعْدِهَا وَيُظْهِرُ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ الْأَهْرَامِ . وَأَمَّا مَقَاطِعُ حِجَارَةِ
الصَّوَانِ الْأَحْمَرِ فَيُقَالُ إِنَّهَا يَا الْقَلْزُومُ وَيَا سَوَانَ

وَعِنْدَ هَذِهِ الْأَهْرَامِ آثَارُ أُبْنِيَّةٍ جَبَّارَةٍ وَمَغَايِرُ كَثِيرَةٍ مُتَفَنَّةٍ وَقَلَمًا تَرَى
مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا إِلَّا وَتَرَى عَلَيْهِ كِتَابَاتٍ يَهْدِي الْقَلَمُ الْغُجُولُ
وَعِنْدَ هَذِهِ الْأَهْرَامِ يَأْكُرُ مِنْ غُلُوفِ صُورَةٍ رَأْسٍ وَعُتْفٍ بَارِزَةٍ مِنْ
الْأَرْضِ فِي غَايَةِ الْعِظَمِ يُسَبِّهُ النَّاسُ أَبَا الْهَوَلِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ جُثَّتَهُ
مَدْفُونَةٌ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَقْتَضِي الْقِيَاسُ أَنْ تَكُونَ جُثَّتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى رَأْسِهِ
سَعِينَ خِزَاعًا فَصَاعِدًا . وَفِي وَجْهِهِ حُمْرَةٌ وَدِهَانٌ أَحْمَرٌ يَلْمَعُ عَلَيْهِ رَوْنَقُ
الطَّرَاقَةِ وَهُوَ حَسَنُ الصُّورَةِ مَبْهُولُهَا عَلَيْهِ مَسْحَةٌ بِهَاءٍ وَجَالٍ كَأَنَّهُ يَضْحَكُ

تَبَسُّمًا. وَسَأَلَنِي بَعْضُ الْفَضَلَاءِ مَا أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ فَقُلْتُ تَنَاسُبُ وَجْهِ أَبِي
 الْهَوَلِ فَإِنَّ أَعْضَاءَ وَجْهِهِ كَالْأَنْفِ وَالْعَيْنِ وَالْأُذُنِ مُتَنَاسِبَةٌ كَمَا تَصْنَعُ
 الطَّبِيعَةُ الصُّورَ مُتَنَاسِبَةً. فَإِنَّ أَنْفَ الْفَتَى مِثْلًا مُنَاسِبٌ لَهُ وَهُوَ حَسَنٌ
 بِهِ حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْأَنْفُ لِرَجُلٍ لَكَانَ مُشَوَّهًا بِهِ وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ
 أَنْفُ الرَّجُلِ لِلصَّبِيِّ لَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ وَعَلَى هَذَا سَائِرُ الْأَعْضَاءِ فَكُلُّ
 عُضْوٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى مِقْدَارٍ وَهَيْئَةٍ بِالنِّسَابِ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ وَعَلَى
 نِسْبَتِهَا فَإِنْ لَمْ تَوْجِدِ الْمُنَاسِبَةَ تَشَوَّهَتْ الصُّورَةُ وَأَعْجَبُ مِنْ مِصُورِهِ
 كَيْفَ قَدَّرَ أَنْ يَخْفِظَ نِظَامَ التَّنَاسُبِ فِي الْأَعْضَاءِ مَعَ عَظِيمِهَا وَأَنَّهُ لَيْسَ
 فِي أَعْمَالِ الطَّبِيعَةِ مَا يُعْجِبُكَ وَيَتَعَبُّكَ

وَمِنْ ذَلِكَ الْأَثَارِ الَّذِي بَعَيْنِ شَمْسٍ وَهِيَ مَدِينَةُ صَغِيرَةٌ بِشَاهِدِ سُورِهَا
 مُحَدِّقًا بِهَا مَهْدُومًا وَيُظْهِرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهُمَا قَدْ كَانَتْ بَيْتَ عِبَادَةٍ. وَفِيهَا مِنْ
 الْأَصْنَامِ أَلْهَائِلَةُ الْعِظِيمَةِ الشَّكْلِ مِنْ نَحْبِ الْمَجَارَةِ يَكُونُ طُولُ الصَّنَمِ
 زَهَاءً ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَأَعْضَاؤُهُ عَلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ مِنَ الْعِظَمِ. وَقَدْ كَانَ بَعْضُ
 هَذِهِ الْأَصْنَامِ قَائِمًا عَلَى قَوَاعِدَ وَبَعْضُهَا قَائِمًا بِنُصْبَاتٍ عَجِيبَةٍ وَأَمَّا ثَنَائَاتُ
 مُحْكَمَةٌ وَبَابُ الْمَدِينَةِ مَوْجُودٌ إِلَى الْيَوْمِ. وَعَلَى مُعْظَمِ تِلْكَ الْمَجَارَةِ نَصَاوِيرُ
 الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَكِتَابَاتٌ كَثِيرَةٌ بِالْقَلَمِ الْجَهْلِيِّ وَقَلَمًا
 تَرَى جَمْرًا غَفْلًا مِنْ كِتَابَةِ أَوْ نَقْشِ أَوْ صُورَةٍ. وَفِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْمَسْلُكَيْنِ
 الْمَشْهُورَيْنِ وَتُسَمَّيَانِ مِسْلَتِي فِرْعَوْنَ وَصِفَةُ الْمَسْلَةِ أَنَّ قَاعِدَةَ مُرَبَّعَةً طُولُهَا
 عَشْرُ أَذْرُعٍ فِي مِثْلِهَا عَرْضًا فِي نَحْوِهَا سِتْمَا قَدْ وُضِعَتْ عَلَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ
 فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أُقِيمَ عَلَيْهَا عِمُودٌ مُرَبَّعٌ مَخْرُوطٌ يَنْفُذُ طُولَهُ عَلَى مِائَةِ ذِرَاعٍ

يَتَدَيُّ مِنْ قَلْعَةٍ لَعَلَّ فُطْرَهَا خَمْسُ أَذْرُعٍ وَيَنْتَهِي إِلَى نَقْطَةٍ وَقَدْ لَيْسَ
رَأْسُهَا بِقَلَنْسُوءَةٍ نَحْسٍ إِلَى نَحْوِ ثَلَاثِ أَذْرُعٍ مِنْهَا كَأَن لَيْمَعَ . وَقَدْ تَزَجَرَ
بِالْمَطَرِ وَعُلُولِ الْمَدَى وَأَخْضَرَ وَسَالَ مِنْ خُضْرَتِهِ عَلَى بَسِيطِ الْبَسَلَةِ .
وَالْبَسَلَةُ كُلُّهَا عَلَيْهَا كِتَابَاتٌ بِذَلِكَ الْقَلَمِ وَرَأَيْتُ إِحْدَى الْبَسَلَتَيْنِ
وَقَدْ خَرَّتْ وَأَنْصَدَعَتْ بَيْنَ نِصْفَيْهَا لِعِظَمِ الثَّقَلِ وَأَخَذَ النَّحَّاسُ مِنْ رَأْسِهَا .
فَمَلَأَ حَوْفَهَا مِنَ الْمَسَالِ شَيْئًا كَثِيرًا لَا يَحْصِي عَدْدُهَا وَمَقَادِيرُهَا عَلَى نِصْفِ
تِلْكَ الْعُظْمَى أَوْ ثُلُثِهَا وَقَلَمًا تَجْدُ فِي هَذِهِ الْمَسَالِ الصَّغَارِ مَا هُوَ قِطْعَةٌ
وَاحِدَةٌ بَلْ فُصُوصٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ تَهَدَّم أَكْثَرُهَا وَإِنَّمَا بَقِيَتْ
قَوَاعِدُهَا . وَرَأَيْتُ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ مِسْلَتَيْنِ عَلَى سَيْفِ الْبَحْرِ فِي وَسْطِ
الْعِمَارَةِ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ الصَّغَارِ وَأَصْغَرَ مِنَ الْعَظِيمَتَيْنِ

وَأَمَّا الْبَرَابِيُّ بِالصَّعِيدِ فَالْحِكَايَاتُ عَنْ عِظَمِهَا وَإِقْنَانِ صَنْعَتِهَا وَأَحْكَامِ
صَوَرِهَا وَعَجَائِبِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَشْكَالِ وَالنُّقُوشِ وَالْتِصَاوِيرِ وَالْخُطُوطِ
مَعَ أَحْكَامِ الْبِنَاءِ وَجَفَاءِ الْأَلَاتِ وَالْأَجَارِ مَا يَفُوتُ الْخَصْرَ وَهِيَ مِنْ
الشَّهْرِ تَحْبُثُ نَفْيً عَنِ الْإِطَالَةِ فِي الصِّفَةِ

وَمِنْ ذَلِكَ الْأَثَارُ الَّذِي بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ بِالْمَجِيدَةِ فُوَيْقَ
الْفُسْطَاطِ وَهِيَ مَنْفُ الَّذِي كَانَ بِسُكْنِهَا التَّرَاعِنَةُ وَكَانَتْ مُسْتَقَرًّا مَمْلُوكَةٍ
مُلُوكِ مِصْرَ

فَهَذِهِ الْمَدِينَةُ مَعَ سَعَتِهَا وَقَادِمِ عَهْدِهَا وَتَدَاوُلِ الْبَلَلِ عَلَيْهَا وَاسْتِثْصَالِ
الْأَمْرِ إِيَّاهَا مِنْ نَعْفِيَةِ آثَارِهَا وَنَحْوِ رُسُومِهَا وَنَقْلِ حِجَارَتِهَا وَالْأَنْهَارِ
وَالْفَسَادِ أُنْبِيَتْهَا وَتَشْوِيهِ صَوَرِهَا مُضَافًا إِلَى مَا فَعَلَتْهُ فِيهَا أَرْبَعَةُ أَلْفِ

سَنَةِ فَصَاعِدًا تَجِدُ فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ مَا يَفُوتُ فَمَنْ الْفَطْنِ الْمُنَائِلُ وَيَحْصُرُ
 حُذُونَ وَصِفِهِ الْبَلِيغُ اللَّسِنُ وَكُلُّمَا رَذِيَّتُهُ نَامِلًا رَاذَكَ عَجَبًا وَكُلُّمَا رَذِيَّتُهُ
 نَظَرًا رَاذَكَ طَرَبًا وَمَهُمَا اسْتَنْبَطَتْ مِنْهُ مَعْنَى أَنْبَاكَ بِمَا هُوَ أَغْرَبُ وَمَهُمَا
 اسْتَنْزَتْ مِنْهُ عِلْمًا ذَلِكَ عَلَى أَنْ وَرَاءَهُمَا هُوَ أَعْظَمُ

فَإِنَّ ذَلِكَ الْبَيْتَ الْمُسَمَّى بِالْبَيْتِ الْأَخْضَرِ وَهُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ نَسِعَ
 أَذْرُعَ أَرْتِقَاعًا فِي ثَمَانِ طُولًا فِي سَبْعِ عَرْضًا قَدْ حُفِرَ فِي وَسَطِهِ يَتُّ قَدْ
 جُعِلَ سَمَكٌ حِطَانِهِ وَسَفِيهِ وَأَرْضُهُ ذِرَاعَيْنِ ذِرَاعَيْنِ وَالْبَابُ فِي نِصْفِهِ
 الْبَيْتِ وَجَمِيعُهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مَنُوشٌ وَمُصَوَّرٌ وَمَكْتُوبٌ بِالْقَلَمِ الْقَدِيمِ
 وَعَلَى ظَاهِرِهِ صُورَةُ الشَّمْسِ بِمَا يَلِي مَطْلِعَهَا وَصُورَةُ كَيْدِيَّةٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ
 وَالْأَفْلَاكِ وَصُورُ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ عَلَى أَحْيَافٍ مِنَ النُّصَبَاتِ وَالْأَعْيَانِ
 فَإِنَّ بَيْنَ قَائِمِهِ وَمَاشِيهِ وَمَا ذَرَجَتِهِ وَصَافِيهَا وَمُسْتَشِيرِ (مُسِيرٍ) لِلْخِدْمَةِ
 وَحَامِلِ آلَاتِ وَالْمُسِيرِ بِهَا. يُنْبِئُ ظَاهِرُ الْأَمْرِ أَنَّهُ قُصِدَ بِذَلِكَ مُحَاكَاةُ
 أُمُورِ جَالِيَانِهِ وَأَعْمَالِ شَرِيفَتِهِ وَهِيَ بَاتٌ فَاضِلَةٌ وَأَشَارَاتٌ إِلَى أَسْرَارِ غَايِصَتِهِ
 وَأَنَّهَا لَمْ تُنْخَدَعْنَا وَلَمْ يُسْتَفْرَغْ فِي صَنْعَتِهَا الْوُسْعُ لِجَرْدِ الزَّيْنَةِ وَالْحُسْنِ.
 وَقَدْ كَانَ هَذَا الْبَيْتُ مُمَكَّنًا عَلَى قَوَاعِدٍ مِنْ حِجَارَةِ الصَّوَانِ الْعَظِيمَةِ الْوُثْقَى
 فَخَفَرَتْ حَتَّى أَتَتْهُمُ وَالْحَقِيقَةُ طَمَعًا فِي الْمَطَالِبِ فَتَغَيَّرَ وَضْعُهُ وَفَسَدَ هَيْدَامُهُ
 وَأَخْتَلَفَ مَرَكُزُ ثِقَلِهِ وَثَقَلَ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَتَصَدَّعَ صُدُوعًا لَطِيفَةً
 بَيَسِيرَةٍ. وَهَذَا الْبَيْتُ قَدْ كَانَ فِي هَيْكَلٍ عَظِيمٍ مَبْنِيٍّ بِحِجَارَةِ عَاتِيَةٍ جَافِيَةٍ
 عَلَى أَنْفِ هَيْدَامٍ وَأَحْكَمَ صَنْعَةٍ وَفِيهَا قَوَاعِدُ عَلَى عَمَدٍ عَظِيمَةٍ وَحِجَارَةُ
 الْهَذَمِ مُتَوَاصِلَةٌ فِي جَمِيعِ أَفْطَارِ هَذَا الْخَرَابِ. وَقَدْ بَنِيَ فِي بَعْضِهَا حِطَانٌ

مَا ثَلَّةٌ يَمْلِكُ الْمِجَارَةَ الْخَافِيَةَ . وَفِي بَعْضِهَا أَسَاسٌ وَفِي بَعْضِهَا أَطْلَالٌ
وَرَأَيْتُ عِنْدَ بَابِ شَاهِقَا رُكْنَاهُ حَجَرَانِ فَقَطُّ وَأَزْجَاهُ حَجَرٌ وَاحِدٌ قَدْ سَنَطَ
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَجَدُّ هَذِهِ الْمِجَارَةُ مَعَ الْمُنْدَامِ الْعُجْمِ وَالْوَضْعِ الْمُنْفِي قَدْ حُفِرَ
بَيْنَ الْحَجَرَيْنِ مِنْهَا تَحْوِشِيرٌ فِي أَرْتِفَاعِ أَصْبَعَيْنِ وَفِيهِ صَدَاةُ الثُّغَاسِ
وَزَجْرَتُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ قُبُودُ الْحِجَارَةِ الْبِنَاءِ وَتَوْثِيقُ لَهَا وَرِ بَاطَاتٍ
بَيْنَهَا يَأْنُ يُجْعَلُ بَيْنَ الْحَجَرَيْنِ ثُمَّ يُصَبُّ عَلَيْهِ الرِّصَاصُ وَقَدْ تَبَعَهَا
الْأَنْدَالُ وَالْخُدُودُونَ فَقَلَعُوا مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَسَرُوا لِأَجْلِهَا كَثِيرًا
مِنَ الْمِجَارَةِ حَتَّى يَصْلُوا إِلَيْهَا وَلَعَنَ اللَّهُ لَقَدْ بَذَلُوا الْجُهْدَ فِي اسْتِخْلَاصِهَا
وَأَبَانُوا عَنْ تَمَكُّنٍ مِنَ اللَّوْمِ وَتَوَعَّلٍ فِي الْخُسَاسَةِ

وَأَمَّا الْأَصْنَافُ وَكَثْرَةُ عَدِيدِهَا وَعِظَمُ صُورِهَا فَأَمْرٌ يَفُوتُ الْوَصْفَ
وَيَتَجَاوَزُ التَّنْذِيرَ . وَأَمَّا انْقِائَاتُ أَشْكَالِهَا وَأَحْكَامُ هَيَائِهَا وَالْمُحَاكَاةُ بِهَا
الْأُمُورَ الطَّبِيعِيَّةَ فَمَوْضِعُ التَّعَجُّبِ بِالْخَفِيَّةِ . فَمِنْ ذَلِكَ صَمٌّ دَرَعَانَهُ
سِوَى قَاعِدَتِهِ فَكَانَ بَنَانًا وَتَلَيْنِ خِرَافًا وَكَانَ مَدَاهُ مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ إِلَى
الْيَسَارِ نَحْوَ عَشْرِ أَذْرُعَ . وَمِنْ جِهَةِ الْخَلْفِ إِلَى الْأَمَامِ عَلَى تِلْكَ النِّسْبَةِ
وَهُوَ حَجَرٌ وَاحِدٌ مِنَ الصُّوَانِ الْآخِرِ وَعَلَيْهِ مِنَ الدِّهَانِ الْآخِرِ كَأَنَّهُ لَمْ
يَزِدْهُ تَقَادُمُ الْأَيَّامِ إِلَّا جِفَةً . وَالتَّعَجُّبُ كُلُّ التَّعَجُّبِ كَيْفَ حُفِظَ فِيهِ مَعَ
عِظَمِهِ النِّظَامُ الطَّبِيعِيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْخَفِيُّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ
الْأَعْضَاءِ أَلَا لِيَةِ الْمُتَشَابِهَةِ لَهُ فِي نَفْسِهِ مِقْدَارٌ مَا وَلَهُ إِلَى سَائِرِ الْأَعْضَاءِ
نِسْبَةٌ مَا بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ وَتِلْكَ النِّسْبَةُ بِحُصُلِ حُسْنِ الْهَيْئَةِ وَمَلَاحَةِ
الصُّورَةِ فَإِنْ أَخَذْتَ مِنْ ذَلِكَ حَدَثَ مِنْ أَلْتَجَرِ بِمِقْدَارِ الْخَلَلِ

وَقَدْ أَحْكَمَ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ هَذَا النِّظَامُ إِحْكَامًا أَبَدِيًّا إِحْكَامٌ قَدْ قَدْ
مَقَادِيرُ الْأَعْضَاءِ فِي نَفْسِهَا ثُمَّ نَسَبُ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ

وَرَأَيْتُ أَسَدَيْنِ مُتَنَابِلَيْنِ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ قَرِيبٌ وَصُورُهُمَا هَائِلَةٌ جِدًّا وَقَدْ
حُفِظَ فِيهَا النِّظَامُ الطَّبِيعِيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْحَيَوَانِيُّ مَعَ كَوْنِهَا أَعْظَمَ جَنَّةٍ مِنَ
الْحَيَوَانِ الْخَفِيفِ جِدًّا وَقَدْ تَكَسَّرَ وَرُدِّمًا بِالْأَرَابِ وَوَجَدْنَا مِنْ سُورِ
الْمَدِينَةِ فِطْعَةً صَالِحَةً مَبْنِيَةً بِالْحِجَارَةِ الصَّغَارِ وَالطُّوبِ وَهَذَا الطُّوبُ
كَبِيرٌ جَافٌ مُطَاوِلُ الشَّكْلِ وَمِقْدَارُهُ نِصْفُ الْأَجْرِ الْكُسْرِيِّ بِالْعِرَاقِ
كَمَا أَنَّ طُوبَ مِصْرَ الْيَوْمَ نِصْفُ أَجْرِ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ أَيْضًا

(ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ) يَحْدُونَ نَوَافِسَ تَحْتَ الْأَرْضِ فَسِجَّةَ الْأَرْجَاءِ مُحْكَمَةً
الْبِنَاءِ وَفِيهَا مِنْ مَوْتَى الْقَدَمَاءِ أَكْثَرُ الْعَفِيدِ وَالْعَدَدُ الْكَثِيرُ قَدْ لُفُوا بِأَكْفَانٍ
مِنْ ثِيَابِ الْقَنْبِ لَعَلَّهُ يَكُونُ عَلَى أَلْيَتِ مِنْهَا زُهَاءٌ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَقَدْ كُنْ
كُلُّ عِضْوٍ عَلَى أَنْفِرَادِهِ كَالْيَدِ وَالرَّجْلِ وَالْأَصَابِعِ فِي فِطْرَةِ دِفَاقٍ . ثُمَّ
بَعْدَ ذَلِكَ تَلَفُ جَنَّةُ أَلْيَتِ جُمْلَةً حَتَّى يَرْجِعَ كَمَا تَحْمِلُ الْعَظِيمُ وَمَنْ كَانَ
يَتَّبِعُ هَذِهِ النَّوَافِسَ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الرِّيفِ وَغَيْرِهِمْ بِأَخْذِ هَذِهِ
الْأَكْفَانِ فَأَوْجَدَ فِيهِ تَمَاسُكًا أَخَذَهُ ثِيَابًا أَوْ بَاعَهُ لِلرَّافِقِينَ يَعْمَلُونَ مِنْهُ
وَرَقَّ الْعَطَارِينَ . وَيُوجَدُ بَعْضُ مَوْتَاهُمْ فِي تَوَابِتٍ مِنْ خَشَبٍ جَبِينِ
لَحْيَيْنِ وَيُوجَدُ بَعْضُهُمْ فِي نَوَافِسَ مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ رُخَامٍ أَوْ مَا صَوَّرَ وَبَعْضُهُمْ
فِي أَرْبَابٍ مَبْلُورَةٍ عَسَلًا . وَخَبَّرَنِي الْثِقَّةُ أَنَّهُمْ يَتَنَاكَتُونَ يَتَقَنَّنُونَ الطَّالِبَ
عِنْدَ الْأَهْرَامِ صَادِقُوا دَنَاءًا مَخْتُومًا فَفَضُّهُ فَإِذَا فِيهِ عَسَلٌ فَأَكَلُوا مِنْهُ فَعَلِقَ
فِي أَصْبَعٍ أَحَدِهِمْ شَعْرَةً فَجَدَّ بِهِ فَظَهَرَ لَهُمْ صَبِيٌّ صَغِيرٌ مُتَمَاسِكُ الْأَعْضَاءِ

رَطْبُ الْبَدَنِ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْجَوْهَرِ. وَهُوَ لَا الْمَوْتَى فَذُو جَدُّ عَلَى
 جِبَاهِهِمْ وَعُيُونِهِمْ وَأَنُوفِهِمْ وَرَقَّ مِنَ الذَّهَبِ كَالْفِشْرِ. وَرُبَّمَا وَجَدَ فِشْرٌ
 مِنَ الذَّهَبِ عَلَى جَمِيعِ الْمَيِّتِ كَالْفِشَاءِ وَرُبَّمَا وَجَدَ عِنْدَ شَيْءٍ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْحُلِيِّ وَالْجَوْهَرِ وَرُبَّمَا وَجَدَ عِنْدَ آتَةٍ الَّتِي كَانَ يُزَاوِلُ بِهَا فِي حَيَاتِهِ.
 وَأَخْبَرَنِي الْفَيْقَةُ أَنَّهَا وَجَدَتْ عِنْدَ مَيِّتٍ مِنْهُمْ آتَةَ الْعَزْزَيْنِ مِسْنَا وَمُوسَى وَعِنْدَ
 آخِرِ آتَةِ الْمَحْجَامِ وَعِنْدَ آخِرِ آتَةِ الْحَائِكِ وَيَطْهَرُ مِنْ حَالِمٍ أَنَّهُ قَدْ كَانَ
 مِنْ سُنَّتِهِمْ أَنْ يَذْفُقُوا مَعَ الرَّجُلِ آتَتُهُ وَمَا لَهُ. وَسَمِعْتُ أَنَّ طَوَائِفَ مِنَ
 الْحَبَشَةِ هَذِهِ سُنَّتُهُمْ وَيَطْطَبُّونَ بِمَتَاعِ الْمَيِّتِ إِنْ يَمْسُوهُ أَوْ يَتَصَرَّفُوا فِيهِ
 وَقَدْ كَانَ مِنْ سُنَّتِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ يَجْعَلُ مَعَ الْمَيِّتِ شَيْءٌ مِنَ الذَّهَبِ.
 فَخَبَّرَنِي بَعْضُ قُضَاةِ بُوَصِيرَ وَهِيَ مُحَاوِرَةٌ مَدَاغِيهِمْ أَنَّهُمْ نَبَشُوا ثَلَاثَةَ أَقْبِرَ
 فَوَجَدُوا عَلَى كُلِّ مَيِّتٍ فِشْرًا رَفِيقًا مِنَ الذَّهَبِ لَا يَكَادُ يُجْنَعُ وَفِي فِيهِ
 سَبِيكَةٌ مِنَ الذَّهَبِ فَجَمَعَ السَّبَائِكُ الثَّلَاثَةَ فَكَانَ وَزْنُهَا تِسْعَةً مَنَاقِيلَ
 وَالْحِكَايَاتُ فِي ذَلِكَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحْضُرَ مَا هَذَا الْكِتَابُ

وَأَمَّا مَا يُوجَدُ فِي أَجْوَادِهِمْ وَأَذْيَعُهُمْ مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ مُوْمِيَا
 فَكَبِيرٌ جِدًّا يَحِلُّهُ أَهْلُ الرِّيفِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَيُبَاعُ بِالشَّيْءِ الذَّرِي وَلَقَدْ
 اشْتَرَيْتُ ثَلَاثَةَ أَرُوسٍ مَمْلُوءَةٍ مِنْهُ يَنْصَفُ دِرْهَمٌ مُضَرِيٌّ وَلَدَانِي بَائِعُهُ
 جُودًا مَمْلُوءًا مِنْ ذَلِكَ. وَكَانَ فِيهِ الصَّدْرُ وَالْبَطْنُ وَحَشْوَةٌ مِنْ هَذَا
 الْمُوْمِيَا وَرَأَيْتُهُ قَدْ دَاخَلَ الْعِظَامَ وَتَشَرَّبَتْهُ وَسَرَى فِيهَا حَتَّى صَارَتْ
 كَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ وَرَأَيْتُ أَبْصَا عَلَى فَخْفِ الرَّأْسِ أَثَرَ ثَوْبٍ الْكَنْزِ وَأَثَرَ
 النَّسَاجَةِ قَدْ انْتَفَشَ فِيهِ كَمَا يَرْتَسِمُ عَلَى الشَّمْعِ إِذَا حُمِّتَ بِهِ عَلَى ثَوْبٍ

وَهَذَا الْهُومِيَا هُوَ أَسْوَدُ كَالْقَرِ وَرَأَيْتُهُ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ حَرُّ الصَّبْفِ
يَجْرِي وَيَلْصِقُ بِمَا يَدُ ثُومِيْنُهُ وَإِذَا طَرِحَ عَلَى الْجَمْرِ عَلَى وَدَحْنٍ وَشِبْثِ
مِنْهُ رَائِحَةُ الْقَرِ أَوْ الزَّفْتِ وَالْغَالِبُ أَنَّهُ زِفْتُ وَمَرُّ. وَأَمَّا الْهُومِيَا بِالْحَنِيفَةِ
فَشَيْءٌ يَخْدِرُ مِنْ رُؤُسِ الْجِبَالِ مَعَ الْبَيَاهِ ثُمَّ يَجِدُ كَالْقَارِ وَيَفُوحُ مِنْهُ
رَائِحَةُ زِفْتٍ مَخْلُوطٍ بِقَرٍ. وَقَالَ جَالِينُوسُ الْهُومِيَا يَخْرُجُ مِنَ الْعُيُونِ
كَالْقَارِ وَالنَّفْطِ. وَقَالَ غَيْرُهُ هُوَ صَنْفٌ مِنَ الْقَارِ وَيُسَمَّى حِضَّ الْجِبَالِ
وَهَذَا الَّذِي يُوجَدُ فِي تَجَاوِفِ الْمَوْتَى يَبْصُرُ لَا يَبْعُدُ عَنْ طِبَاعِ الْهُومِيَا
وَأَنَّهُ يَسْتَعْمَلُ بَدَلَهُ إِذَا نَعْدَسَ

وَمِنْ أَعْجَابِ مَا يُوجَدُ فِي مَدَائِنِهِمْ أَصْنَافُ الْحَيَوَانِ مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ
وَالْحَشَرَاتِ وَقَدْ كُنِيَ الْوَاحِدُ مِنْهَا فِي كَذَا كَذَا ثَوْبًا وَهُوَ مُخْنَطٌ عَلَيْهِ
مُخْنَطٌ بِهِ. وَخَبَرَنِي الثَّقَةُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا بَيْنَا تَحْتَ الْأَرْضِ مُحْكَمًا فَفَتَحُوهُ
فَوَجَدُوا فِيهِ لَفَافٍ ثِيَابِ الْقَتْلِ وَقَدْ تَمَعَطَتْ فَأَزَالُهَا مَعَ كَثَرَتِهَا
فَوَجَدُوا تَحْتَهَا عِجَالًا صَحِيحًا قَدْ أَحْكَمُ تَقْيِيطُهُ. وَجَدْتُ أُخْرَى أَنَّهُمْ وَجَدُوا
صَفْرَافَنَشْرًا عَنْهُ مِنْ لَفَافِ الثِّيَابِ حَتَّى عُبُوا فَوَجَدُوهُ لَمْ تَسْقُطْ مِنْهُ
رَيْشَةٌ. وَحَكِي لِي مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ هَرٍ وَعَنْ عُصْفُورٍ وَعَنْ خُنُفَسَاءَ وَغَيْرِ
ذَلِكَ مَا يَطُولُ شَرْحُهُ وَيَقْبُحُ ذِكْرُهُ

وَحَكِي لِي أَيْضًا الْأَمِيرُ الصَّادِقُ أَنَّهُ كَانَ يَقُوصُ حِجَابَهُ إِلَيْهِ مِنْ بَيْتِهِ
عَنِ الْمَطَالِبِ قَدْ كَرُوا لَهُ أَنَّهُمْ اتَّخَفَتْ بِهِمْ هُوَةٌ مُوهِبَةٌ أَنْ فِيهَا دَفِينَا
فَخَرَجَ مَعَهُمْ بِجَمَاعَةٍ مُتَسَلِّحِينَ وَحَفَرُوا فَوَجَدُوا زَيْدًا كَبِيرًا مُوْتَقًى الرِّاسِ
بِالْجَحْصِ فَفَتَحُوهُ بَعْدَ الْجَهْدِ فَوَجَدُوا فِيهِ كَالْأَصَابِعِ مَكْنَنَةً يَجْرِي تَحْلُوهَا

فَوَجَدُوا تَحْتَهَا صِدْرًا وَهُوَ سَمَكٌ صِفَارٌ وَصَارَ كَالْمَبَاءِ إِذَا نُفِخَ طَارَ فَنَقَلُوا
الزُّبُرَ إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَالِي وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ
فَقَالُوا أَجْمَعٌ حَتَّى أَتَوَاعَى آخِرِهِ وَهُوَ كَلَّةٌ صِدْرٌ مُكَنَّفٌ لَيْسَ فِيهِ سِوَى ذَلِكَ
وَرَأَيْتُ أَنَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَدَائِنِهِمْ يُوصِرُونَ الْعَجَائِبَ مَا لَا يَبْقَى بِهِ
هَذَا الْكِتَابُ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنِّي وَجَدْتُ فِي هَذِهِ الْمَدَائِنِ مَغَايِرَ تَحْتَ الْأَرْضِ
مِثْلَةَ بِلَانْقَانٍ وَفِيهَا رِمَمٌ مُكَنَّفَةٌ فِي كُلِّ مَغَارَةٍ عَدَدٌ لَا يُحْصَى. وَمِنْ الْمَغَايِرِ
مَا هُوَ مَسْلُوكٌ بِرِمَمِ الْكِلَابِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مَسْلُوكٌ بِرِمَمِ الْبَقَرِ وَمِنْهَا مَا فِيهِ رِمَمٌ
السِّنَانِيرِ وَاجْتَمِعَ مُكَنَّفٌ يَخْرِقُ الْقَنْبَ. وَرَأَيْتُ شَيْئًا مِنْ عِظَامِ بَنِي آدَمَ
وَقَدْ تَمَشَّقَ حَتَّى صَارَ كَاللِّبِّ الْأَبْيَضِ لِفَدْيِهِ وَمَعَ ذَلِكَ فَأَكْثَرُ الرِّمَمِ
الَّتِي رَأَيْتُهَا صَلْبَةٌ مُنَاسِكَةٌ جِدًّا بَظُهُرٍ مِنْ عَلَيْهَا الطَّلَافَةُ أَكْثَرُ مِنْ رِمَمِ
أَهْلِ لَيْكِينَ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ الْآتِي ذِكْرُهَا آخِرَ كِتَابِنَا هَذَا
وَلَا سِبْمًا مَا كَانَ مِنَ الرِّمَمِ الْقَدِيمَةِ قَدْ أَنْصَغَ بِالزَّفْرِ أَوْ الْقَطْرَانِ فَإِنَّكَ
تَجِدُهَا فِي لَوْنِ الْحَدِيدِ وَصَلَاتِهِ وَرِزَاتِهِ. وَرَأَيْتُ مِنْ جَاوِمِ الْبَقَرِ مَا شَاءَ
اللَّهُ وَكَذَلِكَ جَاوِمِ الْغَنَمِ وَفَرَفَتْ بَيْنَ رُؤُوسِ الْمَغَزِ وَالضَّانِ وَبَيْنَ
رُؤُوسِ الْبَقَرِ وَالْثِيرَانِ وَوَجَدْتُ لَحْمَ الْبَقَرِ قَدْ التَّصَّقَ بِالْأَكْفَانِ حَتَّى
صَارَ قُطْعَةً وَاحِدَةً حَمْرًا تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ وَيَخْرُجُ الْعَظْمُ مِنْ تَحْتِهَا
أَبْيَضَ بَقَا وَبَعْضُ الْعِظَامِ أَحْمَرُ وَبَعْضُهَا أَسْوَدُ وَكَذَلِكَ فِي عِظَامِ
الْأَدَمِيِّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَكْفَانَ كَانَتْ تَبُلُّ بِالصِّدْرِ وَالْقَطْرَانِ وَتَشْرَبُ
بِهِ ثُمَّ يَكْنَفُ بِهَا فَلِذَلِكَ بَصُغُ اللَّحْمِ وَيُبَيِّقُ وَمَا مَالَ مِنْهَا الْعَظْمُ صَبْغُهُ
فَاحْمَرُ وَأَسْوَدُ. وَوَجَدْتُ فِي عِةٍ مَوَاضِعَ ثَلَاثًا مِنْ رِمَمِ الْكِلَابِ لَعَلَّهُ

يَكُونُ فِي جَمَلِهَا مِائَةُ أَلْفِ رَأْسٍ كُلِّبٍ أَوْ يَزِيدُ وَذَلِكَ مَا يُبِيرُ الْبَاحُونَ
عَنِ الْمَطَالِبِ فَإِنَّ جَمَاعَةً يَجْعَلُونَ مَكَاسِيَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْقُبُورِ وَأَخِذَ مَا سَخَّحَ لَهُمْ
مِنَ الْخَشَبِ وَالْخَرَقِ وَغَيْرِهِ . وَاسْتَفْرَيْتُ جَمِيعَ الْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنَةِ فَلَمْ أَجِدْ
فِيهَا رَأْسَ قَرَسٍ وَلَا جَمَلٍ وَلَا حَارٍ فَبَيَّنِّي ذَلِكَ فِي نَفْسِي فَسَأَلْتُ مَشَائِخَ
بُوصِيرَ فَبَادَرُوا إِلَى إِخْبَارِي بِأَنَّهُمْ قَدْ تَقَدَّسَتْ فِكْرَتُهُمْ فِي ذَلِكَ
وَأَسْتَفْرَأَوْهُمْ إِيَّاهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ . وَكَثُرَ تَوَائِينُهُمْ مِنْ خَشَبِ الْجَمْبِيزِ وَفِيهِ
الْقُوَى الصَّلْبُ وَمِنْهُ مَا صَارَ فِي دَرَجَةِ الرَّمَادِ . وَخَبَّرَنِي قُضَاةُ بُوصِيرَ
بِعَجَائِبِ مِنْهَا أَنَّهُمْ وَجَدُوا نَاوُوسًا مِنْ حَجَرٍ فَفَضُّوهُ فَأَلْفَوْا فِيهِ نَاوُوسًا
فَفَضُّوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ تَابُوتًا فَفَتَحُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ سَحَابَةً وَفِي سَامِ أَبْرَصَ
مُكَنَّفَةً مُخَاطَا عَلَيْهَا مَعْنِيَا بِهَا . وَوَجَدْنَا عِنْدَ بُوصِيرَ أَهْرَامًا كَثِيرَةً مِنْهَا
هَرَمٌ قَدِ انْهَدَمَ وَبَقِيَ قَلْبُهُ فَنَسْنَاهُ مِنْ مَبْدِئِ آسَاسِهِ فَوَجَدْنَاهُ لَا يَتَقَاصِرُ عَنْ
هَرَمِي الْجُيُزِ وَجَمِيعَ مَا حَكَّيْنَاهُ مِنْ أَحْوَالِ مَدَائِنِهِمْ يُبُوصِيرَ يُوجَدُ نَحْوُهُ
وَأَمْثَالُهُ يَعْنِي شَمْسٍ وَبِالْبَرَّايِ وَغَيْرِهَا

الفصل الخامس

فِيمَا شُوهِدَ بِهَا مِنْ غَرَائِبِ الْأَبْنِيَةِ وَالسُّنَنِ

وَأَمَّا أَبْنِيَتُهُمْ فَبَيْنَهَا هَنْدَسَةٌ بَارِعَةٌ وَتَرْتِيبٌ فِي الْغَايَةِ حَتَّى أَهْمُهُمْ فَلَمَّا يَنْزُكُونَ مَكَانًا غَفْلًا خَالِيًا عَنْ مَصْلُوحَةٍ وَدُورُهُمْ أَفْجَعُ وَغَالِبُ سُكُنَانِهِمْ فِي الْأَعَالِي وَيَجْعَلُونَ مَنَافِدَ مَنَارٍ لِيَمَّ نَلْقَاءُ الشَّمَالِ وَالرِّيَّاحِ الطَّيِّبَةِ وَقَلَمًا يَجِدُ مِثْرًا إِلَّا وَفِيهِ بَادَا هَنْجٌ وَبَادَا هَنْجَاتُهُمْ كِبَارٌ وَاسِعَةٌ لِلرَّمَجِ عَلَيْهَا تَسْلُطُ وَيُحْكِمُونَهَا غَايَةَ الْإِحْكَامِ حَتَّى أَنَّهُ يُغْرَمُ عَلَى عِمَارَةِ الْوَاحِدِ مِنْهَا مِائَةُ دِينَارٍ إِلَى خَمْسِ مِائَةٍ وَإِنْ كَانَتْ بَادَا هَنْجَاتُ الْمَنَارِ الصَّغِيرِ يُغْرَمُ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهَا دِينَارٌ. وَأَسْوَأُهُمْ وَشَوَارِعُهُمْ وَاسِعَةٌ وَأَبْنِيَتُهُمْ شَاهِقَةٌ وَيَسْنُونَ بِالْأَنْجَرِ الْيَحِيثِ وَالطُّوبِ الْأَخْضَرِ وَهُوَ الْأَجْرُ وَشَكْلُ طُوبِهِمْ عَلَى نِصْفِ طُوبِ

الْعِرَاقِ

وَيُحْكِمُونَ قَنَوَاتِ الْمَرَايِضِ حَتَّى أَنَّهُ تَخَرَّبُ الدَّارُ وَالْقَنَاءُ قَائِمَةٌ وَيَخْتَفِرُونَ الْكَنْفَ إِلَى الْمَعِينِ فَيَغْبِرُ عَلَيْهَا بُرْهَةٌ مِنْ الدَّهْرِ طَوِيلَةٌ وَلَا يَنْتَفِرُ إِلَى كَنْعٍ

وَأَمَّا سُنَنُهُمْ فَكَثِيرَةٌ الْأَصْنَافُ وَالْأَشْكَالُ وَأَغْرَبُ مَا رَأَيْتُ فِيهَا مَرْكَبٌ يُسَمُّونَهُ الْعَشِيرَى شَكْلُهُ شَكْلُ شِبَارَةٍ دِجَلَةٍ إِلَّا أَنَّهُ أَوْسَعُ مِنْهَا بِكَثِيرٍ وَأَطْوَلُ وَأَحْسَنُ هَذَا مَا وَشَكْلًا قَدْ سَطِحَ بِالْوِجَاحِ خَشَبٌ فُخِينَةٌ مُحْكَمَةٌ وَأَخْرَجَ مِنْهَا أَفَارِيزُ كَالرَّوَاتِينِ نَحْوَ ذِرَاعَيْنِ وَبُنِيَ فَوْقَ هَذَا السَّطْحِ بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ وَعِنْدَ عَلَيْهِ قُبَّةٌ وَفُتِحَ لَهُ طَاقَاتٌ وَرَوَازِينُ بِأَبْوَابٍ إِلَى الْبَحْرِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا ثُمَّ تَعْمَلُ فِي هَذَا الْبَيْتِ خِزَانَةٌ مُفْرَدَةٌ وَمِرْحَاضٌ

ثُمَّ يُزَوِّقُ بِأَصْنَافِ الْأَصْبَاغِ وَيَذْهَبُ وَيَذْهَبُ بِأَحْسَنِ دِهَانٍ ، وَهَذَا يُقَدِّدُ لِلْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ يَحِثُّ يَكُونُ الرَّئِيسُ جَالِسًا فِي وَسَادَتِهِ وَخَوَاصُّهُ حَوْلَهُ وَالْعُلَمَاءُ وَالْمَالِكُ قِيَامٌ بِالْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ عَلَى تِلْكَ الرُّوَاثِ وَأَطْعِمْنَهُمْ وَحَوَّاجِهِمْ فِي قَعْرِ الزَّكَبِ وَالْمَلَّاحُونَ تَحْتَ السَّطْحِ أَيْضًا وَفِي بَاقِي الزَّكَبِ يَقْدِفُونَ بِهِ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ الزَّكَابِ وَلَا الزَّكَابُ يَسْتَغْلُ حَوَاطِرُهُمْ بَلْ كُلُّ فَرِيقٍ يَمْعَزِلُ عَنِ الْآخِرِ وَمَشْغُولٌ بِمَا هُوَ بِصَدْدِهِ وَإِذَا أَرَادَ الرَّئِيسُ الْإِخْلَاقَ بِنَفْسِهِ عَنْ أَصْحَابِهِ دَخَلَ الْخُفْدَ وَإِذَا أَرَادَ قَضَاءَ حَاجَتِهِ دَخَلَ الْبِرْحَاضَ

وَالْمَلَّاحُونَ يَمْصُرُ يَقْدِفُونَ إِلَى وَرَائِهِمْ قَوْمٌ فِي قَدْفِهِمْ يُشْبِهُونَ الْحَبَّالِينَ فِي مَشْيِهِمُ الْقَهْقَرَى وَبُشْبُهُونَ فِي تَحْرِيكِهِمُ السُّفْنَ مَنْ يَجْدُبُ ثِقَلَايِنَ بَدَنِهِ وَيَمْشِي بِهِ إِلَى خَلْفِهِ . وَأَمَّا مَلَّاحُوا الْعِرَاقِ قَوْمٌ يَمْنَزِلُهُ مَنْ يَذْفَعُ الثِّقْلَ نَحْوَ أَمَامِهِ وَيَدْسُرُهُ فُسْفَنُهُمْ تَتَوَجَّهُ حَيْثُ الْمَلَّاحُ مُتَّجِهٌ . وَأَمَّا سُفْنُ مِصْرَ قَبِي تَتَحَرَّكُ إِلَى ضِدِّ الْجِهَةِ الَّتِي إِلَيْهَا الْمَلَّاحُ مُتَوَجِّهٌ . وَأَمَّا أَيُّ الْحَبَّالَيْنِ أَسْهَلُ وَالْبُرْهَانُ عَلَيْهَا فَمَوْضِعُهُ الْعِلْمُ الطَّبِيعِيُّ وَعِلْمُ تَحْرِيكِ الْأَنْتَالِ

الْمَقَالَةُ الثَّانِيَّةُ

فِي النَّيْلِ وَكَيْفِيَّةِ رِيَادَتِهِ

وَإِعْطَاءِ عَمَلِي ذَلِكَ وَقَوَائِينِهِ

لَعَلَّمْنَا أَنَّ نَيْلَ مِصْرَ يَبْدُو وَقْتُ نُضُوبِ مِيَاهِ الْأَرْضِ وَذَلِكَ فِي شَمْسِ
السَّرَطَانِ وَالْأَسَدِ وَالسَّنْبَلَةِ فَيَعْلُو عَلَى الْأَرْضِ وَيُفِيمُ آبَاءًا فَإِذَا نَزَلَ عَنْهَا
حُرِّثَتْ وَزُرِعَتْ ثُمَّ يَكْثُرُ النَّدَا فِي اللَّيْلِ جِدَا وَيَبْتَغِذِي الزَّرْعُ إِلَى أَنْ
يُسْتَحْصَدَ وَنَهَابَةُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْحَاجَةُ مِنَ الزِّيَادَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعًا
فَإِنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرَوَّى أَمْكَنَةً مُسْتَعِيلَةً وَكَأَنَّهُ نَافِلَةٌ عَلَى جِهَةِ
النَّبْرُوعِ وَنَهَابَةُ مَا يَزِيدُ عَلَى جِهَةِ النَّذْرَةِ أَصَابِعُ مِنْ عِشْرِينَ ذِرَاعًا
وَعِنْدَ ذَلِكَ تَسْتَجِرُّ أَمْكَنَةً يَدُومُ مَكْتُ الْمَاءِ عَلَيْهَا فَتَنْوُثُ زُرَاعَتَهَا
وَيُورُونَ مِنَ الْيَلَادِ مَا عَادَتْهُ أَنْ يُزْرَعَ نَحْوِيًّا (نَحْوَمَا) رَوِيَّ مَا عَادَتْهُ
أَنْ بُشْرِقَ وَلَسَمَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ نَهَابَةَ الضَّرُورِيِّ وَلَسَمَ الْعِشْرِينَ نَهَابَةَ
الْإِفْرَاطِ وَكُلُّ نَهَابَةٍ بَيْنَ هَاتَيْنِ فَلَهَا أَتَدَاةٌ بِقَائِلِهَا فَأَبْتَدَى الضَّرُورِيُّ
سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَيُسَمَّى مَاءُ السُّلْطَانِ إِذْ عِنْدَهُ يُسْتَحَقُّ الْخِرَاجُ وَيُرَوَّى
بِهِ نَحْوُ نِصْفِ الْيَلَادِ وَبُغْلٌ مِنَ الْقَوْتِ يَمْتَدَارُ مَا بَيْنَهُ أَهْلَ الْيَلَادِ
سَنَتَهُمْ جَمَاعَةً تَوْسَعُ وَيُرَوَّى سَائِرُ الْيَلَادِ الْمُعْتَادَةِ بِالرِّيِّ بِمَا زَادَ عَلَى
سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا إِلَى ثَمَانِي عَشْرَةَ وَهَذَا بُغْلٌ مِقْدَارُ مَا يَهْبِرُ أَهْلَ الْيَلَادِ
سَنَتَيْنِ فَصَاعِدًا. وَأَمَّا مَا نَقَصَ عَنْ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَيُرَوَّى بِهِ مَا هُوَ
دُونَ الْكِفَايَةِ وَلَا تَحْصُلُ مِنْهُ بَيْنَ سَنَتَيْهِمْ وَيَكُونُ تَعْدُرُ الْقَوْتِ يَمْتَدَارُ
نَقْصَانِهِ عَنْ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَحِينَئِذٍ يُقَالُ إِنَّ الْيَلَادَ قَدْ شَرِقَتْ

وَأَتَّفَقَ أَنَّ زِيَادَةَ اللَّيْلِ بَلَغَتْ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ وَخَمْسٍ مِائَةٍ
 ائْتِنِّي عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَاحِدَى وَعِشْرِينَ أَصْبَعًا. وَهَذَا الْبَقْدَارُ نَادِرٌ جَدًّا
 فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْنَا مُذْ الْيَوْمِ إِلَى الْآنَ أَنَّ اللَّيْلَ وَقَفَ عَلَى هَذَا الْخُدُّ قَطُّ إِلَّا
 فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِينَ فَإِنَّهُ وَقَفَ عَلَى دُونَ هَذَا الْبَقْدَارِ
 بِأَرْبَعِ أَصَابِعَ. وَأَمَّا وَقُوفُهُ عَلَى ثَلَاثِ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَأَصَابِعَ فَإِنَّهُ وَقَعَ نَحْوَ
 سِتِّ مَرَّاتٍ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ. وَأَمَّا أَرْبَعُ عَشْرَةَ ذِرَاعًا وَأَصَابِعَ فَإِنَّهُ
 وَقَعَ نَحْوَ عِشْرِينَ مَرَّةً. وَأَمَّا خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا
 وَنَحْنُ نَسُوقُ أَحْوَالَ زِيَادَتِهِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَغْنِي سَنَةَ سِتٍّ وَتِسْعِينَ
 وَخَمْسٍ مِائَةٍ ثُمَّ تَتَّبِعُ ذَلِكَ بِهَا حَصَلَ عِنْدَنَا مِنْ عِلَلِ ذَلِكَ وَقَوَائِدهِ
 فَنَقُولُ إِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةً أَنْ تَبْدُئَ الزِّيَادَةَ مِنْ أَيْبٍ وَتَعْظُمَ فِي مِيسَرَى
 وَتَنَاقِصَ فِي ثَوْتِ أَوْبَابَةٍ ثُمَّ يَنْحَطُّ. فَدَخَلَ أَيْبٌ فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَابْتَدَأَ
 اللَّيْلُ يَتَحَرَّكُ بِالزِّيَادَةِ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يَخُوشِ شَرْهَ قَدْ بَدَتْ فِي مَائِهِ
 خُضْرَةٌ سَلْقِيَّةٌ ثُمَّ كَثُرَتْ وَظَهَرَتْ فِي رَأْسِهِ دَفْنٌ كَرِيهَةٌ وَعَفْوَةٌ طَلْقِيَّةٌ
 كَأَنَّهُ عَصَارَةُ السِّلْقِ إِذَا بَقِيَ أَيْامًا حَتَّى يَمُوتَ وَجَعَلَتْ مِنْهُ فِي وَعَاءٍ ضَيْقِ
 الرَّأْسِ فَعَلَاهُ سَحَابَةٌ خَضْرَاءَ قَرَقَعْنَهَا يَرْفُقُ وَتَرَكْنَهَا تَجِفُّ وَإِذَا بِهَا
 طَلَبٌ لَا شَكَّ فِيهِ وَيَتَنَّى الْمَاءُ بَعْدَ رَفْعِ هَذِهِ السَّحَابَةِ عَنْهُ صَافِيًا لَا خُضْرَةَ
 فِيهِ إِلَّا أَنَّ طَعْمَهُ وَرِيحَهُ بَاقِيَانِ وَنَجِدُ فِيهِ أَيْضًا أَجْسَامًا صِغَارًا نَبَاتِيَّةً
 مَبْنُوتَةً كَالْهَبَاءِ لَا تَرُسُّ. وَصَارَ أَرْبَابُ الْحَمِيَةِ يَجْتَنِبُونَ شَرِبَهُ وَإِنَّمَا
 يَشْرَبُونَ مَاءَ الْأَبَارِ وَأَغْلَبَتْهُ بِالنَّارِ ظَنَانِي أَنَّهُ يَصْلُحُ بِذَلِكَ كَمَا وَصَّى
 الْأَطِبَّاءُ بِفَعْلِ بِالْيَبَاءِ الْمَتَغَيَّرِ فَزَادَ طَعْمُهُ وَرِيحُهُ كَرَاهَةً وَسَهَكًا

فَوَجَدْتُ عِلَّةَ ذَلِكَ أَنَّ الْأَجْزَاءَ النَّبَاتِيَّةَ الَّتِي هِيَ مَبْنُوءَةٌ فِيهِ بِلَطْفِ
الطَّبِيعِ جَوْهَرَهَا فَتَجَلَّطَ بِالْمَاءِ اخْتِلَاطًا أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ فَيُظْهِرُ التَّغْيِيرَ
(التَّغْيِيرُ) فِي رِيحِهِ وَطَعْمِهِ أَكْثَرَ وَيَصِيرُ ذَلِكَ بِمِثْلَةِ الْمَاءِ إِذَا طُبِخَ فِيهِ
سِلْقٌ أَوْ فُجِّلَ أَوْ نَحْوُهُ فَإِنَّ النَّارَ تَمْزِجُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطَّبِيعِ النَّبَاتِ . وَأَمَّا
الْمَاءُ الَّذِي يَفْطَحُ بِالطَّبِيعِ وَإِيَّاهُ قَصْدُ الْأَطِبَّاءِ فَهُوَ الَّذِي تَغْيِيرُهُ بِغَالِطَةِ
أَجْزَاءِ أَرْضِيَّةٍ فَإِنَّهَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ بِالطَّبِيعِ لِأَنَّ الْمَاءَ حِينَئِذٍ يَلْطَفُ فَتَرْسُبُ
فِيهِ

ثُمَّ إِنَّهُ دَامَتْ خُضْرَتُهُ أَبَامًا مِنْ رَجَبٍ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ وَأَضْحَكَتْ
فِي شَوَّالٍ وَكَانَ يَضْمُ الْخُضْرَ دُودًا وَحَيَوَانَاتٍ أَجَبِيَّةٌ وَهَذَا التَّغْيِيرُ فِي
الْمَاءِ يَكُونُ بِالصَّعِيدِ أَكْثَرَ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْمُبْدَأِ وَالْعَدِيدِ وَأَنْتَهَتْ زِيَادَتُهُ
فِي الْخَمَادِي عَشْرِينَ ثَوْبًا إِلَى أَثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعًا وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ
لِصَبَا ثُمَّ انْخَطَّ

فَرَأَيْتُ الْغَالِبَ مِنْ حَالِ الْقَاعِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ أَقَلُّ مِنَ الْمُعْتَادِ أَنَّ
الزِّيَادَةَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَكُونُ أَقَلُّ مِنَ الْمُعْتَادِ هَذَا حُكْمُهُ الْأَكْثَرِيُّ
فَإِنَّ أَتَتْ الْخُضْرُ فِي أَوَّلِ زِيَادَتِهِ وَقِيلَ لَهَا قَوِيَّ الظَّنُّ يَضْعَفُ جَرِيءُ
فَإِنْ طَالَتْ أَبَامُ الْخُضْرِ وَضَعُفَ مِقْدَارُ الزِّيَادَةِ قَوِيَّ الظَّنُّ جِدًّا يَفْلُجُهُ
فَإِنْ دَامَتْ الْخُضْرُ فِي أَيْسَبَ قَادَرٍ يَفْلُهُ الْمَدُّ

وَعِلَّلُ هَذَا ظَاهِرٌ أَمَّا كَوْنُ فَلِهِ الْقَاعِ دَلِيلًا عَلَى فَلِهِ الزِّيَادَةِ فَلِأَنَّ
الْأَطْرَ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ الزِّيَادَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنَ الْكَثَرَةِ مَا يَرُدُّ الْقَاعَ
إِلَى الْحَالَةِ الْمُعْتَادَةِ ثُمَّ يَرِيدُ عَلَيْهَا الزِّيَادَةَ الْمُعْتَادَةَ وَهِيَ كَثْرَةٌ لَا تَغِيْبُ

بِهَا أَمْطَارٌ كُلُّ سَنَةٍ وَلَا تُوجَدُ كُلُّ وَفْتٍ مِثَالُهُ أَنَّ الْقَاعَ إِذَا كَانَ ذِرَاعًا
مَثَلًا فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا حَتَّى يَبْلُغَ مَاءَ السُّلْطَانِ
فَإِنْ كَانَ الْقَاعُ سِتِّ أَذْرُعٍ أَحْتَاجَ مِنَ الزِّيَادَةِ إِلَى عَشْرِ أَذْرُعٍ وَكَوْنُ
هَذَا أَيْسَرُ مِنَ الْأَوَّلِ . وَأَيْضًا فَإِنْ جَرِيَةُ النِّيلِ الْأَصْلِيَّةُ مَا دُمَّتْهَا عُيُونُ .
وَأَمَّا زِيَادَتُهُ فَأَدَّتْهَا أَمْطَارٌ وَتَقْصَاتُ الْعُيُونِ دَلِيلٌ عَلَى اخْتِرَاقِ السَّنَةِ
وَبَسِّ الْهَوَاءِ وَفِيهِ الْبَخَارُ فَيَقِلُّ الْمَطَرُ لِذَلِكَ وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَدَّ الزَّائِدَ عَلَى
الْقَاعِ أَكْثَرُهُ فِي الْغَالِبِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَإِذَا كَانَ الْقَاعُ ذِرَاعًا أَوْ
ذِرَاعَيْنِ . ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمَدِّ وَهُوَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا لَمْ يَلْحَقْ مَاءَ
السُّلْطَانِ

وَأَمَّا كَوْنُ الْخُضْرِ دَلِيلًا عَلَى فَلَهِ الزِّيَادَةُ فَلِأَنَّ النِّيلَ الْمَاضِيَ يُغَادِرُ
نَفَائِعَ وَغُذْرَانَا بَعْضُهَا يَنْضُبُ وَبَعْضُهَا يُطْحَلِبُ وَيَعْطَنُ وَيَأْسِرُ فَإِذَا
مَرَّتْ بِهَا أَمْطَارٌ ضَعِيفَةٌ أَخْثَلَطَتْ بِهَا وَصَبَّتْهَا إِلَى النِّيلِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا
مِنَ الْكَثَرِ مَا يَغْلِبُ عَلَى النِّفَائِعِ فَيُضْلِحُهَا بَلِ النِّفَائِعُ تَغْلِبُ عَلَى الْأَمْطَارِ
الْمُنْصَلَةِ بِهَا فَتَعْمَلُهَا إِلَى الْفَسَادِ وَتَخْطُ مِنْهَا بِقَدَارٍ بَعْدَ مِقْدَارٍ وَيَتَوَاصَلُ
إِلَيْنَا وَكُلُّمَا كَانَتْ الْأَمْطَارُ أَوْضَعَتْ وَأَقَلَّ كَانَتْ أَيَّامُ جَرِيَةِ الْخُضْرِ
أَطْوَلَ فَإِذَا كَانَتْ أَمْطَارٌ قَوِيَّةٌ غَسَلَتْ تِلْكَ الْمُسْتَنْفَعَاتِ وَغَلَبَتْ عَلَيْهَا
وَحَدَرَتْهَا بِسُرْعَةٍ مَغْمُورَةٍ بِطِينٍ تُجْرِفُهُ يَقْوَمُهَا فَيَخْفَى مَنْظَرُهَا وَيَتَعَفَّى
إِنْزَامُهَا . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْأَنْهَارَ الْخَارِجَةَ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ تَجْتَمِعُ بِأَخْرِقٍ إِلَى
بِرْكَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ مِسَاحَةٍ فَيَسِيحُ مِنْ هَذِهِ الْبِرْكَةِ تَخْرُجُ هَذَا النِّيلُ وَلَا
شَكَّ أَنَّ غِيَةَ الْبِرْكَةِ مَا وَهَذَا دَائِمٌ فَيَطْحَلِبُ وَلَا سِيَمًا مُطَوِّطًا وَضَحًا ضَمِيمًا

فَإِذَا وَفَعَ الْوَسْبِيُّ وَجَرَى إِلَيْهَا سُبُولُهُ أَفَارَتْ مَا فِي قَعْرِهَا وَحَرَّكَتْ مَا كَانَ
سَاكِناً فِيهَا وَانْتَمَحَ أَيْضاً مَا فِي الشُّطُوطِ إِلَى الْأَوْسَاطِ وَانْتَسَبَ إِلَى الْإِجْرِيَّةِ
فَاسْتَضَجَّتْهُ

وَمَا كَوْنُ الْخُضْرُغِ فِي أَيْبٍ دَلِيلٌ عَلَى النُّقْصَانِ فَلِأَنَّ أَيْبَ مَطْنَةَ
الزِّيَادَةِ وَغَلْبَةِ الْمَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَوْشَابِ فَإِذَا بَقِيَ عَلَى خُضْرَتِهِ إِبَانٌ زِيَادَتِهِ
أَدْنُ يَفْلَتِهِ. وَهَذِهِ الْأَجْزَاءُ النَّبَاتِيَّةُ الَّتِي تَصْهَبُ الْمَاءَ إِذَا فِي حُطَامِ النَّبَاتِ
الْمُنْكُونِ فِي الْمَاءِ وَحَوْلَهُ كَالْبَرْدِيِّ وَالْدِّيسِ وَالسَّهَارِ وَالطَّحْلِبِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ فَتَتَعَنُّ فِيهِ وَتَتَصَغَّرُ أَجْزَاؤُهَا وَتَنْبَعُ مَعَهُ. وَمَا يُوجِبُ أَنْبِعَانَهَا
أَيْضاً نُّقْصَانُ الْمَاءِ مِنْ تِلْكَ الْبِرْكََةِ فَإِنْ مَاتَهَا إِذَا اتَّصَلَتْ الْإِجْرِيَّةُ بِقَعْرِهَا
فَاسْتَحَبَّ كَدَرُهَا وَرَأْسُهَا وَإِذَا كَانَتْ غَمراً كَانَتْ الْإِجْرِيَّةُ مِنْ أَعْلَاهَا
وَصَفْوَاهَا فَاعْرِفْ ذَلِكَ وَلِهَذَا لَا تَأْتِي هَذِهِ الْخُضْرُغُ إِلَّا فِي السَّنَةِ الَّتِي يَحْتَرِقُ
فِيهَا النَّيْلُ وَكُلَّمَا كَانَ أَحْتِرَاقُهُ أَشَدَّ كَانَ ظُهُورُ الْخُضْرُغِ أَكْثَرَ. وَفِي السَّنَةِ
الَّتِي يَكُونُ نَيْلُهَا غَمراً لَا يَحْتَرِقُ وَلَا تُرَى الْخُضْرُغُ لِأَنَّ كَثَرَتَهُ لِيَكْتَرِفَ
مَبْدَأُهَا وَلَا يَتَقَاعُ جَرَّتُهَا عَنْ مَقَرِّ كُدُورَتِهَا

انتهى المفعول

من كتاب الامادة والاعتبار في الامور المشاعنة بارض مصر

لاني اللطيف

مِنْ مُخْتَصِرِ النَّظَارِ

فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَغَجَائِبِ الْأَسْفَارِ

لِابْنِ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْكَلَابِيِّ

الْمَعْرُوفِ بِابْنِ بَطْوَلَةَ

وَصَلَّانا فِي أَوَّلِ جَادِي الْأَوَّلَى إِلَى مَدِينَةِ الإسْكَدَرِيَّةِ حَرَسَهَا اللَّهُ وَهِيَ
الشَّغْرُ الْخَرُوسُ. وَالْفَطْرُ الْمَأْنُوسُ. الْعَجِيْبَةُ الشَّانُ. الْأَصِيلَةُ الْبُنْيَانُ. بِهَا
مَا شِئْتَ مِنْ تَحْصِينٍ وَتَحْصِينَ. وَمَأْتِرِ دُنْيَا وَدِينٍ. كَرُمْتَ مَغَانِيهَا.
وَلَطَفْتَ مَعَانِيهَا. وَجَعْتَ بَيْنَ الضَّخَامَةِ وَالْإِحْكَامِ مَبَانِيهَا. فِيهِ الْقَرِيْبَةُ
تَجَلَّى سَنَاها. وَالْخَرِيْبَةُ تَجَلَّى فِي حُلَاهَا. الزَّاهِيَةُ بِمَحَالِهَا الْمَغْرِبُ. الْجَمَاعَةُ
لِإِمْتِدَادِ الْعَاصِمِينَ لِيَوْسُطِهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ. فَكُلُّ بَدِيعَةٍ بِهَا
أَجْنَالُهَا. وَكُلُّ طَرَفَةٍ فَإِلَيْهَا أَنْتَاهُهَا. وَقَدْ وَصَفَهَا النَّاسُ فَأَطْنَبُوا.
وَصَنَفُوا فِي عَجَائِبِهَا فَأَغْرَبُوا. وَحَسَبُ الْمُشْرِفِ إِلَى ذَلِكَ مَا سَطَعَ أَبُو
عَيْنٍ فِي كِتَابِ الْمَسَالِكِ

ذَكَرَ أَبْوَابَهَا وَمَرَسَاها. وَلَمَدِينَةَ الإسْكَدَرِيَّةِ أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ. بَابُ السِّدْرَةِ
وَالْبَابُ الْبُشْرِيُّ الْمَغْرِبُ. وَبَابُ رَشِيدٍ وَبَابُ الْبَحْرِ وَالْبَابُ الْأَخْضَرُ
وَلَيْسَ يَنْفَعُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيَخْرُجُ النَّاسُ مِنْهُ إِلَى زِيَارَةِ الْقُبُورِ. وَلَهَا
الْمَرْسَى الْعَظِيمُ الشَّانُ وَلَمْ أَرِ فِي مَرَامِي الدُّنْيَا مِثْلَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرَسَى
كُومٍ وَقَالِيقُوطٍ بِبِلَادِ الْهِنْدِ. وَمَرَسَى سُودَاقٍ بِبِلَادِ الْأَنْتَارِكِ وَمَرَسَى
الزَّيْتُونِ بِبِلَادِ الصِّينِ وَسَبَقَ ذِكْرُهَا

ذَكَرَ الْأَنْتَارِ. فَصَدْتُ الْمَنَارِ فِي هَذِهِ الْوِجْهَةِ فَرَأَيْتُ أَحَدَ جَوَائِزِ

مَنْهَدِمًا وَصَفَتْهُ أَنَّهُ بِنَاءٌ مُرَبَّعٌ ذَاهِبٌ فِي الْهَوَاءِ وَبَابُهُ مُرْتَفِعٌ عَلَى الْأَرْضِ .
 وَازْدَاةً بِبَابِهِ يَنْدَرُ ارْتِفَاعُهُ وَضَعَتْ بَيْنَهُمَا أُلُوحًا خَشَبٌ يُعْبَرُ عَلَيْهِمَا إِلَى
 بَابِهِ . فَإِذَا أَرَيْلَتْ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ . وَدَاخِلَ الْبَابِ مَوْضِعٌ لِحُلُوسِ
 حَارِسِ الْمَنَارِ . وَدَاخِلَ الْمَنَارِ ثُبُوتٌ كَثِيرَةٌ . وَعَرْضُ الْمَرْبِ بِدَاخِلِهِ
 نِسْعَةُ أَشْبَارٍ . وَعَرْضُ الْحَائِطِ عَشْرَةُ أَشْبَارٍ . وَعَرْضُ الْمَنَارِ مِنْ كُلِّ
 جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ الْأَرْبَعِ مِائَةٌ وَلِذَبْعُونَ شِبْرًا . وَهُوَ عَلَى تَلٍّ مُرْتَفِعٍ .
 وَمَسَافَةٌ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ فَرْسَخٌ وَاحِدٌ فِي بَرٍّ مُسْتَبِيلٍ يُحِيطُ بِهِ الْبَحْرُ
 مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ الْبَحْرُ بِسُورِ الْبَلَدِ فَلَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ
 إِلَى الْمَنَارَةِ فِي الْبَرِّ إِلَّا مِنَ الْمَدِينَةِ . وَفِي هَذَا الْبَرِّ التَّنَصُّلُ بِالْمَنَارِ
 مَقْبَرَةٌ لِلْإِسْكَندَرِيَّةِ . وَقَصْدَتْ الْمَنَارَ عِنْدَ عَوْدِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ
 عَامَ خَمْسِينَ وَسَبْعِينَ فَوَجَدَتْهُ قَدْ اسْتَوَى عَلَيْهِ الْخَرَابُ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ
 دُخُولُهُ وَلَا الصُّعُودُ إِلَى بَابِهِ . وَكَانَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ شَرَعَ
 فِي بِنَاءِ مَنَارٍ مِثْلِهِ بِإِزَائِهِ عَاقَهُ الْمَوْتُ عَنْ إِمْتَامِهِ

ذِكْرُ عُمُودِ السَّوَارِي . وَمِنْ غَرَائِبِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ عُمُودُ الرُّخَامِ الْهَائِلُ
 الَّذِي يُخَارِجُهَا الْمَسْمَى عِنْدَهُمْ بِعُمُودِ السَّوَارِي وَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي غَايَةِ
 تَحُلٍ . وَقَدْ أَمْتَا عَنْ شَجَرَاتِهَا سُمُومًا وَارْتِفَاعًا . وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مُحْكَمَةٌ
 اللَّحْثِ قَدْ أَقِيمَ عَلَى قَوَاعِدِ حِجَارَةٍ مُرَبَّعَةٍ أَمْثَالِ الذُّكَاكِينِ الْعَظِيمَةِ وَلَا
 نَعْرِفُ كَيْفِيَّةَ وَضْعِهِ هُنَاكَ وَلَا يَحْتَقِقُ مَنْ وَضَعَهُ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ :
 أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَشْبَاحِ الرُّحَالِ أَنَّ أَحَدَ الرُّمَافِ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ صَعِدَ إِلَى
 أَعْلَى ذَلِكَ الْعُمُودِ وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَكَانَتْهُ وَاسْتَفَرَّ هُنَاكَ وَشَاعَ خَبَرُهُ .

فَاجْتَمَعَ الْجَمْعُ الْقَلِيلُ لِمُشَاهَدَتِهِ وَطَالَ الْعَجَبُ مِنْهُ وَخَفِيَ عَلَى النَّاسِ
وَجْهَهُ أَحْيَايَالِهِ وَأَطْنَهُ كَانَ خَائِفًا أَوْ طَالِبَ حَاجَةٍ. فَاتَّجَعَ لَهُ فِعْلُهُ الْوُصُولُ
إِلَى قَصْدِهِ لِعَرَايَةِ مَا آتَى بِهِ. وَكُنِيَ أَحْيَايَالِهِ فِي صُورِهِ أَنَّهُ رَمَى بِنَشَابَةٍ
قَدْ عَقَدَ يَنْفُوسَهَا خِطًا طَوِيلًا. وَعِنْدَ يَطْرِفِ الْخِطِ حَبَلًا وَثِيقًا فَتَجَاوَزَتْ
النَّشَابَةُ أَعْلَى الْعَمُودِ مُعْرِضَةً عَلَيْهِ. وَوَقَعَتْ مِنَ الْجِهَةِ الْمُوَارِيَةِ لِلرَّامِي
فَصَارَ الْخِطُّ مُعْرِضًا عَلَى أَعْلَى الْعَمُودِ فَجَذَبَهُ حَتَّى تَوَسَّطَ الْحَبْلُ عَلَى
الْعَمُودِ مَكَانَ الْخِطِّ فَأَوْتِنَتْهُ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَتَعَلَّقَ بِهِ
صَاعِدًا مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى وَاسْتَفْرَّ بِأَعْلَاهُ وَجَذَبَ وَاسْتَنْصَبَ مَنْ
أَحْمَلَهُ. فَلَمْ يَهْتَدِ النَّاسُ لِحِيلِهِ وَتَحَبُّوْا مِنْ شَأْنِهِ

ثُمَّ سَافَرْتُ فِي أَرْضِ رَمْلَةٍ إِلَى مَدِينَةِ دِمَاطَ. وَهِيَ مَدِينَةٌ قَسِيمَةٌ
الْأَقْطَارِ. مُتَوَرِّعَةُ النِّهَارِ. عَجِيبَةُ التَّرْتِيبِ. أَخَذْتُ مِنْ كُلِّ حُسْبٍ
بِنَصِيبٍ. وَالنَّاسُ يَضِطُّونَ أَسْمَاءَ بِيَاعْجَامِ الدَّالِ. وَكَذَلِكَ ضَبَطَهُ الْإِمَامُ
أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ الرَّشَاطِيُّ. وَكَانَ شَرَفُ الدِّينِ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ
أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ ابْنُ خَلْفِ الدِّمَاطِيِّ إِمَامُ الْمُتَحَدِّثِينَ بِضَبْطِهَا
بِأَهَالِ الدَّالِ وَتَبِيعَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَقُولُ خِلَافَ الرَّشَاطِيِّ وَغَيْرِهِ وَهُوَ
أَعْرَفُ بِضَبْطِ أَسْمَاءِ بَلَدِهِ. وَمَدِينَةُ دِمَاطَ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ وَأَهْلُ الدَّوَرِ
الْمُوَالِيَةِ لَهُ يَسْتَفُونَ مِنْهُ الْهَاءَ بِالْأَلِفِ. وَكَثِيرٌ مِنْ دَوَرِهَا بِهَا دَرَكَاتٌ
يُنْتَلِ فِيهَا إِلَى النَّيْلِ. وَشَجَرُ الْمُوَرِّ بِهَا كَثِيرٌ يُحْمَلُ ثَمَرُهُ إِلَى مِصْرَ فِي
الْمَرَكَبِ وَغَنَمُهَا سَائِمَةٌ هَمَلًا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَلِهَذَا يُقَالُ فِي دِمَاطَ
سُورُهَا حُلُومٌ وَكَلَابُهَا غَنَمٌ. وَإِذَا دَخَلَهَا أَحَدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى الْخُرُوجِ.

عَنْهَا إِلَّا بِطَائِعِ الرَّايِ . فَمَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ مُعْتَبَرًا طُبِعَ لَهُ فِي قِطْعَةٍ
كَاغِدٍ يَسْتَظْهِرُ بِهِ لِحْرَاسِ بَابِهَا وَغَيْرُهُمْ يُطْبَعُ عَلَى ذِرَاعِهِ فَيَسْتَظْهِرُ بِهِ .
وَالطَّبْرُ الْبَحْرِيُّ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ كَبِيرٌ مُتَنَاهِي السَّمَنِ وَبِهَا الْأَلْبَانُ الْجَمُوسِيَّةُ
الَّتِي لَا مِثِيلَ لَهَا فِي عُدُوتِ الطَّعْمِ وَطِيبِ الْمَذَاقِ وَبِهَا الْحُوتُ الْبُورِيُّ
يُحْمَلُ مِنْهَا إِلَى الشَّامِ وَبِلَادِ الرُّومِ وَمِصْرَ . وَبِخَارِجِهَا جَزِيرَةٌ بَيْنَ الْبَحْرِ
وَالنَّيْلِ تُسَمَّى الْبَرْزَخُ بِهَا مَجْدٌ وَزَاوِيَةٌ لَقِيتُ بِهَا شَجَرًا مَعْرُوفًا بِأَبْنِ
فُلٍ . وَحَضَرْتُ عَنْكَ لَيْلَةً جُمُعَةٍ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُرَّاءِ الْفَضْلَاءِ
الْمُعْتَبَرِينَ الْأَخْبَارِ قَطَعُوا إِلَيْهِمْ صَلَوةً وَفَرَاةً وَذِكْرًا . وَدُمِيطُ هَذِهِ
حَدِيثَةُ الْبِنَاءِ وَالْمَدِينَةُ الْقَدِيمَةُ هِيَ الَّتِي خَرَبَهَا الْأَفَرَنْجُ عَلَى عَهْدِ الْمَلِكِ
صَالِحٍ وَبِهَا زَاوِيَةُ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ السَّائِي قُدُوةُ الطَّائِفَةِ الْمَعْرُوفَةِ
بِالْقُرْلَنْدَرِيَّةِ وَهُمْ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ لِحَاظَهُمْ وَحَوَاجَتَهُمْ وَيَسْكُنُ الزَّوَاوِيَةَ فِي
هَذَا الْعَهْدِ الشَّيْخُ فَتَحَ التَّكْرُورِيَّ

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ كُورُو وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى سَاحِلِ النَّيْلِ وَالْكَافُ
الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا مَضْمُومٌ وَنَزَلْتُ بِخَارِجِهَا وَلَحِقَنِي هُنَاكَ فَارِسٌ وَجْهَهُ
إِلَى الْأَمِيرِ الْخُصِينِيِّ فَقَالَ لِي إِنَّ الْأَمِيرَ سَأَلَ عَنْكَ وَعَرَفَ بِسِيرَتِكَ
فَبَعَثَ إِلَيْكَ بِهَذِهِ السَّفِينَةِ وَدَفَعَ إِلَيَّ جُمْلَةَ دَرَاهِمِ جَزَاةِ اللَّهِ خَيْرًا

ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ أَسْمُونِ الرُّمَانِ وَضَبَطْتُ أَسْمَاهَا بِفَتْحِ الْمِيمِ وَاسْكُنَ
السُّيُنِ الْمَعْجَمَةِ وَنُسِبَتْ إِلَى الرُّمَانِ لِكَثْرَتِهَا وَمِنْهَا يُحْمَلُ إِلَى مِصْرَ .
وَهِيَ مَدِينَةٌ عَنِيْقَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى خَلِيجٍ مِنْ حُلُجِ النَّيْلِ وَبِهَا قِطْعَةٌ خَشَبٍ
تَرَسُّو الْمَرَاكِبُ عِنْدَهَا فَإِذَا كَانَ الْعَصْرُ رُفِعَتْ تِلْكَ الْحَشَبُ وَجَارَتْ

الرَّكِبُ صَاعِدَةً وَمُنْعِدَةً وَهَذِهِ الْبَلَدُ قَاضِي الْقَضَاءِ وَإِلَى الْوَلَاةِ . ثُمَّ
سَافَرَتْ عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ سَمُرَدَ وَحَبَّ عَلَى شَاطِئِ الْبَيْلِ كَثِيرُ الرَّاكِبِ
حَسَنَةُ الْأَسْوَاقِ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحُلَّةِ الْكَبِيرَةِ ثَلَاثَةُ فَرَاسِخَ وَضَبَطُ اسْمِهَا
يَفْعُ السَّيْنِ الْمَهْمَلِ وَالْيَمِ وَتَشْدِيدُ النُّونِ وَضَمُّهَا وَوَادٍ وَدَالٍ مُهْمَلٍ
مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَكِبْتُ الْبَيْلَ مُصْعِدًا إِلَى مِصْرَ مَا بَيْنَ مَدَائِنَ وَقُرَى
مُنْتَظِمَةً مُنْصِلٍ بَعْضُهَا يَبْعُضٍ وَلَا يَفْتَقِرُ رَّاكِبُ الْبَيْلِ إِلَى اسْتِصْحَابِ
الزَّادِ لِأَنَّهُمَا أَرَادَا النُّزُولَ بِالشَّاطِئِ نَزَلَ لِلْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ وَشَرَاءِ
الزَّادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَالْأَسْوَاقُ مُنْصِلَةٌ مِنْ مَدِينَةِ الْأَسْكَندَرِيَّةِ إِلَى مِصْرَ
وَمِنْ مِصْرَ إِلَى مَدِينَةِ أَسْوَانَ مِنْ الصَّعِيدِ . ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى مِصْرَ فِي أُمَّ
الْبِلَادِ وَقَرَارَةُ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . ذَاتُ الْأَقَالِمِ الْعَرَبِيَّةِ . وَالْبِلَادِ
الْأَرَبِيَّةِ . الْمُتَنَاهِيَّةُ فِي كَثَرَةِ الْعَارَةِ . الْمُتَنَاهِيَّةُ بِالْحُسْنِ وَالنَّصَارَةِ . مَجْمَعُ
الْوَارِدِ وَالصَّادِرِ . وَمَحَطُّ رَحْلِ الضَّعِيفِ وَالْقَادِرِ . وَبِهَا مَا شِئْتَ مِنْ
عَالِمٍ وَجَاهِلٍ . وَجَادٍ وَهَازِلٍ . وَحَكِيمٍ وَسَفِيهِ . وَوَضِيعٍ وَنَبِيهِ . وَشَرِيفٍ
وَمَشْرُوفٍ . وَمُنْكَرٍ وَمَعْرُوفٍ . تَهْجُ مَوْجَ الْبَحْرِ بِسُكَّانِهَا . وَتَكَادُ أَنْ تُضِيقَ
عَيْنُ عَلَى سَعَةِ مَكَانِهَا وَإِمَّاكَانِهَا . شَبَابُهَا يَحْدُ عَلَى طُولِ الْعَهْدِ . وَكَوْكَبُ
تَعْدِيلِهَا لَا يَبْرُحُ عَنْ مَنَازِلِ السَّعْدِ . قَهْرَتْ قَاهِرَتُهَا الْأُمَمَ . وَتَمَلَّكَتْ
مُلُوكُهَا نَوَاحِي الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَمَا خُصُوصَةُ الْبَيْلِ الَّتِي جَلَّ خَطَرُهَا .
وَأَغْنَاهَا عَنْ أَنْ يَسْتَبْدَ الْقَطَرُ فُطْرَهَا . وَلَرُضَاهَا مَسِيرَةُ شَهْرِ يُحْدِ السَّيْرِ .
وَفِيهَا يَقُولُ نَاصِرُ الدِّينِ بْنِ نَاهِي

شَاطِئُ مِصْرَ جَنَّةٌ مَا مِثْلُهَا مِنْ بَلَدٍ

لَا سِيَّامًا مَذْرُورَةً يَبْلِيهَا الْمَطَرُ
وَاللِّبَاحُ فَوْقَهُ سَوَابِغٌ مِنْ زَرْدٍ
مَسْرُودَةٌ مَا مَسَّهَا دَاوُدُهَا يَبْدُو
سَائِلَةٌ هَوَاؤُهَا يُرْعِدُ عَارِي الْجَسَدِ
وَالْفُلُكُ كَالْأَفْلَاقِ بَيْنَ حَادِرٍ وَمُضَعَدٍ

رَجَعَ وَقَالَ إِنَّ بِمَصْرَ مِنَ السَّنَائِينَ عَلَى الْجَمَالِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ سَنَاءٍ
قَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ مَكَارٍ. وَلَنْ يَبْلِيَهَا مِنَ الْمَرَائِبِ سِتَّةٌ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا
لِلسُّلْطَانِ وَالرَّعِيَّةِ تَمْرٌ صَاعِدَةٌ إِلَى الصَّعِيدِ وَمُنْجِدَةٌ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ
وَدِمْبَاطُ بِأَنْوَاعِ الْخَبَرَاتِ وَالْمَرَافِقِ. وَعَلَى ضَفَةِ النَّبْلِ مَا بَوَاجِهِ يَصْرُ
الْمَوْضِعُ الْمَعْرُوفُ بِالرَّوَضَةِ وَهُوَ مَكَانُ الثَّزْهِةِ وَالْتَفْرِجِ. وَبِهِ الْهَسَائِينُ
الْكَبِيرَةُ الْحَسَنَةُ. وَأَهْلُ يَصْرَ ذُو طَرَبٍ وَسُرُورٍ وَهُوَ شَاهِدَتْ مِنْ فُرْجَةٍ
يَسْبَبُ بُرْمَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مِنْ كَسْرِ أَعَابِ بَدَنِهِ فَرَزِينَ كُلِّ أَهْلِ سُوقِ
سُوقِهِمْ وَعَلَقُوا بِحَوَائِجِهِمُ الْحُلَّ وَالْحُلَى وَثِيَابَ الْخَبِيرِ وَنَفَعُوا عَلَى ذَلِكَ أَهْلًا
ذَكَرُ مَسْجِدِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَالْمَدَارِسِ وَالْمَارِسَاتِ وَالزَّوَابَا

وَمَسْجِدِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَسْجِدٌ شَرِيفٌ كَبِيرٌ الْقَدْرِ. شَهِدُ الدُّوْكَرِ نَقَامٌ
فِيهِ الْجَمْعَةُ. وَالطَّرِيقُ يَتَرَضُّهُ مِنْ شَرْقٍ إِلَى غَرْبٍ. وَيَشْرِفُهُ الزَّوَايَةُ
حَيْثُ كَانَ يُدْرَسُ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ. وَأَمَّا الْمَدَارِسُ بِمَصْرَ
فَلَا يُحِيطُ أَحَدٌ بِمَحْصَرِهَا لِكَثْرَتِهَا. وَأَمَّا الْمَارِسَاتُ الَّتِي بَيْنَ الْقَصْرِ
عِنْدَ ثَرْيَةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ فَلَا وَنَ قَبِيحُ الْوَاصِفِ عَنْ مَحَاسِنِهِ. وَقَدْ أُعِدَّ
فِيهِ مِنَ الْمَرَافِقِ وَالْأَذْوِيَةِ مَا لَا يُحْصَرُ وَيَذْكَرُ أَنَّ عَجَبَهُ أَلْفُ دِينَارٍ كُلِّ

يَوْمٍ . وَأَمَّا الزَّوَايَا فَكثيرةٌ وَهُمْ يَسْمُونَهَا الْحَوَائِقَ وَاحِدَتُهَا حَائِقَةٌ وَالْأَمْرُ
يَبْصُرُ يَتَنَافَسُونَ فِي بِنَاءِ الزَّوَايَا . وَكُلُّ زَاوِيَةٍ يَبْصُرُ مُعْبِنَةٌ لِطَائِفَةٍ مِنَ
الْفُقَرَاءِ وَكَثَرُهُمْ الْأَعَاجِمُ وَهُمْ أَهْلُ آدَابٍ وَمَعْرِفَةٍ بِطَرِيقَةِ التَّصَوُّفِ
وَلِكُلِّ زَاوِيَةٍ شَيْخٌ وَحَارِسٌ وَتَرْيِبُ أُمُورِهِمْ عَجِيبٌ وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ
فِي الطَّعَامِ أَنَّهُ يَأْتِي خَدِيمُ الزَّوَايَةِ إِلَى الْفُقَرَاءِ صَبَاحًا فَيُعِينُ لَهُ كُلَّ وَاحِدٍ
مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ الطَّعَامِ . فَإِذَا اجْتَمَعُوا لِلْأَكْلِ جَعَلُوا لِكُلِّ إِنْسَانٍ خُبْنٌ
وَمَرَقَةٌ فِي إِنَاءٍ عَلَى حِدَةٍ لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ . وَطَعَامُهُمْ مَرَّتَانٍ فِي الْيَوْمِ .
وَهُمْ كِسْوَةُ الشِّتَاءِ وَكِسْوَةُ الصَّيْفِ وَمَرْتَبُ شَهْرِيٍّ مِنْ ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا
لِلوَاحِدِ فِي الشَّهْرِ إِلَى عِشْرِينَ وَهُمْ مُحَلَاوَةٌ مِنَ السُّكْرِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ جُمُعَةٍ
وَالصَّابُونَ يُغْسَلُ أَمْوَالُهُمْ وَالْأَجْنُ لِدُخُولِ الْحَمَامِ وَالزَّيْتُ لِلْإِسْتِنبَاحِ .
وَهُمْ أَعْزَابٌ . وَلِلْمُتَزَوِّجِينَ زَوَايَا عَلَى حِدَةٍ وَمِنَ الْمُشْتَرِطِ عَلَيْهِمْ حُضُورُ
الصَّلَاةِ الْخَمْسِ وَالْمَيْمُتِ بِالزَّوَايَةِ وَاجْتِمَاعُهُمْ يَفْقَهُ دَاخِلَ الزَّوَايَةِ وَمِنْ
عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَجْلِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَجَادَةٍ مُخَصَّصَةٍ بِهِ وَإِذَا صَلَّوْا صَوْتُ
الضُّعْبِ قَرَأُوا سُورَةَ الْفُجِّ وَسُورَةَ الْمَلِكِ وَسُورَةَ عَم . ثُمَّ يُؤْتَى بِسُخَّرٍ مِنْ
الْقُرْآنِ مُجَزَّأَةٍ فَيَأْخُذُ كُلُّ قَتِيرٍ جُزْأً وَيَخْتُمُونَ الْقُرْآنَ وَيَذْكُرُونَ . ثُمَّ
يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ . وَمِثْلَ ذَلِكَ يَفْعَلُونَ بَعْدَ صَوْتِ
الْعَصْرِ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ مَعَ الْقَادِمِ أَنَّهُ يَأْتِي بَابَ الزَّوَايَةِ فَيَقِفُ بِهِ مَشْدُودَ
الْوَسْطِ وَعَلَى كَاهِلِهِ سَجَادَةٌ وَيُسَمِّنُهُ الْعُكَّازُ وَيُسْرَاهُ الْإِبْرَيقُ فَيُعْلِمُ الْبَوَابُ
خَدِيمَ الزَّوَايَةِ بِمَكَانِهِ فَيُخْرِجُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُهُ مِنْ أَمْرِ الْيَلَادِ أَيْ وَالْيِ الزَّوَايَا
تَزَلُ فِي طَرِيقِهِ وَمَنْ شَيْخُهُ . فَإِذَا عَرَفَ صِحَّةَ قَوْلِهِ أَخَذَهُ الزَّوَايَةُ وَفَرَسَ

لَهُ سَجَادَتُهُ فِي مَوْضِعٍ يَلِيقُ بِهِ وَأَرَاهُ مَوْضِعَ الظُّهَارَةِ فَجَدَّ دُالْوُضُوءَ وَيَأْتِي
إِلَى سَجَادَتِهِ فَيَجْلُثُ وَسَطَهُ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَيُصَافِحُ الشَّيْخَ وَمَنْ حَضَرَ وَبَقِيَ
مَعَهُ . وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا كَانَتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَخَذَ الْمُخَادِمُ جَمِيعَ
سَجَادِهِمْ فَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَيَقْرَأُهَا لَهُمْ هُنَاكَ وَيَخْرُجُونَ مُجْتَمِعِينَ
وَمَعَهُمْ شَيْخُهُمْ فَيَأْتُونَ الْمَسْجِدَ وَيُصَلِّي كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى سَجَادَتِهِ فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ
الْصَّلَاةِ قَرَأُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَادَتِهِمْ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مُجْتَمِعِينَ إِلَى الزَّوَايِدِ
وَمَعَهُمْ شَيْخُهُمْ

ثُمَّ كَانَ سَفَرِي مِنْ مِصْرَ عَلَى طَرِيقِ الصَّعِيدِ بِرَسْمِ أَنْجَارِ الشَّرِيفِ فَبِتُّ
لَيْلَةَ خُرُوجِي بِالرِّبَاطِ الَّذِي بَنَاهُ الصَّاحِبُ تَاجُ الدِّينِ بْنُ حِينَا بِدَيْرِ
الطَّيْنِ وَهُوَ رِبَاطٌ عَظِيمٌ بَنَاهُ عَلَى مَنَاقِرَ عَظِيمَةٍ وَأَنَارَ كَرِيمَةٍ . ثُمَّ خَرَجْتُ
مِنَ الرِّبَاطِ الْمَذْكُورِ وَمَرَرْتُ بِمَدِينَةِ الْقَائِدِ وَهِيَ بَلَدٌ صَغِيرَةٌ عَلَى سَاحِلِ
النَّيْلِ . ثُمَّ سَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بُوَشَ وَضَبَطَهَا بِضَمِّ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ
وَأَخْرَجَهَا شَيْخٌ مُعْجَبٌ وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ أَكْثَرُ بِلَادِ مِصْرَ كُنَانًا وَمِنْهَا يُجْلَبُ إِلَى
سَائِرِ الدِّيَارِ الْبَصْرِيَّةِ وَالْأَفْرِيقِيَّةِ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ
دَلَّاصَ وَضَبَطُ أَهْلِهَا يَفْعُ الدَّالَّ الِثْمَلِ وَأَخْرَجَهَا صَادِقُ مَهَلٍ وَهَذِهِ
الْمَدِينَةُ كَثِيرَةُ الْكُنَانِ أَيْضًا يَمَثِلُ الذِّبْ ذَكَرْنَا قَبْلَهَا وَتُحْمَلُ أَيْضًا مِنْهَا
إِلَى دِيَارِ مِصْرَ وَأَفْرِيقِيَّةِ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بِيَا ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا
إِلَى مَدِينَةِ الْبَهْسَةِ وَهِيَ مَدِينَةُ كَثِيرَةٌ وَبَسَاتِينُهَا كَثِيرَةٌ وَتُصْعَقُ بِهَذِهِ
الْمَدِينَةِ ثِيَابُ الصُّوفِ الْحَبِثَةِ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنِيَّةِ ابْنِ خَصِيبٍ وَهِيَ مَدِينَةُ كَثِيرَةٌ

السَّاحَةِ . مُتَّسِعَةُ الْمَسَاحَةِ . مُنِيَّةٌ عَلَى شَاطِئِ النَّيْلِ . وَحَنِيْقٌ حَنِيْقٌ لَهَا عَلَى
 يَلَادِ الصَّعِيدِ التَّنْضِيلِ . بِهَا الْمَدَارِسُ وَالْمَشَاهِدُ . وَالزَّوَايَا وَالْمَسَاجِدُ .
 وَكَانَتْ فِي الْقَدِيمِ مُنْبَةَ لِحَصْبِ عَامِلِ مِصْرَ
 حِكَايَةُ خَصْبِ

يُذَكِّرُنَ أَحَدَ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غَضَبَ عَلَى أَهْلِ
 مِصْرَ فَقَالَ أَنْ يُؤْتِيَ عَلَيْهِمْ أَحْفَرُ عَيْدٍ وَأَصْفَرُكُمْ شَأْنًا قَصْدًا لِإِرْدَائِهِمْ
 وَالنَّكَلِ . وَكَانَ خَصْبٌ أَحْفَرُكُمْ إِذْ كَانَ يُتَوَلَّى تَحْنِينَ الْحَمَامِ . فَتَلَعَّ
 عَلَيْهِ وَأَمَرَ عَلَى مِصْرَ وَظَنَّهُ أَنَّهُ يَسِيرُ فِيهِمْ سِيرَةً سُوءَ وَيَقْصِدُهُمْ بِالْإِذَاءِ
 حَسْبَمَا هُوَ الْمُتَوَدُّ مِنْ وَلِيِّ عَنِ غَيْرِ عَهْدٍ بِالْعِزِّ . فَلَمَّا اسْتَفَرَّ خَصْبٌ
 بِمِصْرَ سَارَ فِي أَهْلِهَا أَحْسَنَ سِيرَةٍ وَشَهَرَ بِالْكَرَمِ وَالْإِنْبَارِ فَكَانَ أَقَارِبُ
 الْخُلَفَاءِ وَسَوَاقِمْ يَقْصِدُونَهُ فَيَجْزِلُ الْعَطَاءُ لَهُمْ وَيَعُودُونَ إِلَى بَغْدَادَ
 شَاكِرِينَ لِمَا أَوْلَاهُمْ . وَإِنَّ الْخُلِيفَةَ أَتَقَدَّ بَعْضَ الْعَبَّاسِيِّينَ وَغَابَ عَنْهُ مُدَّةٌ .
 ثُمَّ أَتَاهُ فَسَأَلَهُ عَنْ مَغِيبِهِ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَصَدَ خَصْبِيًّا وَذَكَرَ لَهُ مَا أَعْطَاهُ
 خَصْبٌ وَكَانَ عَطَاءٌ جَزِيلًا . فَغَضِبَ الْخُلِيفَةُ وَأَمَرَ بِسَمْلِ عَيْنِي خَصْبِ
 وَإِخْرَاجِهِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بَغْدَادَ وَلَنْ يُطْرَحَ فِي أَسْوَاقِهَا . فَلَمَّا وَرَدَ الْأَمْرُ
 بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ جِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَنْزِلِهِ . وَكَانَتْ يَدُهُ بِأَقْوَةِ
 عَظِيمَةِ الشَّانِ فَحَبَّأَهَا عَنْهُ وَخَاطَهَا فِي تَوْبِهِ لَهُ لَيْلًا وَسَمِلَتْ عَيْنَاهُ
 وَطُرِحَ فِي أَسْوَاقِ بَغْدَادَ . فَهَرَّبَ بِهِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ لَهُ يَا خَصْبُ
 إِنِّي كُنْتُ قَصَدْتُ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ مَا دَحَا لَكَ بِقَصِيدَةٍ فَوَاقَفْتُ
 أَنْصِرَافَكَ عَنْهَا وَاجِبُ أَنْ تَسْمَعَهَا : فَقَالَ كَيْفَ يَسْمَعُهَا وَأَنَا عَلَى مَا

تَرَاهُ: فَقَالَ إِنَّمَا قَصْدِي مَمَاعُكَ لَهَا. وَأَمَّا الْعَطَاءُ فَقَدْ أَعْطَيْتَ النَّاسَ
وَأَجَزَلْتَ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا: قَالَ فَأَفْعَلْ فَأَنْشَدَهُ

أَنْتَ أَنْحَصِبُ وَهَذِهِ مِصْرُ قَدْ قَفَا فِكْ لَا كَمَا بَجَرُ
فَلَمَّا آتَى عَلَى آخِرِهَا قَالَ لَهُ أَتَقْنُ هَذِهِ الْخِطَابَةَ فَفَعَلَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ
خُذِ الْيَاقُوتَةَ: فَأَبَى فَأَقْسَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهَا فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ بِهَا إِلَى سُوقِ
الْجَوْهَرِيِّينَ. فَلَمَّا عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ قَالُوا لَهُ إِنَّ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْخَلِيفَةِ.
فَرَفَعُوا أَمْرَهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ بِإِخْضَارِ الشَّاعِرِ وَأَسْتَفْهَمَهُ عَنْ
شَأْنِ الْيَاقُوتَةِ فَأَخْبَرَهُ بِحَبْرِهَا. فَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِخَصِيبٍ وَأَمَرَ بِمُتَوَلِّهِ
بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَجَزَلَ لَهُ الْعَطَاءَ وَحَكَّمَهُ فِيمَا يُرِيدُ فَرَعَبَ أَنْ يُعْطِيَهُ هَذِهِ
الْمَهْنَةَ فَفَعَلَ ذَلِكَ وَسَكَمَهَا خَصِيبٌ إِلَى أَنْ تَوَفَّى وَأَوْرَثَهَا عَقِبَهُ إِلَى أَنْ
انْقَرَضُوا

فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ بَلَيْسٍ وَضَبْتُ أَسْهَابًا بَنَعَ الْمُوحِدَ الْأَوَّلَى وَفَرَغَ
الْثَانِيَةَ ثُمَّ بَاءَ آخِرَ الْحُرُوفِ مُسَكَّنَةً وَسَبِينَ مُهْمَلٍ وَهِيَ مَدِينَةُ كَيْسَرَةَ ذَاتُ
بَسَاتِينَ كَثِيرَةٍ وَلَمْ أَلْقُ بِهَا مِنْ نَحْبٍ ذِكْرٍ. ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى الصَّالِحِيَّةِ
وَمِنْهَا دَخَلْنَا الرِّمَالَ وَنَزَلْنَا مَنَارِلًا مِثْلَ السَّوَادَةِ وَالْوَرَادَةِ وَالْمُطَلَبِ
وَالْعَرِيشِ وَالْحُرُوبَةِ وَبِكُلِّ مَنَزِلٍ مِنْهَا فُنْدُقٌ وَهُمْ يُسَمُّونَهُ الْخَنَانَ يَنْزِلُهُ
الْمَسَافِرُونَ بِدَوَاعِمِهِمْ. وَبِخَارِجِ كُلِّ خَافٍ سَانِيَةٌ لِلْسَّبِيلِ وَحَانُوتٌ
يَشْتَرِي مِنْهَا الْمَسَافِرُ مَا يَخْتَاجُهُ لِنَفْسِهِ وَدَارَتِهِ. وَمِنْ مَنَارِلِهَا قُطْبَا
الْمَشْهُورَةِ وَهِيَ بَنَعَ الْكَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ وَبَاءَ آخِرَ الْحُرُوفِ مَفْتُوحَةٌ
وَأَلِفٌ وَالنَّاسُ يُدْعَوْنَ إِلَيْهَا هَاهُنَا تَأْنِيثٌ. وَبِهَا تُؤْخَذُ الزَّكَاةُ مِنَ التُّجَّارِ

وَتَنْشَأُ مِنْهُمْ وَيُجْتَبَأُ عَمَّا لَدَيْهِمْ أَشَدَّ التَّجَبُّهِ. وَفِيهَا الدَّوَابُّ وَالْعُمَالُ
وَالْكَتَّابُ وَالنُّهْدُ. وَتَجْبَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ وَلَا
يَجُوزُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الشَّامِ إِلَّا يَدْرَاهُ مِنْ مِصْرَ وَلَا إِلَى مِصْرَ إِلَّا يَدْرَاهُ
مِنَ الشَّامِ أَحْيَا طَاعًا عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ وَتَوْفِيًا مِنَ الْخَوَاصِ الْعِرَاقِيِّينَ.
وَطَرِيقُهَا فِي ضَمَانِ الْعَرَبِ قَدْ وَكَلُوا بِحِفْظِهِ. فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ مَسَحُوا عَلَى
الرَّمْلِ لَا يَبْقَى بِهِ أَثَرٌ. ثُمَّ يَأْتِي الْأَمِيرُ صَبَاحًا فَيَنْظُرُ إِلَى الرَّمْلِ فَإِنْ وَجَدَ
بِهِ أَثَرًا طَلَبَ الْعَرَبُ بِإِحْضَارِ مُؤَنِّهِ فَيَذْهَبُونَ فِي طَلَبِهِ فَلَا يَفُوتُهُمْ
فَيَأْتُونَ بِهِ الْأَمِيرَ فَيُعَافِيهِ بِمَا بَشَأَ

وَكَانَ بِهَا فِي عَهْدِ وَصُولِي إِلَيْهَا عِزُّ الدِّينِ أَسْتَأْذِنُ الدَّارِ أَفْهَارِي مِنْ
خِيَارِ الْأُمَرَاءِ أَضَافَنِي وَكَرَّمَنِي وَأَبَاحَ الْخَوَاصِ لَنْ كَانَ مَعِيَ. وَبَيْنَ يَدَيْهِ عَبْدُ
الْجَلِيلِ الْمَغْرِبِيُّ الْوَقَافُ وَهُوَ يَعْرِفُ الْمَغَارِبَةَ وَبِلَادَهُمْ فَيَسْأَلُ مَنْ وَرَدَ
مِنْهُمْ مِنْ أَيْ بِلَادٍ هُوَ لَيْلًا يَلِيسَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْمَغَارِبَةَ لَا بُعْزُضُونَ فِي
جَوَارِهِمْ عَلَى قَطْبَا

ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ غَزَّةَ وَهِيَ أَوَّلُ بِلَادِ الشَّامِ جَمًّا بَلِي مِصْرَ
مُتَسِّعَةً الْأَقْطَارِ كَثِيرَةُ الْعَارِفَةِ حَسَنَةُ الْأَسْوَاقِ بِهَا الْمَسَاجِدُ الْعَدِيدَةُ وَلَا
سُورَ عَلَيْهَا. وَكَانَ بِهَا مَسْجِدٌ جَامِعٌ حَسَنٌ. وَالْمَسْجِدُ الَّذِي نَقَامُ الْآنَ بِهِ
الْجُمُعَةُ فِيهَا بَنَاهُ الْأَمِيرُ الْبَعْظَمُ الْخَوَاصِ وَهُوَ أَيْقُ الْبِنَاءِ مُحْكَمُ الصَّنْعَةِ
وَمِنْهُ مِنْ الرُّخَامِ الْأَبْيَضِ وَقَاضِي غَزَّةَ بَذَرَ الدِّينَ السَّلْمَانِيَّ الْخَوَاصِ
وَمُدْرِسَهَا عِلْمَ الدِّينِ بَنَى سَالِمٌ وَبَنُو سَالِمٍ كِبَرَاءُ هَذِهِ الْمَدِينَةُ وَمِنْهُمْ تَمَسُّسُ
الدِّينِ قَاضِي الْقُدْسِ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ غَزَّةَ إِلَى مَدِينَةِ الْحَلِيلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا وَهِيَ
 مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ السَّاحَةِ كَثِيرَةٌ الْيَقْدَارِ مُشْرِفَةٌ الْأَنْوَارِ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ .
 عَجِيبَةُ الْخَبَرِ فِي بَطْنٍ وَادٍ . وَمَسْجِدُهَا أَيْقُ الصَّنْعَةِ مُحْكَمُ الْعَمَلِ . بَدِيعُ
 الْحُسْنِ . سَامِي الْأَرْتِفَاعِ مَبْنِي بِالْخَرِ الْخُوتِ فِي أَحَدِ أَرْكَانِهِ صَخْرَةٌ أَحَدُ
 أَفْطَارِهَا سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ شَبْرًا . وَيُقَالُ إِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ أَنْجَنَ
 بَيْنَاتِهِ . وَفِي دَاخِلِ الْمَسْجِدِ الْقَارِ الْمَكْرَمِ الْمَقْدَسُ فِيهِ قَبْرُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
 وَبَعْقُوبَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَبَقَائِلُهَا قُبُورُ ثَلَاثَةِ هَيِّ قُبُورِ أَرْوَاحِهِمْ وَعَنْ
 يَمِينِ الْمَنْبَرِ بِلِصْفِ جِدَارِ الْفِلَةِ مَوْضِعٌ يَهْبِطُ مِنْهُ عَلَى دَرَجٍ رُخَامٍ
 مُحْكَمَةٍ إِلَى مَسَلِكٍ ضَيِّقٍ يُفْضِي إِلَى سَاحَةِ مَفْرُوشَةٍ بِالرُّخَامِ فِيهَا صُورُ
 الْقُبُورِ الْفَلَاثَةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا مُحَاذِيَةٌ لَهَا . وَكَانَ هُنَاكَ مَسَلِكٌ إِلَى الْغَارِ
 الْمُبَارَكِ وَهُوَ الْآنَ مَسْدُودٌ وَقَدْ نَزَلْتُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مَرَّاتٍ
 ثَلَاثًا سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ الرَّمْلَةِ وَهِيَ فَلَسْطِينُ مَدِينَةٌ كَثِيرَةٌ . كَثِيرَةٌ
 الْخَبَرَاتِ . حَسَنَةُ الْأَسْوَاقِ . وَبِهَا التَّجَامِعُ الْأَبْيَضُ وَيُقَالُ إِنَّ فِي قِبْلَتِهِ
 ثَلَاثِينَ أَلْفَ نَبِيٍّ مَذْفُونِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَفِيهَا مِنْ كِبَارِ الْقَهَّاهِ
 مَجْدُ الدِّينِ النَّابُلِسِيِّ . ثُمَّ خَرَجْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ نَابُلُسَ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ
 كَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ . مُطَرَّدَةُ الْأَنْهَارِ . مِنْ أَكْثَرِ بِلَادِ الشَّامِ زَيْتُونَا . وَمِنْهَا
 يُجْمَلُ الزَّيْتُ إِلَى مِصْرَ وَدِمَشْقَ . وَبِهَا تُصْنَعُ حُلُوكُ الْخَرْوَبِ وَتُجْلَبُ
 إِلَى دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا . وَكَيْفِيَّةُ عَمَلِهَا أَنَّ يُطْبَخَ الْخَرْوَبُ ثُمَّ يُعَصَّرُ وَيُؤْخَذَ
 مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ الرُّبِّ فَتُصْنَعُ مِنْهُ الْحُلُوكُ وَتُجْلَبُ ذَلِكَ الرُّبُّ أَيْضًا إِلَى
 مِصْرَ وَالشَّامِ . وَبِهَا الْبَطِيخُ الْمُنْسُوبُ إِلَيْهَا وَهُوَ طَيِّبٌ عَجِيبٌ . وَمَسْجِدُهَا

الْجَامِعُ فِي نَهَائِهِ مِنَ الْإِثْقَانِ وَالْحَسَنِ . وَفِي وَسْطِهِ بَرَكَةُ مَاءٍ عَذْبٍ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةٍ عَجَلُونَ وَهِيَ بَغْرُ الْعَيْنِ الْهَمْلَكَةِ . وَهِيَ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ لَهَا أَسْوَاقُ كَثِيرَةٌ . وَقَلْعَةٌ خَطِيرَةٌ وَبُشْنُهَا نَهْرٌ مَاءُهُ عَذْبٌ . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا يَنْصُدُّ الْأَذِفِيَّةَ فَمَرَرْتُ بِالْفُورِ وَهُوَ وَاْدٌ بَيْنَ بِلَالٍ بِهِ قَبْرُ أَبِي عَيْنَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ أَمِينِ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زُرْنَاهُ وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ فِيهَا الطَّعَامُ لِإِبْنَاءِ السَّبِيلِ وَبَيْنَنَا هُنَاكَ لَبْلَةٌ ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى الْقَصْرِ وَبِهِ قَبْرُ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . تَبَرَّكْتَ أَيْضًا بِزِيَارَتِهِ

ثُمَّ سَافَرْتُ عَلَى السَّاحِلِ فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةٍ عَكَّةَ وَهِيَ خَرَابٌ . وَكَانَتْ عَكَّةُ فَاعِدَةً بِأَلْدِ الْأَفْرَنْجِ بِالشَّامِ وَمَرَمَى سُنُومٍ وَنُشْبَةٍ فُسْطَنْطِينِيَّةَ الْعُظْمَى وَبُشْرِهَا عَيْنُ مَاءٍ تُعْرَفُ بِعَيْنِ الْبَغْرِ . يُقَالُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَ مِنْهَا الْبَقْرَةَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُنْزَلُ إِلَيْهَا فِي دَرَجٍ . وَكَانَ عَلَيْهَا مَسْجِدٌ يَقْبَلُ مِنْهُ حِمْرَاهُ وَبِهِذِهِ الْمَدِينَةُ قَبْرُ صَالِحٍ عَم . ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةٍ صُورَ وَهِيَ خَرَابٌ وَخَارِجُهَا قَرْيَةٌ مَعْبُورَةٌ وَكَثَرُ أَهْلِهَا شَيْعُونَ وَلَقَدْ نَزَلْتُ بِهَا مَرَّةً عَلَى بَعْضِ الْبِيَاهِ أُرِيدُ الْوُضُوءَ . فَأَتَى بَعْضُ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ لِيَتَوَضَّأَ فَبَدَأَ بِغَسْلِ رِجْلِي ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَلَمْ يَمْقُضْ وَلَا أَسْتَنْشِقْ . ثُمَّ مَعَ بَعْضِ رَأْسِهِ فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ فَقَالَ لِي إِنَّ الْبِيَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ أَيْدَاؤُهُ مِنَ الْأَسَاسِ . وَمَدِينَةُ صُورَ هِيَ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْخَصَانَةِ وَالْمُنْعَةِ لِأَنَّ الْبَحْرَ مُحِيطٌ بِهَا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا وَلَهَا بَابَانِ أَحَدُهُمَا لِلْبَرِّ وَالثَّانِي لِلْبَحْرِ . وَلِبَايَها الَّذِي بَشَّرُ الْبَرِّ أَرْبَعَةُ فُضْلَانِ كُلُّهُمَا فِي سِتَائِرِ مُحِيطَةٍ بِالْبَابِ . وَأَمَّا الْبَابُ الَّذِي لِلْبَحْرِ فَهُوَ يَنْتِ بُرْجَيْنِ عَظِيمَيْنِ

وَبَنَاتُهَا لَيْسَ فِي بِلَادِ الدُّنْيَا أَعْجَبُ وَلَا أَغْرَبُ شَأْنًا مِنْهُ لِأَنَّ الْبَحْرَ مُحِيطٌ
بِهَآئِنِ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا. وَعَلَى الْأُجْمَةِ الرَّابِعَةِ سُورٌ تَدْخُلُ السُّفُنُ تَحْتَ
السُّورِ وَتَرْسُو هُنَاكَ. وَكَانَ فِيمَا تَقْدَمُ بَيْنَ الْبَرْجَيْنِ سِلْسِلَةٌ حَدِيدٌ
مُعْرِضَةٌ لَأَسْبِيلَ إِلَى الدَّخَالِ هُنَاكَ وَلَا إِلَى الْخَارِجِ إِلَّا بَعْدَ حَطِّهَا
وَكَانَ عَلَيْهَا الْحُرَاسُ وَالْأَمَنَاءُ فَلَا يَدْخُلُ دَاخِلٌ وَلَا يَخْرُجُ خَارِجٌ إِلَّا عَلَى
عِلْمٍ مِنْهُمْ. وَكَانَ لِعُكَّةٍ أَيْضًا مِثْلُهَا وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَحْمِلُ إِلَّا السُّفْنَ الصَّغَارَ
ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ صِدَا وَهِيَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ حَسَنَةٌ
كَثِيرَةُ الْقَوَاكِ تَحْمِلُ مِنْهَا النَّبِينَ وَالزَّيْبُ وَالزَّيْتُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ. نَزَلْتُ
عِنْدَ قَاضِيهَا كَالِ الدِّينِ الْأَشْمُوغِيِّ الْبَصْرِيِّ وَهُوَ حَسَنُ الْأَخْلَاقِ كَرِيمُ
النَّفْسِ. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ طَبْرِيقَةٍ. وَكَانَتْ فِيمَا مَضَى مَدِينَةٌ
كَبِيرَةٌ ضَخْمَةٌ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا رُسُومٌ تُنْبِئُ عَلَى ضَخَامَتِهَا وَعَظَمِ شَأْنِهَا.
وَبِهَا الْأَحْمَامَاتُ الْعَجِيبَةُ لَهَا يَتَنَانِ أَحَدُهَا لِلرِّجَالِ وَالْآخَرُ لِلنِّسَاءِ وَمَاؤُهَا
شَدِيدُ الْحَرَارَةِ وَلَهَا الْبَحِيرَةُ الشَّهِيدَةُ طُولُهَا نَحْوُ سِتَّةِ فَرَاسِخَ وَعَرْضُهَا
أَزِيدُ مِنْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ. وَبِطَبْرِيقَةٍ مَسْجِدٌ يُعْرَفُ بِمَسْجِدِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ قَبْرُ
شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَنُوهُ وَزَوْجَتُهُ مَوْتَى الْكَلِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَبْرُ سُلَيْمَانَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَبْرُ يَهُوذَا وَقَبْرُ رُوَيْلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ.
وَقَصَدْنَا مِنْهَا زِيَارَةَ الْحَبِّ الَّذِي أُلْفِيَ فِيهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهُوَ
فِي صَحْنٍ مَسْجِدٍ صَغِيرٍ وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ وَالْحَبُّ كَبِيرٌ عَمِيقٌ شَرِبْنَا مِنْ مَائِهِ
الْمُجْتَمِعِ مِنْ مَاءِ الْمَطَرِ وَأَخْبَرَنَا قِسْمُهُ أَنَّ إِلَهَاءَهُ يَتَّبَعُ مِنْهُ أَيْضًا
ثُمَّ سَرْنَا إِلَى مَدِينَةِ يَرْبُوتَ وَهِيَ صَغِيرَةٌ حَسَنَةُ الْأَسْوَاقِ وَجَامِعُهَا بَدِيعٌ

الْحَسَنُ وَتَجَلَّبُ مِنْهَا إِلَى دِيارِ مِصرَ الْوَاكِهَ وَالْحَدِيدُ. وَقَصَدْنَا مِنْهَا زِيَارَةَ
قَبْرِ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنْ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ وَهُوَ
بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِكَرْكِ نُوحٍ مِنْ بَقَاعِ الْعَزِيزِ. وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ يُطْعَمُ بِهَا
الْوَارِدُ وَالصَّادِرُ وَيُقَالُ إِنَّ السُّلْطَانَ صَلَاحَ الدِّينِ وَقَفَ عَلَيْهَا الْأَوْقَافَ.
وَقِيلَ السُّلْطَانُ نُورُ الدِّينِ وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَيُذَكَّرُ أَنَّهُ كَانَ يَنْسُجُ
الْحَصْرَ وَيَفْتَتُ بِحَمَلِهَا

حِكَايَةُ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ الْمَذْكُورِ

تُحْكِي أَنَّهُ دَخَلَ مَدِينَةَ دِمَشْقَ فَمَرَضَ بِهَا مَرَضًا شَدِيدًا وَأَقَامَ
مَطْرُوحًا بِالْأَسْوَاقِ. فَلَمَّا بَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ خَرَجَ إِلَى ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِيَلْتِمِسَ
بُسْتَانًا يَكُونُ حَارِسًا لَهُ فَاسْتَوْجَرَ لِحِرَاسِهِ بُسْتَانِ لِلْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ.
وَأَقَامَ فِي حِرَاسَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ. فَلَمَّا كَانَ فِي أَوَّلِ الْفَاكِهَةِ أَتَى السُّلْطَانُ إِلَى
ذَلِكَ الْبُسْتَانِ وَأَمَرَ وَكِيلَ الْبُسْتَانِ أَبَا يَعْقُوبَ أَنْ يَأْتِيَ بِرُمَانٍ يَأْكُلُ مِنْهُ
السُّلْطَانُ. فَأَتَاهُ بِرُمَانٍ فَوَجَدَ حَامِضًا. فَأَمَرَ أَنْ يَأْتِيَ بِغَيْرِهِ فَفَعَلَ
ذَلِكَ فَوَجَدَ أَيْضًا حَامِضًا. فَقَالَ لَهُ الْوَكِيلُ: أَتَكُونُ فِي حِرَاسَةِ الْبُسْتَانِ
مِنذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَلَا تَعْرِفُ الْحُلُومِينَ الْحَامِضِينَ: فَقَالَ إِنَّمَا اسْتَأْجَرْتَنِي عَلَى
الْحِرَاسَةِ لَا عَلَى الْأَكْلِ. فَأَتَى الْوَكِيلُ إِلَى الْمَلِكِ فَأَعْلَمَهُ بِذَلِكَ. فَبَعَثَ
إِلَيْهِ الْمَلِكُ وَكَانَ قَدْ رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَجْتَنِعُ مَعَ أَبِي يَعْقُوبَ وَتَحْضُلُ
لَهُ مِنْهُ فَائِدَةٌ فَفَرَسَ أَنَّهُ هُوَ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو يَعْقُوبَ قَالَ نَعَمْ. فَقَامَ
إِلَيْهِ وَعَانَقَهُ وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ. ثُمَّ أَخَذَهُ إِلَى مَجْلِسِهِ. فَأَضَافَهُ بِضَافَةٍ
مِنَ الْحَلَالِ الْمَكْتَسَبِ يَكُونُ بَيْنَهُ وَأَقَامَ عِنْدَهُ أَيَّامًا. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ

فَارَا يَنْفِسُهُ فِي أَوَانٍ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ. فَأَتَى فِرْيَةً مِنْ قُرَاهَا وَكَانَ بِهَا رَجُلٌ
 مِنَ الضُّعَفَاءِ قَعْرَضَ عَلَيْهِ التُّزُولَ عِنْدَهُ فَفَعَلَ وَصَنَعَ لَهُ مَرْقَةً وَدَحَجَ لَهُ
 دَحَاجَةً فَأَتَاهُ بِهَا وَبَحْزِ شَعِيرٍ. فَكُلَّ مِنْ ذَلِكَ وَدَعَا لِلرَّجُلِ وَكَانَ
 عِنْدَهُ جُمْلَةٌ أَوْلَادٍ مِنْهُمْ بَنَتْ قَدْ آنَ بِنَاكِ زَوْجَهَا عَلَيْهَا. وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ فِي
 تِلْكَ الْيَلَادِ أَنْ الْبَيْتَ مَجْهَزُهَا أَبُوهَا وَيَكُونُ مُعْظَمُ الْأَجْهَازِ أَوَانِي الْأَنْحَاسِ
 وَبِهِ بَتَفَاحُونَ وَبِهِ بَتَابَعُونَ. فَقَالَ أَبُو بَعْقُوبَ لِلرَّجُلِ: هَلْ عِنْدَكَ
 شَيْءٌ مِنَ الْأَنْحَاسِ قَالَ نَعَمْ: قَدْ اشْتَرَيْتُ مِنْهُ لِيَجْهَزَ هَذِهِ الْبَيْتَ: قَالَ أَتَشْتَرِي
 بِهِ: فَأَتَاهُ بِهِ: فَقَالَ لَهُ أَسْتَعْرِ مِنْ حَبْرَانِكَ مَا أَمْكَنَكَ مِنْهُ: فَفَعَلَ وَأَخْضَرَ
 ذَلِكَ يَنْ يَدِيهِ فَأَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّبْرَانَ وَأَخْرَجَ صُورَةً كَانَتْ عِنْدَهُ فِيهَا الْإِكْبِيرُ
 فَطَرَحَ مِنْهُ عَلَى الْأَنْحَاسِ فَعَادَ كُلُّهُ ذَهَبًا وَتَرَكَهُ فِي بَيْتٍ مُغْفَلٍ وَكَتَبَ كِتَابًا
 إِلَى نُورِ الدِّينِ مَلِكِ دِمَشْقَ بَعْلَمَهُ بِذَلِكَ وَبَنِيهِ عَلَى بِنَاكِ مَارِسْتَانِ
 لِلْمَرْضَى مِنَ الْعُرَبَاءِ وَيُوفِّعُ عَلَيْهِ الْأَوْقَافَ وَبَنِي الْأَزْوَاجَ بِالطَّرِيقِ وَبِزَيْ
 أَصْحَابِ الْأَنْحَاسِ وَبُعْطِي صَاحِبِ الْبَيْتِ كَفَافَتَهُ: وَقَالَ لَهُ فِي آخِرِ الْكِتَابِ
 وَإِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَمَ قَدْ خَرَجَ عَنْ مُلْكِ خُرَاسَانَ فَأَنَا قَدْ خَرَجْتُ
 مِنْ مُلْكِ الْمَغْرِبِ وَعَنْ هَذِهِ الصَّنْعَةِ وَالسَّلَامُ. وَقَرَأَ مِنْ حَبْنِهِ وَذَهَبَ
 صَاحِبُ الْبَيْتِ بِالْكِتَابِ إِلَى الْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ. فَوَصَلَ الْمَلِكُ إِلَى تِلْكَ
 الْفِرْيَةِ وَأَخْفَلَ الذَّهَبَ بَعْدَ أَنْ أَرْضَى أَصْحَابَ الْأَنْحَاسِ وَصَاحِبَ الْبَيْتِ
 وَطَلَبَ أَبَا بَعْقُوبَ فَلَمْ يَجِدْهُ أَثَرًا وَلَا وَقَعَ لَهُ عَلَى خَبَرٍ. فَعَادَ إِلَى دِمَشْقَ
 وَبَنَا الْمَارِسْتَانَ الْمَعْرُوفَ بِاسْمِهِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْمَعْمُورِ مِثْلَهُ
 ثُمَّ وَصَلَتْ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ وَهِيَ إِحْدَى قَوَاعِدِ الشَّامِ. وَبُلْدَانِهَا

الضخام. تَحْنَرُهَا الْأَنْهَارُ. وَتَحْنُهَا الْبَسَائِنُ وَالْأَشْجَارُ. وَتَكْنُهَا الْبَحْرُ
بِمِرَافِقِهِ الْعِيسِيَّةِ. وَالْبَرْخُ بِخَيْرَاتِهِ الْبَيْضَةِ. وَلَهَا الْأَسْوَاقُ الْتَجِيبَةُ. وَالْأَسَارِحُ
الْخَصِيبَةُ. وَالْبَحْرُ عَلَى مِيلَيْنِ مِنْهَا وَهِيَ حَدِيثَةُ الْبِنَاءِ. وَأَمَّا طَرَابُلُسُ
الْقَدِيبَةُ فَكَانَتْ عَلَى ضَفَةِ الْبَحْرِ وَتَمْلِكُهَا الرُّومُ زَمَانًا. فَلَمَّا اسْتَرْجَعَهَا الْمَلِكُ
الظَّاهِرُ خَرِبَتْ وَاتَّخَذَتْ هَذِهِ الْحَدِيثَةُ. وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ نَحْوُ أَرْبَعِينَ مِنْ أَمْرَةِ
الْأَتْرَاكِ وَأَمِيرِهَا طَبْلَانُ الْحَاجِبُ الْمَعْرُوفُ بِبَيْلِكَ الْأَمْرَاءُ وَمَسْكَنُهُ مِنْهَا
بِالدَّارِ الْمَعْرُوفَةِ بِدَارِ السَّعَادَةِ. وَمِنْ عَوَائِدِهِ أَنْ يَرْكَبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْنِ
وَحَمِيسٍ وَيَرْكَبُ مَعَهُ الْأَمْرَاءُ وَالْعَسَاكِرُ وَيَخْرُجُ إِلَى ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ فَإِذَا
عَادَ إِلَيْهَا وَقَارَبَ الْوُضُوءَ إِلَى مَنْزِلِهِ تَرَجَّلَ الْأَمْرَاءُ وَتَزَلُّوا عَنْ دَوَابِّهِمْ
وَمَشَوْا يَدَيْنِ بَدْنِهِ حَتَّى يَدْخُلَ مَنْزِلَهُ وَيَنْصَرِفُونَ. وَتَضْرِبُ الطَّبْلُخَانَةُ عِنْدَ
دَارِ كُلِّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ بَعْدَ صَلَوةِ الْمَغْرِبِ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَتُوقَدُ الْمَشَاعِلُ.
وَمِنْ كَانَ يَهْمَانِ الْأَعْلَامُ كَايِبُ السِّرِّ بِهَا الدِّينِ بْنُ غَانِمٍ أَحَدُ الْفَضْلَاءِ
الْمُحَبَّسَاءِ مَعْرُوفٌ بِالسَّخَامِ وَالْكَرَمِ. وَأَخُوهُ حَسَامُ الدِّينِ هُوَ شَيْخُ الْقُدْسِ
الشَّرِيفِ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَأَخُوهُمَا عَلَاءُ الدِّينِ كَايِبُ السِّرِّ بِدِمَشْقَ وَمِنْهُمْ
وَكَيْلُ سَيْتِ الْمَالِ قِيَامُ الدِّينِ بْنُ مَكِينٍ مِنْ أَكْبَارِ الرِّجَالِ. وَمِنْهُمْ قَاضِي
قُضَايَاهَا شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ النُّفَيْسِ مِنْ أَعْلَامِ عِلْمَاءِ الْأَشَامِ. وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ
حَمَامَاتُ حِسَانٍ مِنْهَا حَمَامُ الْقَاضِي الْفَرَمِيِّ وَحَمَامُ سَنْدُورَ. وَكَانَ سَنْدُورُ
أَمِيرَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ وَيَذْكُرُ عَنْهُ أَخْبَارُ كَثِيرَةٍ فِي السِّدْقِ عَلَى أَهْلِ الْإِنْجِلْيَانِيَّةِ مِنْهَا
أَنْ أَمْرَأَةً شَكَّتْ إِلَيْهِ بِأَنْ أَحَدَ مَا لِيَكُوهُ الْخَوَاصِ نَعْدَى عَلَيْهَا فِي لَيْلٍ كَانَتْ
قِيَعُهُ فَشَرِبَتْهُ وَلَمْ تَكُنْ لَهَا بَيِّنَةٌ. فَأَمَرَ بِهِ فَوُضِعَ فَخْرَجُ اللَّبَنِ مِنْ مُصْرَائِهِ.

وَقَدْ اتَّفَقَ مِنْهُ هَذِهِ الْحِكَايَةُ لِلْعَنْدِيسِ أَحَدِ أُمَّرَأَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ أَيَّامَ إِمَارَتِهِ
عَلَى عَذَابٍ وَاتَّفَقَ مِنْهَا لِلْمَلِكِ كِبَكَ سُلْطَانِ نُرْكَاسْتَانَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ طَرَابُلُسَ إِلَى حِصْنِ الْأَكْرَادِ وَهُوَ بَلَدٌ صَغِيرٌ كَثِيرُ
الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ بِأَعْلَى نَلٍّ وَبِهِ زَاوِيَةٌ تُعْرَفُ بِزَاوِيَةِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ نِسْبَةً
إِلَى بَعْضِ كُبَرَاءِ الْأُمَرَاءِ وَتَزَلُّ عِنْدَ قَاضِيهَا وَلَا أَحَقِّقُ الْآنَ اسْمَهُ. ثُمَّ
سَافَرْتُ إِلَى مَدِينَةِ حِصْنٍ وَهِيَ مَدِينَةٌ مَلِيحَةٌ. أَرْجَاؤُهَا مُؤَنِّقَةٌ. وَأَشْجَارُهَا
مُورِقَةٌ. وَأَسَافُهَا قَسِيمَةُ الشَّوَارِعِ. وَجَامِعُهَا مُتَمِيزٌ بِالْحُسْنِ الْجَامِعِ.
وَفِي وَسْطِهِ بَرَكَةٌ مَاءٍ. وَأَهْلُ حِصْنٍ عَرَبٌ لَمْ فَضَلْ وَكَرَمٌ وَبَخَارِجُ
هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَبْرُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ. وَعَلَيْهِ زَاوِيَةٌ وَمَسْجِدٌ وَعَلَى الْقَبْرِ
كِسْوَةٌ سَوْدَاءٌ. وَقَاضِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ جَالُ الدِّينِ الشَّرِيفِيِّ مِنْ أَجْمَلِ
النَّاسِ صُورَةً وَأَحْسَنِهِمْ سِيرَةً. ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ حِمَاةٍ أَحَدَةِ
أُمَمَاتِ الشَّامِ الرَّفِيعَةِ. وَمَذَائِلُهَا الْبَدِيعَةِ. ذَاتُ الْحُسْنِ الرَّائِقِ. وَالْجَمَالِ
الْفَائِقِ. تَحْتُمِلُهَا الْبَسَائِنُ وَالْجَنَاتُ. عَلَيْهَا النَّوَاعِيرُ كَأَلْفِ أَفلاكِ الدَّائِرَاتِ
يَشْفَعُهَا النَّهْرُ الْعَظِيمُ الْمَسْمِيُّ بِالْعَاصِي. وَهَارِ بَصُ شَيْءٍ بِالْمَنْصُورِيَّةِ أَعْظَمُ
مِنَ الْمَدِينَةِ فِيهِ الْأَسْوَاقُ الْمُحَافِلَةُ وَالْحَمَامَاتُ الْحِمَّاسُ. وَبِحِمَاةِ النَّوَكَةِ
الْكَثِيرَةِ وَمِنْهَا الشَّمْسُ اللَّوْزِيُّ إِذَا كَثُرَتْ نَوَائِهِ وَجِدَتْ فِي دَاخِلِهَا
لَوْزَةً حُلْوَةً

ثُمَّ سِرْنَا إِلَى مَدِينَةِ حَلَبَ الْمَدِينَةِ الْكُبْرَى وَالْقَاعِ الْعَظَمَى. قَالَ أَبُو
الْحُسَيْنِ ابْنُ جُبَيْرٍ فِي وَصْفِهَا. قَدَرُهَا خَطِيرٌ. وَذِكْرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ
بَطِيرٌ. خُطَابُهَا مِنَ الْمُلُوكِ كَثِيرٌ. وَمَحَلُّهَا مِنَ النَّفُوسِ أَثِيرٌ. فَكَمْ هَاجَتْ

مِنْ كِفَاجٍ . وَسُلِّ عَلَيْهَا مِنْ بَيْضِ الصِّفَاحِ . لَهَا قَلْعَةٌ شَهِيدَةٌ لِامْتِنَاعِ .
 بَايِنَةُ الْأَرْتِنَاعِ . تَزْهَتْ حَصَانَةٌ أَنْ تُرَامَ أَوْ تُسْتَطَاعَ . مَخُوتَةُ الْأَرْجَاءِ .
 مَوْضُوعَةٌ عَلَى نِسْبَةِ أَعْنِدَالٍ وَأَسْتَوَاءِ . قَدْ طَاوَلَتْ الْأَيَّامَ وَالْأَعْوَامَ .
 وَشَبِعَتْ الْخَوَاصَّ وَالْعَوَامَ . أَتَيْتِ أُمَرَائُوهَا الْمُحْمَدَانِيُونَ وَشُعَرَائُوهَا .
 فَفِي جَمِيعِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بِنَاؤُهَا . فَيَا عَجَبًا لِلْيَلَادِ تَبَقُّوْا وَبَذَبُوا أَمْلَاقُهَا .
 وَبِهَلْكَوْنَ وَلَا يَنْقُضِي هَلَاكُهَا . وَتُخْطَبُ بَعْدَهُمْ فَلَا يَتَعَذَّرُ مَلَاكُهَا .
 وَتُرَامُ فَيَتَبَسَّرُ بِأَهْوَنِ شَيْءٍ إِذْ رَأَتْهَا . هَذِهِ حَلَبُكُمْ أَذْخَلَتْ مُلُوكَهَا فِي
 خَبَرِكَا . وَتَسْتَحْتُ صَرْفَ الزَّمَانِ بِالْمَكَانِ . أَتَيْتِ اسْمُهَا فَخَلَّتْ بِحِلْيَةِ الْغَوَانِ .
 وَدَانَتْ بِالْعُدْرِ فِيمَنْ دَانَ . وَتَجَلَّتْ عُرُوسًا بَعْدَ سَيْفِ دَوْلَتِهَا أَتَيْتِ
 حَمْدَانَ . هِيَمَاتِ سَيِّهَرُمْ شَبَابُهَا . وَبَعْدَهُمْ خِطَابُهَا . وَبُسْرُغُ فِيهَا بَعْدَ حِينِ
 خَرَابِهَا . وَقَلْعَةٌ حَلَبُ نُسَمَى الشَّهْبَاءِ . وَيَدْخُلُهَا جُبَانٌ يَنْبَغُ مِنْهَا الْمَاءُ .
 فَلَا تَخَافُ الظُّلَمَاءُ . وَيُطِيفُ بِهَا سُورَانِ . وَعَلَيْهَا خَنْدَقٌ عَظِيمٌ يَنْبَغُ مِنْهُ
 الْمَاءُ . وَسُورُهَا مُتَدَانِي الْأَبْرَاجِ . وَنَدَى أَنْتَضَبَتْ بِهَا الْعَلَالِي الْعَجِيبَةُ
 الْمُنْتَحَةُ الطَّبَقَانِ . وَكُلُّ بُرْجٍ مِنْهَا مَسْكُونٌ وَالطَّعَامُ لَا يَتَغَيَّرُ بِهِذِهِ الْقَلْعَةُ
 عَلَى طُولِ الْعَدِيدِ . وَبِهَا مَشْهُدٌ يَقْصِدُ بَعْضُ النَّاسِ . يُقَالُ إِنَّ الْحَلِيلَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَتَعَبَّدُ بِهِ . وَهَذِهِ الْقَلْعَةُ نُشِئَتْ قَلْعَةً رَحْبَةً مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ
 الَّتِي عَلَى الْفُرَاتِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ . وَلَمَّا قَصَدَ قَارَاتُ طَاغِيَةِ النَّزْرِ
 مَدِينَةَ حَلَبَ حَاصَرَهُ هَذِهِ الْقَلْعَةُ أَبَامَا وَنَكَّصَ عَنْهَا خَائِبًا . قَالَ أَبُو جُزَيْ
 وَفِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ يَقُولُ الْخَالِدِيُّ شَاعِرُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ
 وَخَرْفَاةٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا يَهْرُقُهَا الْعَالِي وَجَانِبُهَا الصَّغِيرُ

يَمُرُّ عَلَيْهَا الْجَوْجِبَ غَمَامِهِ وَيَلِيسُهَا عِفْدًا يَنْجِمُهُ الشَّهَبُ
 إِذَا مَا سَرَى بَرَقَ بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ كَمَا لَاحَتْ الْعَذْرَاءُ مِنْ خِلَالِ الشَّحْبِ
 فَكَمْ مِنْ جُنُودٍ قَدْ أَمَاتَتْ بِقُصَّةِ وَذِي سَطَوَاتٍ قَدْ أَبَاتَتْ عَلَى عَقَبِ
 رَجَعُ وَيُقَالُ فِي مَدِينَةِ حَلَبَ حَلَبَ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ الْحَلِيلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ
 وَسَلَامُهُ كَانَتْ يَسْكُنُهَا وَكَانَتْ لَهُ الْغَنَمُ الْكَثِيرَةُ فَكَانَ يَسْقِي الْفُقَرَاءَ
 وَالسَّائِكِينَ وَالْوَارِدَ وَالصَّادِرَ مِنَ الْبَاهِيَا. فَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ وَيَسْأَلُونَ
 حَلَبَ إِبْرَاهِيمَ فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ وَهِيَ مِنْ أَعَزِّ الْبِلَادِ الَّتِي لَا تَظِيرُ لَهَا فِي
 حُسْنِ الْوُضْعِ وَالْثِقَانِ التَّزْيِينِ وَاتِّسَاعِ الْأَسْوَاقِ وَانْتِظَامِ بَعْضِهَا بَعْضًا.
 وَأَسْوَاقُهَا مُسَفَّنَةٌ بِالْحَشَبِ. فَأَهْلُهَا دَائِمًا فِي ظِلِّ مَسْدُودٍ. وَقَبَسَارِيهَا
 لَا تُنْمَاتِلُ حُسْنًا وَكِبَرًا وَهِيَ تُحِيطُ بِمَسْجِدِهَا. وَكُلُّ بِعَاطٍ مِنْهَا يُحَادِثُ لِبَابٍ
 مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ. وَمَسْجِدُهَا الْجَمِيعُ مِنْ أَجْمَلِ الْمَسَاجِدِ. فِي صَحْنِهِ بَرَكَةٌ
 مَاءٌ وَيُطِيفُ بِهِ بِلَاطٍ عَظِيمٍ إِلَّا تَسَاعَ. وَمِنْبَرُهَا بِدِيعِ الْعَلَبِ. مُرْصَعٌ
 بِالْعَاجِ وَالْأَبْنُوسِ. وَيُقَرَّبُ جَامِعُهَا مَدْرَسَةٌ مُنَاسِبَةٌ لَهُ فِي حُسْنِ الْوُضْعِ
 وَالْثِقَانِ الصَّنِيعَةِ تُنسَبُ لِأَمْرَأَةٍ بَنِي حَمْدَانَ. وَبِالْبَلَدِ سِوَاهَا ثَلَاثُ مَدَارِسَ
 وَبِهَا مَارِسَتَانُ. وَأَمَّا خَارِجُ الْمَدِينَةِ فَهُوَ بَسِيطٌ أَفْجَحُ عَرِيضٌ بِهِ الْمَزَارِعُ
 الْعَظِيمَةُ وَشَجَرَاتُ الْأَعْنَابِ مُنْتَظِمَةٌ بِهِ. وَالْبَسَاتِينُ عَلَى شَاطِئِ نَهْرِهَا.
 وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي يَهْرُجُ بِحِمَاةٍ وَيُسَمَّى الْعَاصِي. وَقِيلَ إِنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ
 يُجْعَلُ لِنَاطِرِهِ أَنْ جَرَّ بَاتَهُ مِنْ أَسْفَلٍ إِلَى عَلْوٍ. وَالنَّفْسُ تُجَدُّ فِي خَارِجِ
 مَدِينَةِ حَلَبَ أَنْشَرَا حَاوٍ وَسُرُورًا وَنَشَاطًا لَا يَكُونُ فِي سِوَاهَا وَهِيَ مِنْ
 الْمَدِينِ الَّتِي تَصْلُحُ لِلْخَلَاقَةِ. قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ أَطْبَقَتِ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِ

تَحْسِنِ حَلَبَ وَذَكَرِ دَاخِلَهَا وَخَارِجَهَا . وَفِيهَا يَقُولُ أَبُو عِبَادَةَ الْجَعْفَرِيُّ
بَا بَرَقُ أَسْفَرُ عَنْ قُوتِي مَطَالِي حَلَبُ فَأَعْلَى الْقَصْرِ مِنْ بَطْيَاسٍ
عَنْ مَنبَتِ الْوَرْدِ الْمَعْصِرِ صِبْغُهُ فِي كُلِّ ضَاحِيَةٍ وَجَنَفِ الْأَسْرِ
أَرْضُ إِذَا اسْتَوْحَشْتُمْ بِتَذَكُّرِ حَشَدَتِ عَلِيٍّ فَأَكْثَرَتْ إِبْنَانِي
وَقَالَ فِيهَا الشَّاعِرُ الْجِدُّ أَبُو بَكْرٍ الصَّوْبَرِيُّ

سَقَى حَلَبُ الْمَزِينِ مَغْفَى حَلَبَ فَكَمْ وَصَلَتْ طَرَبًا بِالطَّرَبِ
وَكَمْ مُسْتَطَابٍ مِنَ الْعَيْشِ لَدَى بِهَا إِذَا بِهَا الْعَيْشُ لَمْ يُسْتَطَبْ
إِذَا نَشَرَ الزَّهْرُ أَعْلَامَهُ بِهَا وَمَطَارَفُهُ وَالْعَدَبُ
غَدَا وَحَوَائِشِهِ مِنْ فِضَّةٍ تَرُوقُ وَأَوْسَاطُهُ مِنْ ذَهَبٍ
ثُمَّ سَافَرْتُ إِلَى جَبَلِ لُبْنَانَ وَهُوَ مِنْ أَخْصَبِ جِبَالِ الدُّنْيَا . فِيهِ أَصْنَافُ
النَّوَكِهِ وَعُيُونُ الْمَاءِ وَالظَّلَالُ الْوَافِقُ . وَلَا يَجْلُو مِنَ الْمُنْطَظِّينَ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى وَالزَّهَادِ وَالصَّالِحِينَ وَهُوَ شَهِيدٌ بِذَلِكَ . وَرَأَيْتُ بِهِ جَمَاعَةً مِنَ
الصَّالِحِينَ قَدْ انْقَطَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَمُنُّ لَمْ يَشْهَرِ اسْمُهُ
حِكَايَةٌ

أَخْبَرَنِي بَعْضُ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ لَقِينَهُمْ بِهِ قَالَ : كُنَّا بِهَذَا الْجَبَلِ مَعَ
جَمَاعَةٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ أَيَّامَ الْبَرْدِ الشَّدِيدِ . فَأَوْقَدْنَا نَارًا عَظِيمَةً وَأَحْدَفْنَا بِهَا
فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ بَصُحْ لِهَذِهِ النَّارِ مَا بُشَوَسَ فِيهَا : فَقَالَ أَحَدُ
الْفُقَرَاءِ يَمُنُّ تَزَدَّرِيهِ الْأَعْيُنُ وَلَا يُؤْبَهُ بِهِ . إِنِّي كُنْتُ عِنْدَ صَلَوةِ الْعَصْرِ
يَسْتَعْبِدُ لِمُزْهِيمِ بْنِ أَذْمَ فَرَأَيْتُ بِمَقَرَّبَةٍ مِنْهُ حِجَارَ وَخَشِيَ قَدْ أَخَذَ قِ
الْفُلْجِ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَظْنَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْحَرَاكِ فَلَوْ دَهَبَتْ إِلَيْهِ لَقَدَرْتُمْ

عَلَيْهِ وَشَوَيْتُمْ لَحْمَهُ فِي هَذِهِ النَّارِ. قَالَ فَتَمْنَا إِلَيْهِ فِي خَمْسَةِ رَجَالٍ فَأَلْتَمْنَا
كَمَا وَصَفَ إِلَيْنَا. فَفَضَّنَاهُ وَأَتَيْنَاهُ أَصْحَابَنَا وَذَبَحْنَاهُ وَأَشْوَيْنَا لَحْمَهُ فِي
تِلْكَ النَّارِ وَطَلَبْنَا الْفَقِيرَ الَّذِي نُبَّهَ عَلَيْهِ فَلَمْ نَجِدْهُ وَلَا وَقَعْنَا لَهُ عَلَى أَثَرٍ
فَطَالَ عَجَبُنَا مِنْهُ

ثُمَّ وَصَلْنَا مِنْ جَبَلِ لُبْنَانَ إِلَى مَدِينَةِ بَعْلَبَكْ. وَهِيَ حَسَنَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ
أَطْيَبِ مَدَنِ الشَّامِ. مُخْدِقٌ بِهَا الْبَسَائِنُ الشَّرِيفَةُ. وَالْجَنَاحُ الْمُنِيفَةُ.
وَتَخْرِقُ أَرْضَهَا الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ. وَتُضَافِي دِمَشْقَ فِي خَيْرِهَا الْمُتَنَاهِيَةِ.
وَبِهَا مِنْ حَيِّ الْمُلُوكِ مَا لَيْسَ فِي سِوَاهَا. وَبِهَا يُصْنَعُ الدُّبُسُ الْمُنْسُوبُ
إِلَيْهَا وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الزُّبِّ يَصْنَعُونَهُ مِنَ الْعَسْبِ. وَلَهُمْ تَرْتِبَةٌ يَصْعُقُونَهَا فِيهِ
فَيَحْدُدُونَ تَكْسِرُ الْفُلَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا فَيَبْنِي قِطْعَةً وَاحِدَةً وَيُصْنَعُ مِنْهُ الْحُلُوكُ
وَيُجْعَلُ فِيهَا الْفُسْفُ وَاللُّوزُ وَيُسْمُونَ حُلُوكَهُ بِالْمَلْبَنِ. وَهِيَ كَثِيرَةٌ
الْأَلْبَانُ وَتُجْلَبُ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ وَبَيْنَهَا مَسِيرَةٌ يَوْمٍ لِلْحَجِّ. وَأَمَّا الرِّفَاقُ
فَيَخْرُجُونَ مِنْ بَعْلَبَكْ فَيَبْتَغُونَ بِئِلَافَةً صَغِيرَةً تُعْرَفُ بِالزُّبْدَانِي كَثِيرَةٍ
الْقَوَاكِي وَيَقْدُونَ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ. وَيُصْنَعُ بِبَعْلَبَكِ الثِّيَابُ الْمُنْسُوبَةُ
إِلَيْهَا مِنَ الْأَحْرَامِ وَغَيْرِهَا وَيُصْنَعُ بِهَا أَوَّلِي الْخَشَبِ وَمَلَاعِقُهُ الَّتِي لَا تَطِيرُ
لَهَا فِي الْيَلَادِ وَهُمْ يُسْمُونَ الصِّخَافَ بِالدُّسُوبِ وَرَبَّمَا صَنَعُوا الصَّخْنَةَ وَصَنَعُوا
صَخْنَةً أُخْرَى تَسْعُ فِي جَوْفِهَا وَأُخْرَى فِي جَوْفِهَا إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا الْعَشْرَةَ
يُجَبِّلُ لِرَائِبِهَا أَهْمًا صَخْنَةً وَاحِدَةً. وَكَذَلِكَ الْمَلَاعِقُ يَصْنَعُونَ مِنْهَا عَشْرَةَ
وَاحِدَةً فِي جَوْفِ وَاحِدَةٍ وَيَصْنَعُونَ لَهَا غِشَاءً مِنْ جِلْدٍ وَيَبْسِكُهَا الرَّجُلُ
فِي حِزْلِيهِ. وَإِذَا حَضَرَ طَعَامًا مَعَ أَصْحَابِهِ أَخْرَجَ ذَلِكَ فَيُظَنُّ رَأْيُهُ أَهْمًا

يَلْعَنَةُ وَاحِدَةً . ثُمَّ يُخْرِجُ مِنْ جَوْفِهَا نَسْعًا
وَكَانَ دُخُولِي لِعَلْبِكَ عَشِيَّةَ النَّهَارِ وَخَرَجْتُ مِنْهَا بِالْقُدْوِ لِقَرِطِ
أَشْيَاقِي إِلَى دِمَشْقَ وَوَصَلْتُ يَوْمَ الْخَمِيسِ الْتَاسِعِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ
عَامَ سِتِّهِ وَعِشْرِينَ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ الشَّامِ . فَزَلْتُ مِنْهَا بِمَدْرَسَةِ
الْمَالِكِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالشَّرَاشِيَّةِ . وَدِمَشْقُ فِي الْيَمِينِ تَفْضُلُ جَمِيعِ الْبِلَادِ حُسْنًا
وَتَفَنُّدُهَا جَمَالًا وَكُلُّ وَصْفٍ وَإِنْ طَالَ هُوَ قَاصِرٌ عَنْ مَحَاسِنِهَا . وَلَا أَبْدَعُ
يَمًا قَالَهُ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذِكْرِهَا قَالَ . وَأَمَّا
دِمَشْقُ فَفِي جَنَّةِ الْمَشْرِقِ . وَمَطْلَعُ نُورِهَا الْمَشْرِقُ . وَخَاتِمَةُ بِلَادِ الْإِسْلَامِ
الَّتِي اسْتَفْرَبَتْهَا . وَعُرُوسُ الْمَدِينِ الَّتِي أَجْنَلَتْهَا . قَدْ تَحَلَّتْ بِأَزَاهِيرِ
الرِّيَاحِينَ . وَتَجَلَّتْ فِي حُلِيِّ سُنْدُسِيَّةٍ مِنَ الْبَسَائِينِ . وَحَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِ
الْحُسْنِ بِالْمَكَانِ الْمَكِينِ . وَتَزَيَّنَتْ فِي مَنْصَنَها أَجْمَلُ تَزْيِينٍ . وَتَشَرَّفَتْ بِأَنْ
أَوَى الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمُّهُ مِنْهَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ . ظِلُّ
ظَلِيلٍ . وَمَاءٌ سَلْسِيلٍ . تَنْسَابُ مَذَانِيهِ أَنْسِيَابَ الْأَرَامِ بِكُلِّ سَبِيلٍ .
وَرِيَاضٌ بِحُجِّي النُّفُوسِ نَيْسِبَهَا الْعَلِيلُ . وَقَدْ سَيَّسَتْ أَرْضَهَا كَثْرَةَ الْمَاءِ
حَتَّى أَشْتَاقَتْ إِلَى الظُّمَاءِ . فَتَكَادُ تُنَادِيكَ بِهَا الصَّمُّ الصَّلَابُ . أَرْغَضُ
بِرَحْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَقَدْ أَحْدَقَتْ الْبَسَائِينُ بِهَا إِخْدَاقَ
أَهْلِهَا بِالْقَمَرِ . وَالْأَكْهَامُ بِالشَّمْرِ . وَامْتَدَّتْ بِشَرَفِهَا غُوطُنُهَا الْخَضْرَاءُ
أَمْدَادَ الْبَصَرِ . وَكُلُّ مَوْضِعٍ لَحِظْتَ بِحِمَايَا الْأَرْبَعِ نَضْرَتُهُ الْبَانِعَةُ قَبْدُ
النَّظَرِ . وَلِلَّهِ صِدْقُ الْفَائِلِينَ عَنْهَا . إِنْ كَانَتْ الْجَنَّةُ فِي الْأَرْضِ فِدِمَشْقُ
لَأَشْكُ فِيهَا . وَإِنْ كَانَتْ فِي السَّمَاءِ فَفِي نُسْلِمِيهَا وَتَحَاذِيهَا . قَالَ ابْنُ جُرَيْ

وَقَدْ نَظَمَ بَعْضُ شُعَرَاءِهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ
 إِنْ تَكُنْ جَنَّةُ الْخُلُودِ بِأَرْضٍ فِدَمَشْقُ وَلَا تَكُنْ سِوَاهَا
 إِنْ تَكُنْ فِي السَّمَاءِ تَبَيَّ عَلَيْهَا قَدْ أَبَدَتْ هَوَاهَا وَهَوَاهَا
 وَذَكَرَهَا شَيْخُنَا الْحَدِيثُ الرَّحَالُ شَمْسُ الدِّينِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ
 جَابِرِ بْنِ حَسَنِ الْقَبِيصِيِّ الْوَادِي أَيْضًا نَزِيلُ ثُونِسَ وَنَصَّ كَلَامَ أَهْلِ
 جَبْرِ. ثُمَّ قَالَ وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِيمَا وَصَفَ مِنْهَا وَأَجَادَ. وَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ
 لِلتَّطَلُّعِ عَلَى صُورِهَا بِهَا أَفَادَ. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بِهَا إِفَادَةٌ. فَيُعَرِّبُ عَنْهَا
 بِحَقِيقَةِ عِلَامَةٍ. وَلَا وَصَفَ ذَهَبَاتٍ أَصِيلَهَا. وَقَدْ حَانَ مِنَ الشَّمْسِ
 غُرُوبُهَا. وَلَا أَزْمَانَ جُفُولِهَا الْمُنَوَّعَاتِ. وَلَا أَوْقَاتَ سُورِهَا الْمُنْبَهَاتِ.
 وَقَدْ أَخْنَصَ مَنْ قَالَ الْفَنَاءُ كَمَا نَصَفَ الْأَلْسُنُ. وَفِيهَا مَا تَشْبِهُهُ الْأَنْفُسُ
 وَتَلْدُ الْأَعْيُنُ. قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ وَالَّذِي قَالَتْهُ الشُّعْرَاءُ فِي وَصْفِ مُحَاسِنِ
 دِمَشْقَ لَا يَحْصُرُ كَثْرَةً. وَكَانَ وَالِدِي رَحِمَهُ اللَّهُ كَبِيرًا مَا يُنْشِدُ فِي
 وَصْفِهَا هَذِهِ الْآيَاتُ وَهِيَ لِشَرَفِ الدِّينِ بْنِ مُحْسِنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 دِمَشْقُ بِي شَوْقٍ إِلَيْهَا مَبْرُحٌ وَإِنْ لَمْ وَاشِ أَوْ أَلَمْ عَدُولُ
 بِأَلَدِهَا أَحْصَاهُ دُرٌّ وَتَرْتِهَا عَيْدٌ وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شَمُولُ
 تَسْلَسِلُ فِيهَا مَاؤُهَا وَهُوَ مُطْلَقٌ وَصَحَّ نَسِيمُ الرُّوْضِ وَهُوَ عَلِيلُ
 وَهَذَا مِنَ النَّظْمِ الْعَالِي مِنَ الشُّعْرِ. وَقَالَ فِيهَا عَرَفَلَةُ الدِّمَشْقِيِّ الْكَلْبِيِّ
 الشَّامُ شَامَةٌ وَجَنَّةُ الدُّنْيَا كَمَا إِنْسَانُ مُقْلَبُهَا الْغَضَبَةُ جِلْقُ
 مِنْ أَسِيهَا لَكَ جَنَّةٌ لَا تَنْفُضِي وَمِنْ الشَّقِيقِ جَهَنَّمُ لَا تُحْرِقُ
 وَلَهُ فِيهَا أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ سِوَى ذَلِكَ. وَقَالَ فِيهَا أَبُو الْوَحْشِيِّ سَبْعُ بَنٍ

خَلَقِ الْأَسَدِيَّ

سَقَى دِمَشْقَ اللَّهِ غَيْثًا مُحْسِنًا مِنْ مُسْتَهْلٍ دِيْمَةٍ دِهَافِهَا
 مَدِينَةٌ لَيْسَ يَضَاهِي حُسْنُهَا فِي سَائِرِ الدُّنْيَا وَلَا آفَافِهَا
 تَوَدُّ زَوْرَاءَ الْعِرَاقِ أَنَّهَا مِنْهَا وَلَا نُعَزَّزُهُ إِلَى عِرَافِهَا
 فَأَرْضُهَا يَنْثُلُ السَّمَاءُ بِهَيْجَةٍ وَزَهْرُهَا كَالزُّهْرِ فِي إِشْرَافِهَا
 نَسِيمُ رَوْضِهَا مَتَى مَا قَدْ سَرَى فَكَّ أَخَا الْهُمُومِ مِنْ وَثَافِهَا
 قَدْ رَتَعَ الرَّيْعُ فِي رُبُوعِهَا وَسَبَقَتْ الدُّنْيَا إِلَى أَسَوَافِهَا
 لَا تَسَامُ الْعَيُونُ وَالْأَنْوُفُ مِنْ رُؤْيِهَا يَوْمًا وَلَا أَسْتَنْشَافِهَا

انتهى المتن من ابن بطوطة



مِنْ كِتَابِ
عَجَائِبِ الْخُلُوقَاتِ وَغَرَائِبِ الْمَوْجُودَاتِ لِلشَّيْخِ الْإِمَامِ
مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقَزْوِينِيِّ

النَّظَرُ فِي الْكَائِنَاتِ وَهِيَ الْأَجْسَامُ الْمَتَوَلِّدَةُ مِنَ الْأُمَمَاتِ

فَنَقُولُ الْأَجْسَامُ الْمَتَوَلِّدَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ نَائِمَةً أَوْ غَيْرَ نَائِمَةٍ فَإِنْ لَمْ
تَكُنْ نَائِمَةً فَفِي الْمَعْدِنِيَّاتِ وَإِنْ كَانَتْ نَائِمَةً فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ لَهَا قُوَّةُ الْحَيَاةِ
وَالْحَرَكَةِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَفِي النَّبَاتِ وَإِنْ كَانَتْ فَفِي الْحَيَوَانَاتِ
وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَا تَسْجِلُ إِلَيْهِ الْأَرْكَانُ الْأَنْبَجِيُّ وَالْعَصَارَاتُ وَالْبَحَارُ مَا
بَصْعَدُ مِنْ لَطَائِفِ مِيَاهِ الْبَحْرِ وَالْأَجَامِ وَالْأَنْهَارِ مِنْ تَسْفِيفِ الشَّمْسِ
وَالْعَصَارَاتُ مَا يَجْلِبُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ مِنْ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ وَتَخْتَلِطُ
بِالْأَجْزَاءِ الْأَرْضِيَّةِ وَتَغْلُظُ وَتُنْفِجُهَا الْحَرَارَةُ الْمُسْتَبِطِنَةُ فِي عُمُقِ الْأَرْضِ
فَقَصِيرُهَا مَادَّةُ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَأَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا
بِالْبَعْضِ بِتَرْتِيبٍ عَجِيبٍ وَنِظَامٍ بَدِيعٍ تَعَالَى صَانِعُهَا عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ
وَالْمُجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَأَوَّلُ مَرَاتِبِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ تَرَابٌ وَآخِرُهَا
نَفْسٌ مُلَكِّيَّةٌ طَاهِرَةٌ فَإِنَّ الْمَعَادِنَ مُتَّصِلَةٌ أَوَّلُهَا بِالتَّرَابِ أَوْ الْمَاءِ وَآخِرُهَا
بِالنَّبَاتِ. وَالنَّبَاتُ مُتَّصِلٌ أَوَّلُهُ بِالْمَعَادِنِ وَآخِرُهُ بِالْحَيَوَانِ. وَالْحَيَوَانُ
مُتَّصِلٌ أَوَّلُهُ بِالنَّبَاتِ وَآخِرُهُ بِالْإِنْسَانِ. وَالنُّفُوسُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَّصِلَةٌ

أُولَٰهَا بِالْحَبْوَانِ وَآخِرُهَا بِالنَّفُوسِ الْمَلَكِيَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
النَّظَرُ الْأَوَّلُ فِي الْمَعْدِنِيَّاتِ

الْمَعْدِنِيَّاتُ فِي أَجْسَامٍ مَتَوَلِّدَةٍ مِنَ الْأَنْجَوِيَّةِ وَالْأَذْيَنَةِ تَحْتَ الْأَرْضِ
إِذَا اخْتَلَطَتْ عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ الْأَخْيَلَاتِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الْكَمِّ وَالْكَثْفِ
وَهِيَ إِمَّا قَوِيَّةُ التَّرَكِيبِ أَوْ ضَعِيفَةُ التَّرَكِيبِ. وَقَوِيَّةُ التَّرَكِيبِ إِمَّا أَنْ
تَكُونَ مُنْطَرِقَةً أَوْ لَمْ تَكُنْ وَالْمُنْطَرِقَةُ فِي الْأَجْسَادِ السَّبْعَةِ. أَعْنِي الذَّهَبَ
وَالنِّصَّةَ وَالنَّحَاسَ وَالرَّصَاصَ وَالْحَدِيدَ وَالْأَسْرَبَ وَالْخَارِصِيَّ. وَالَّتِي
لَا تَكُونُ مُنْطَرِقَةً فَقَدْ تَكُونُ فِي غَايَةِ اللَّيْنِ كَالزُّبْنِيِّ وَقَدْ تَكُونُ فِي غَايَةِ
الصَّلَابَةِ كَالْبَاقُوْتِ. وَضَعِيفَةُ التَّرَكِيبِ قَدْ تَحُلُّ بِالرُّطُوبَاتِ وَهِيَ الْأَجْسَامُ
الْحَلِجَةُ كَالزَّاجِ وَالنُّشَادِرِ وَقَدْ لَا تَحُلُّ بِهَا وَهِيَ الْأَجْسَامُ الدُّفِينَةُ
كَالزَّرْنِجِ وَالْكَبْرِيتِ

وَالْأَجْسَادُ السَّبْعَةُ إِمَّا تَتَوَلَّدُ مِنْ اخْتِلَاطِ الزُّبْنِيِّ بِالْكَبْرِيتِ عَلَى
اخْتِلَافٍ فِي الْكَمِّ وَالْكَثْفِ. وَالزُّبْنِيُّ يَتَوَلَّدُ مِنْ أَجْزَاءِ مَا يُنْفَخُ اخْتَلَطَتْ
بِأَجْزَاءِ أَرْضِيَّةٍ لَطِيفَةٍ كَبْرِيتِيَّةٍ. وَالْكَبْرِيتُ لَطِيفٌ يَتَوَلَّدُ مِنْ أَجْزَاءِ مَا يُنْفَخُ
وَهُوَ أَيْضًا وَأَرْضِيَّةٌ تُنْضِجُهَا حَرَارَةُ قُوَّةٍ حَتَّى صَارَ مِثْلَ الذَّهَبِ. وَأَمَّا
الْأَجْسَادُ الصَّلْبَةُ الشَّقَافَةُ فَتَتَوَلَّدُ مِنْ مِيَاءٍ عَذْبَةٍ وَقَعَتْ فِي مَعَادِنِهَا
الْمِجَارَةُ الصَّلْدَةُ زَمَانًا طَوِيلًا حَتَّى غَلِظَتْ وَصَفَتْ وَأَنْفَجَتْهَا حَرَارَةُ
الْمَعْدِنِ بِطَوِيلِ وَقُوفِهَا. وَأَمَّا غَيْرُ الشَّقَافَةِ فَمِنْ أَمْتِزَاجِ الْمَاءِ بِالطِّينِ إِذَا
كَانَتْ فِيهِ لُزُوجَةٌ وَأَثَرَتْ فِيهِ حَرَارَةُ الشَّمْسِ بِطَوِيلِهِ. وَأَمَّا الْأَجْسَامُ
الَّتِي تَحُلُّ بِالرُّطُوبَاتِ فَمِنْ مَاءٍ مُخْتَلِطٍ بِأَجْزَاءِ أَرْضِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ بِأَيْسَرِ

أَخْلَطَا شَدِيدًا. وَأَمَّا الْأَجْسَامُ الدَّهْنِيَّةُ فَمِنْ الرُّطُوبَاتِ الْمُحْتَنِيَةِ فِي
بَاطِنِ الْأَرْضِ إِذَا اخْتَوَتْ عَلَيْهَا حَرَارَةُ الْمَعْدِنِ حَتَّى تَحُلَّتْ وَلَطَفَتْ
وَأَخْلَطَتْ بِنُورِيَةِ الْقَاعِ وَحَرَارَةِ الْمَعْدِنِ دَائِمًا فِي نَفْجِهَا وَطَبْخِهَا حَتَّى
تَزْدَادَ غِلَظًا وَصَارَتْ مِثْلَ الدَّهْنِ

النَّظَرُ الثَّانِي فِي النَّبَاتِ

النَّبَاتُ مُوَسِّطٌ بَيْنَ الْمَعَادِنِ وَالْحَيَوَانِ بِمَعْنَى أَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ نَقْصَانِ
الْجِهَادِيَةِ الصَّرْفَةِ الَّتِي لِلْمَعَادِنِ وَغَيْرُهَا وَاصِلٌ إِلَى كَمَالِ الْحَيِّ وَالْحَرَكَةِ
الَّتِي أَخْصَصَهَا الْحَيَوَانُ. لَكِنَّهُ يُشَارِكُ الْحَيَوَانُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ لِأَنَّ
الْبَارِيَّ تَعَالَى يَخْلُقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَلَاءِ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهَا فِي بَقَاءِ ذَاتِهِ
وَنَوْعِهِ وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ يَكُونُ ثَقَلًا وَكَلَالَةً لَا يَخْتَلِفُهُ وَلَا حَاجَةَ لِلنَّبَاتِ
إِلَى الْحَيِّ وَالْحَرَكَةِ بِخِلَافِ الْحَيَوَانِ

وَمِنْ عَجَبِ صُنْعِ الْبَارِيَّ تَعَالَى أَنَّ الْحَبَّ وَالنَّوَى إِذَا حَصَلَ فِي تَرْبُوَةِ
مَدْبِيَةٍ وَأَصَابَهَا حَرُّ الشَّمْسِ انْشَقَّ وَجَدَبًا بِقُوَّةِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا
الْأَجْزَاءَ اللَّطِيفَةَ الْأَرْضِيَّةَ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَائِيَّةَ مِنَ الْمَاءِ. ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ
الْأَجْزَاءَ بَدَأَتْ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِوَسِطَةِ قُوَى خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا حَتَّى
يَصِيرَ الْحَبُّ نَجْمًا بِالْعَادَا عُرُوقٍ وَفُضْبَانٍ وَأُورَانٍ وَأَزْهَارٍ وَحَبِّ النَّوَى
شَجَرًا عَظِيمًا ذَا عُرُوقٍ وَسَاقٍ وَأَغْصَانٍ وَأُورَانٍ وَشَرْعٍ. وَالنَّبَاتُ فِيمَا بَيْنَ
شَجَرٍ وَنَجْمٍ

١٠٠ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الشَّجَرُ

الشَّجَرُ هُوَ كُلُّ مَالَةٍ سَاقٍ مِنَ النَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ الْعِظَامُ يُمَثِّلُهَا الْحَيَوَانَاتُ الْعِظَامُ وَالْجُودُ يُمَثِّلُهَا الْحَيَوَانَاتُ الصَّغِيرُ وَالْأَشْجَارُ الْعِظَامُ لَا تُدْرِكُهَا كَالسَّاجِ وَالذَّلْبِ وَالْعَرَعِ لِأَنَّ الْمَادَّةَ كُلَّهَا صُرِفَتْ إِلَى نَفْسِ الشَّجَرِ وَلَا كَذَلِكَ الْأَشْجَارُ الْمَشْمُوعَةُ فَإِنَّ مَادَّتَهَا صُرِفَتْ إِلَى الشَّجَرِ وَالشَّمْعِ وَبَشِيرَةٍ حَالِهَا حَالُ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ مِنَ الْحَيَوَانِ فَإِنَّ الذُّكْرَانَ أَكْثَرَ بَدَنًا مِنَ الْإِنَاثِ لِأَنَّ بَعْضَ مَوَادِّ الْإِنَاثِ يُصْرَفُ إِلَى الْأُجْنَةِ

وَمِنْ عَجَبِ صُنْعِ الْبَارِي تَعَالَى خَلَقَ الْأَوْرَاقَ عَلَى الْأَشْجَارِ رُبَّةً لَهَا وَوَقَايَةً لِلنَّارِ مِنْ نِكَايَةِ الشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهَا مَرْتَبَةً عَنِ الشَّجَرِ مُتَفَرِّقَةً بَعْضُ التَّفَرُّقِ لَا مُتَكَافِئَةً عَلَيْهَا وَلَا يَبْعِدُ عَنْهَا لِتَأْخُذَ الشَّجَرُ مِنَ النَّسِيمِ نَارَةً وَمِنْ الشَّمْسِ نَارَةً أُخْرَى. فَلَوْ تَكَافَأَتْ عَلَيْهَا حَتَّى مَنَعَتْهَا إِصَابَةُ النَّسِيمِ وَشُعَاعِ الشَّمْسِ لَكُنَيْتَ عَلَى فُجَاجَتِهَا غَلِيظَةً الْجِلْدِ قَلِيلَةً الْمَاءِ. وَإِذَا سَقَطَ عَنْهَا بَعْضُ الْوَرَقِ أَصَابَهَا الشَّمْسُ وَاحْرَقَتْهَا كَمَا تَرَى فِي الرُّمَانَةِ الَّتِي أَحْتَرَقَ مِنْهَا أَحَدُ الْجَوَانِبِ. ثُمَّ إِذَا فَرَّغَتْ الشَّجَرُ تَنَاقَرَتِ الْأَوْرَاقُ حَتَّى لَا تُجَذَّبَ مَائِيَّةُ الشَّجَرِ فَتَضَعُ قُوَّتَهَا كَمَا تَرَى فِي الْحَيَوَانِ فَإِنَّ الْأُمَّ تَضَعُ مِنْ إِرْصَاعِ أَوْلَادِهَا

وَلَتَذْكُرُ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْجَارِ مَرْتَبَةً عَلَى الْمُعْجَمِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

ذَلْبٌ. مِنْ أَكْثَرِ الْأَشْجَارِ وَأَعْلَاهَا وَأَبْنَاهَا فَإِذَا طَالَتْ مُدَّتُهَا تَنَتَّ

جَوْفُهَا وَيَبْقَى سَافَهَا مُحَرَّقًا وَوَرَفُهَا تَهْرُبُ مِنْهُ الْخَنَافِسُ وَبَعْضُ الطُّيُورِ
تَجْعَلُهَا فِي أَوْكَارِهَا لِدَفْعِ الْخَنَافِسِ فَإِنَّمَا تَمُوتُ مِنْهَا وَإِذَا غُسِلَ وَطُحِجَ
وَضُمِدَ بِهِ حَبَسَ النَّوَازِلَ عَنِ الْعَيْنِ. فَشَرُّهَا مَطْبُوحًا بِالْحُلِّ يَنْفَعُ مِنْ حَرِّ
النَّارِ وَوَجَعَ الْأَسْنَانِ. ثَمَرُهَا يُقَالُ لَهَا جَوْزُ السِّرِّ وَمَعَ الشَّعْرِ ضَمَادٌ جَيِّدٌ
لِنَهَشِ الْهَوَامِ.

فُلْفُلٌ. شَجَرَةٌ تَنْبُتُ بِالْهِنْدِ بِنَاحِيَةٍ مِنْهَا تَسَمَّى مَلْيَارَ وَهِيَ شَجَرَةٌ عَالِيَةٌ
لَا يَزُولُ أَلْمَاءُ مِنْ تَحْتِهَا إِذَا هُبَّتِ الرِّيحُ تَسَاقَطَتْ جُوبُهَا عَلَى وَجْهِ
أَلْمَاءٍ فَتَجْمَعُ مِنْهُ وَلِذَلِكَ فَسْحَةٌ وَهِيَ شَجَرَةٌ حُرَّةٌ لَا مَلِكَ لِأَحَدٍ فِيهَا
وَحَمَلُهَا عَلَيْهَا شَيْئًا وَصَبَتَا وَهُوَ عَنَافِيدُ. فَإِذَا حَمِيَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهَا انْطَبَقَتْ
عَلَى عَنُقُوذٍ مِنْهَا أَوْ رَاقٍ حَتَّى لَا يَخْتَرِقَ بِالشَّمْسِ فَإِذَا زَالَتِ الشَّمْسُ عَنْهَا
زَالَتِ الْأَوْرَاقُ عَنِ الْعَنَافِيدِ لِنَتَالِ النَّسِيمِ. وَذَكَرَ مَنْ رَأَاهَا أَنَّ فَجَرَهَا
مِثْلُ شَجَرَةِ الرُّمَانِ وَبَيْنَ الْوَرَقَتَيْنِ شِمْرَاخَانِ مَنْظُومَانِ بِالْفُلْفُلِ وَشِمْرَاخُهُ
فِي طُولِ الْأَصْبَعِ. قَالَ جَالِينُوسُ أَوَّلَ مَا تَطْلُعُ ثَمَرُهَا تَكُونُ دَارَ
فُلْفُلٍ ثُمَّ تَنْفَصِلُ عَنْ حَبٍّ يَكُونُ هُوَ الْفُلْفُلُ

قَرْنَفُلٌ. شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي بَعْضِ جَزَائِرِ الْهِنْدِ ثَمَرُهَا كَأَلْبَا سَمِينٍ إِلَّا
أَنَّهَا أَشَدُّ سَوَادًا. وَذَكَرُوا أَنَّ أَهْلَ نَلَكِ الْحَزْبَرَةِ لَا يَخْرِجُونَهَا إِلَّا مَطْبُوحَةً
لِيَلَا تَنْبُتَ فِي غَيْرِهَا مِنْ أَلْيَادٍ

نَارَجِيلٌ. هُوَ الْجَوْزُ الْهِنْدِيُّ زَعَمَ أَهْلُ الْإِنْدِ أَنَّ شَجَرَةَ النَّارَجِيلِ هِيَ
الْبَقْلُ لَكِنَّهَا أَثْمَرَتِ نَارَجِيلًا لِيَطْبَاعِ النَّارِيَةِ وَالْأَهْوِيَةِ. عَلَى ثَمَرَيْهَا لَيْفٌ
يُخَذُ مِنْهُ الْإِنْبَالُ تُسْتَعْمَلُ فِي سُفْنِ الْبَحْرِ تَصْبِرُ عَلَى أَلْمَاءِ طَوِيلًا لَا تَتَعَنَّ.

لَبَنَهَا لَذِيذٌ كَثِيرٌ مِّنَ الْحَلَاوَةِ إِذَا كَانَ رَطْبًا
 نَخْلٌ شَجَرَةٌ مَّبَارَكَةٌ لَا تَوْجَدُ إِلَّا بِيَلَادِ الْإِسْلَامِ قَالَ عَنْهُمْ النَّخْلَةُ
 وَإِنَّمَا سَمَّيَاهَا عَمْتًا لِأَنَّهَا خَلِفَتْ مِنْ فَضْلَةِ عِلِينَ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ
 نُشْبَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْتِ اسْتِقَامَةِ قَدِّهَا وَطُولِهَا وَامْتِنَازِ ذِكْرِهَا عَنْ
 أَتْنَاهَا وَأَخْصَاصِهَا بِالْفَنَاجِ. وَلَوْ قُطِعَ رَأْسُهَا هَلَكَتْ. لَطَلْعُهَا غِلَافٌ
 كَالْمِشِيمَةِ أَلَيَّ يَكُونُ الْوَلَدُ فِيهَا. وَالْجَارُ الَّذِي عَلَى رَأْسِهَا لَوْ أَصَابَهُ آفَةٌ
 هَلَكَتْ النَّخْلَةُ كَهَيْئَةِ مَخِ الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ آفَةٌ. وَإِذَا قُطِعَ مِنْهَا غُصْنٌ
 لَا يَرْجِعُ بِدَلَّةِ كَعُضْوِ الْإِنْسَانِ وَعَلَيْهَا لَيْفٌ كَشَعْرِ يَكُونُ عَلَى الْإِنْسَانِ
 قَالَ صَاحِبُ الْفَلَاحَةِ إِذَا لَمْ يُمْضِ شَيْءٌ مِنَ النَّخْلِ بِأَخْذِ رَجُلٍ قَاسًا
 وَيَقْرُبُ مِنْهَا وَيَقُولُ لِعَبْدِي إِنِّي أُرِيدُ قَطْعَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ لِأَنَّهَا لَا تُشِيرُ.
 فَيَقُولُ الْآخَرُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهَا تُنْفِرُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ إِنَّهَا
 لَا تَفْعَلُ شَيْئًا وَبَضْرِبُهَا ضَرْبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَيُبْسِكُ الْآخَرَ بِيَدِهِ وَيَقُولُ
 لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ حَسَنَةٌ وَأَصْبَرُ عَلَيْهَا هَذِهِ السَّنَةَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَافْعَلْ مَا
 بَدَأَ لَكَ. قَالَ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنَّ الشَّجَرَةَ تُشِيرُ ثَمَرًا كَثِيرًا وَكَذَلِكَ
 غَيْرُ النَّخْلِ مِنَ الْأَشْجَارِ إِذَا فَعَلَ بِهِ هَذَا فَإِنَّهُ يُشِيرُ. قَالَ أَيْضًا إِذَا قَارَبْتَ
 بَيْنَ ذُكْرَانِ النَّخْلِ وَنَايِيهَا فَإِنَّهَا تَكْثُرُ حَمْلُهَا لِأَنَّهَا تَسْتَأْنِسُ بِالْجَاوِرَةِ
 وَرُبَّمَا قُطِعَ إِلَيْهَا مِنَ الذُّكْرَانِ فَلَا تَحْمِلُ شَيْئًا لِفِرَاقِهِ. وَإِذَا غَرَسْتَ
 الذُّكْرَانَ وَسَطَ الْأَنَابِ وَهَبْتَ الرِّيحَ فَخَالَطَتْ الْأَنَابُ رَائِحَةَ طَلْعِ
 الذُّكْرَانِ حَمَلَتْ مِنْ نِلْكَ الرَّائِحَةِ كُلُّ أَنْفَى حَوْلَهُ

الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ النَّبَاتِ النُّجُومُ

الْقِسْمُ كُلُّ نَبَاتٍ لَيْسَ لَهُ سَائِقُ صُلْبٌ مُرْتَفِعٌ مِثْلُ الزُّرُوعِ وَالْبُتُولِ
وَالرَّيَاحِينَ وَالْحَشَائِشِ الْبَرِّيَّةِ..... وَمِنَ الْأُمُورِ الْعَجِيبَةِ الْقُوَّةُ الَّتِي
خَلَقَهَا اللَّهُ فِي نَفْسِ الْحَبِّ فَإِنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ فِي الْأَرْضِ جَذَبَتْ بِوَاسِطَةِ
تِلْكَ الْقُوَّةِ الرُّطُوبَةَ مِنْ نَفْسِ الْأَرْضِ بِمَا حَوْلَهَا كَمَا تَجَذِبُ شُعْلَةُ النَّارِ
فِي السِّرَاجِ تِلْكَ الرُّطُوبَةَ فَتَعْمَلُ فِيهَا الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةُ بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى
حَتَّى تَبْلُغَ كَمَا كَمَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَالنُّجُومُ فِي النَّبَاتِ كَالْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرِ
فِي الْحَيَوَانَاتِ الْكَبِيرِ فَمَا أَنَّ عِنْدَ شَيْءٍ الْبَرْدَ لَا يَبْقَى مِنْ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي
لَا عِظَمَ لَهَا شَيْءٌ فَكَذَلِكَ لَا يَبْقَى مِنَ النَّبَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا خَشَبٌ صُلْبٌ
شَيْءٌ

وَأَعْلَمُ أَنَّ عُقُولَ الْعَالَمِ مُتَّحِدَةٌ فِي أَمْرِ الْحَشَائِشِ وَعَجَائِبِهَا وَأَفْهَامُ
الْأَذْكِيَاءِ فَاصِرَةٌ عَنْ ضَبْطِ خَوَاصِهَا وَفَوَائِدِهَا وَكَيْفَ لَامَعَ مَا يُشَاهَدُ مِنْ
اخْتِلَافِ صُورِ فِضَائِلِهَا وَاخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَعَجِيبِ صُورِ أَوْرَاقِهَا
وَأَزْهَارِهَا. وَكُلُّ لَوْنٍ مِنْهَا يَنْتَسِمُ إِلَى أَقْسَامِ كَالْمُحْمَرِّ مِثْلًا فَإِنَّهَا وَرْدِيَّةٌ
وَأَرْجَوَانِيَّةٌ وَسُوسِيَّةٌ وَشَفَائِغِيَّةٌ وَأَذْرَبُونِيَّةٌ وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَعَ أَشْرَافِهِ
كُلِّهَا فِي الْمَحْمَرِّ. ثُمَّ عَجَائِبُ رَوَائِجِهَا وَمَخَالَفَةُ بَعْضِهَا بَعْضًا مَعَ أَشْرَافِهِ
الْكُلِّ فِي الطَّيْبِ. ثُمَّ عَجَائِبُ أَشْكَالِ حُبُوبِهَا فَإِنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَكْلًا
وَرَقًّا وَعِرْقًا وَزَهْرًا وَلَوْنًا وَطَعْمًا وَرَائِحَةً وَخَاصِيَّةً بَلْ خَاصِيَّاتٍ
لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَالَّتِي عَرَفَهَا الْإِنْسَانُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا لَمْ يَعْرِفْهُ

كَفَطَرَهُ مِنْ بَحْرٍ. وَلَنَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ خَوَاصِّهَا مُرْتَبَةً عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

يِيشُ. نَبَاتٌ يَنْبُتُ بِأَرْضِ الْهِنْدِ نِصْفُ دِرْهَمٍ مِنْهُ سَمٌّ قَاتِلٌ وَعَلَامَتُهُ
أَنَّهُ بَعْرِضُ لَيْلٍ سَفِي مِنْهُ جُحُوطُ الْعَيْنِ وَوَرَمُ الشَّفَتَيْنِ وَاللِّسَانِ وَالذُّوَارِ
وَالْعُشْيُ. وَالسَّمَاءُ يَعْتَلِفُ مِنْهُ وَلَا بَضْرُهُ شَيْئًا وَكَذَلِكَ قَارَةُ الْيِيشِ وَهُوَ
حَيَوَانٌ يَسْكُنُ فِي أَصْلِهِ وَيَأْكُلُ مِنْهُ. قَالَ ابْنُ سِينَا إِنَّهُ يَذْهَبُ الْبَرَصَ
طِلَاقًا وَشَرْبًا وَيَنْفَعُ مِنَ الْجَذَامِ وَهُوَ سَمٌّ قَاتِلٌ يَمُتُّ مِنْهُ نِصْفُ دِرْهَمٍ
وَنَزِيْقُهُ قَارَةُ الْيِيشِ

دِفْلَى. مِنْهُ بَرِّيٌّ وَنَهْرِيٌّ قَالِ بَرِّيٌّ وَرَقُهُ كَوَرَقِ الْحُمَفِيِّ بَلْ أَدْقَى
وَفَضْبَانُهُ طَوَالٌ مُنْبَسِطَةٌ عَلَى الْأَرْضِ يَنْبُتُ فِي الْخَرَابَاتِ. وَالنَهْرِيٌّ عَلَى
شُطُوطِ الْأَنْهَارِ وَتَنْهَضُ فِضْبَانُهُ عَلَى الْأَرْضِ وَشَوْكُهُ خَفِيفٌ وَرَقُهُ
كَوَرَقِ الْخُلَافِ وَأَعْلَى سَافِهِ أَغْلَظُ مِنْ أَسْفَلِهِ وَفَنَاحُهُ كَالْوَرْدِ الْأَحْمَرِ
وَكَبَرَتُهُ صَلْبَةٌ مَحْشُورَةٌ شَيْئًا كَالصُوفِ. قَالَ ابْنُ سِينَا وَرَقُهُ تَهْرَبُ مِنْهُ
الْبَرَاغِيثُ وَكُلُّهُ يَمُتُّ أَكْبَلَهُ مِنْ جَمِيعِ بَنِي آدَمَ وَسَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ

قَالَ بَلْنِيَّاسُ عَلِمَ بَعْضُ الْمُلُوكِ بَعْدُوهُ قَصْدًا فِي عَسْكَرٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ
فَأَخَذَ مِنَ الشَّعِيرِ وَطَبَخَهُ بِالْذِفْلَى وَتَرَكَهُ حَتَّى جَفَّ وَأَخَذَ الشَّعِيرَ مَعَهُ
وَخَرَجَ إِلَى وَجْهِ الْعَدُوِّ. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الْعَدُوِّ نَفَخَ عَنْهُ وَتَرَكَ الْأَنْتَالِ
وَالْبِيدَةَ وَالشَّعِيرَ. فَوَرَدَ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ وَأَطْلَقُوا دَوَاهِمَهُمْ فِي الشَّعِيرِ فَهَلَكَتْ
كُلُّهَا فَفَكَرَ عَلَيْهِمْ وَأَسْرَفَهُمْ

فِتْنَةٌ. قَالَ صَاحِبُ الْفَلَاحَةِ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ الْفِتْنَاءُ عَلَى صُورَةٍ

شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَخُذْ قَالِبًا لِلصُّورَةِ الَّتِي ارْذَتْ وَاجْعَلْهَا فِيهِ وَهِيَ
صَغِيرَةٌ وَأَسْتَوِثِقِي مِنْهَا رَبْطًا يَحْبُثُ لَا يَدْخُلُ الْقَالِبُ رِيحٌ وَلَا غُبَارٌ
فَإِنَّهَا إِذَا عَظُمَتْ فِيهَا كَانَتْ عَلَى صُورَةِ الْقَالِبِ الَّذِي جَعَلْتَهَا فِيهِ

النُّظَرُ الثَّلَاثُ

فِي الْحَيَوَانِ

أَمَّا الْحَيَوَانُ فَبِالْمَرْتَبَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْكَائِنَاتِ وَأَبْعَدُ الْمَوْلَدَاتِ عَنْ
الْأَمْهَاتِ لِأَنَّ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى لِلْمَعَادِنِ وَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى الْحِمَايَةِ لِقُرْبِهَا
مِنَ الْبَسَائِطِ. وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ لِلنَّبَاتِ فَإِنَّهَا مَتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الْمَعَادِنِ
لِحُصُولِ النَّشْءِ وَالنَّمُوِّ وَفَوَاتِ النَحْسِ وَالْحَرَكَةِ. وَالْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ لِلْحَيَوَانِ
فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ النَّشْءِ وَالنَّمُوِّ وَالنَحْسِ وَالْحَرَكَةِ. وَهَذِهِ قُوَى مَوْجُودَةٌ
فِي جَمِيعِ أَفْرَادِ الْحَيَوَانِ حَتَّى فِي الدُّبَابِ وَالْبَعُوضِ

وَأَمَّا النَحْسُ فَلَا يَلْزَمُ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَضَى لِكُلِّ حَيَوَانٍ أَمَدًا مَعْلُومًا.
وَأَبْدَانُ الْحَيَوَانِ مُتَعَرِّضَةٌ لِلْأَقَاتِ الْمُنْهِكَةِ لَهَا الْمَهْلِكَةُ إِيَّاهَا فَانْقَضَتْ
الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لَمَّا الْقُوَى الْإِحْسَاسِيَّةُ لَتَشْعُرَ بِوَاسِطَتِهَا بِالْمَنَافِي فَتَدْفَعُهُ
عَنْ نَفْسِهَا إِذَا أَحَسَّتْ بِأَلِيمِهِ. فَلَوْلَا هَذِهِ الْقُوَى لَمَّا أَحَسَّ الْحَيَوَانُ بِالْجُوعِ
إِلَى أَنْ مَاتَ بَغْنَةً فَجَاءَهُ مِنْ عَدَمِ الْغِذَاءِ وَلَكَانَ إِذَا نَامَ فَأَصَابَ يَدُهُ أَوْ
رِجْلُهُ نَارٌ لَمْ يَكُنْ يُحْسِثُ بِهِ حَتَّى يَنْثَبِهُ مِنْ نَوْمِهِ فَإِذَا هُوَ يَلَا يَدٍ أَوْ رِجْلٍ.
وَأَمَّا الْحَرَكَةُ فَلِأَنَّ الْحَيَوَانَ لَمَّا كَانَ مُخْتَاجًا إِلَى الْغِذَاءِ وَلَمْ يَكُنْ غِذَاؤُهُ
يَحْتَبِيهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ انْقَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لَهُ آلَاتُ الْحَرَكَةِ
لِيَتَحَرَّكَ بِهَا إِلَى الْغِذَاءِ. وَلَوْلَا هَذِهِ الْقُوَى وَاحْتِاجُ الْحَيَوَانِ إِلَى الْغِذَاءِ وَلَمْ

يُنْذِرُ عَلَى الْمَشْيِ إِلَيْهِ فَمَاتَ جُوعًا كُتِبَ لَهُ لَا يَجِدُ الْمَاءَ حَتَّى تَجِفَّ وَلَكَانَ
إِذَا أَصَابَهُ آفَةٌ مِنْ حَرِّ أَوْ غَرَقٍ يَفِي عَلَى مَكَانِهِ حَتَّى أَذَرَ كُهُ الْحَرَقُ أَوْ
الْفَرَقُ

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ بَعْضُهَا عَدُوًّا لِبَعْضٍ أَفْتَضَّتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ
لِكُلِّ حَيَوَانٍ آلَةً يَحْفَظُ بِهَا نَفْسَهُ مِنْ عَدُوِّهِ. فَمِنْهَا مَا يَذْفَعُ الْعَدُوَّ بِالْقُوَّةِ
وَالْبِقَاوَةِ كَالْفِيلِ وَالْجَمُوسِ وَالْأَسَدِ. وَمِنْهَا مَا يَسْلُمُ مِنْ عَدُوِّهِ بِالْفِرَارِ
فَأُعْطِيَ آلَةُ الْفِرَارِ كَالطَّبَاءِ وَالْأَرَابِ وَالطُّيُورِ. وَمِنْهَا مَا يَحْفَظُ نَفْسَهُ
بِالسَّلَاحِ كَالنَّمْلَةِ وَالشَّيْخِ وَالسُّلْخَنَاءِ. وَمِنْهَا يَحْفَظُ نَفْسَهُ بِمُحْضٍ كَالْفَأْرِ
وَالْحِمَى وَالْمَوَامِ. وَمِنْ مَقْصُودِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْ خُلِقَ لِكُلِّ حَيَوَانٍ
مِنَ الْأَعْضَاءِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ بَقَاؤُهُ وَنَوْعُهُ لَا زَائِدًا وَلَا نَاقِصًا.
فَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ أَشْكَالُهَا وَأَعْضَاؤُهَا وَتَنَوَّعَتْ أَنْوَاعُ كِبِيرَةٍ
وَلِنَذِيرِ الْآنَ بَعْضَ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَعَجَائِبِهَا وَخَوَاصِهَا

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

النَّوعُ الْأَوَّلُ

الْإِنْسَانُ

لَعَلَّمْنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَجْمُوعٌ مُرَكَّبٌ مِنَ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ
الْحَيَوَانَاتِ وَخُلَاصَةُ الْخُلُوقَاتِ رَغِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ رُوحًا
وَبَدَنًا وَخَصَّصَهُ بِالنُّطْقِ وَالْعَقْلِ مِيرًا وَعَلَنَّا وَزَيْنَ ظَاهِرُهُ بِالْحَوَاسِ
وَالْحُظِّ الْأَوْفَى وَبَاطِنُهُ بِالْقُوَى مَا هُوَ أَشْرَفُ وَأَقْوَى وَهَبَّا لِلنَّفْسِ
النَّاطِقَةِ الدِّمَاغَ وَأَسَكَّهُ أَعْلَى مَحَلٍّ وَأَوْفَقَ رُتْبَةٍ. وَزَيْنَهُ بِالْفِكْرِ وَالذِّكْرِ

وَأَحْفَظُ وَسَلَطَ عَلَيْهِ أَجْوَاهِرُ الْعَنَلِيَّةِ لَتَكُونَ النَّفْسُ أَمِيرًا وَالْعَقْلُ وَزِيرًا
وَالْقَوَى جُنُودَهُ وَالْحِسُّ الْمُشْتَرِكُ بَرِيدَهُ وَالْأَعْضَاءُ خَدَمَهُ وَالْبَدَنُ مَحَلَّ
سَهْلِكِهِ. وَالْحَوَاسُّ بِسَافِرُونَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ فِي عَالَمِهِمْ وَيَلْتَفِطُونَ
الْأَخْبَارَ الْمُوَافِقَةَ وَالْمُخَالَفَةَ وَتَعْرِضُونَهَا عَلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرِكِ الَّذِي هُوَ
وَاسِطَةٌ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْحَوَاسِّ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَرْضَاهَا عَلَى الْقُوَّةِ
الْعَنَلِيَّةِ تَخَارُ مَا يُوَافِقُ وَتَطْرَحُ مَا لَا يُوَافِقُ

فَإِنَّ هَذَا الْوَجْهَ قَالُوا الْإِنْسَانُ عَالَمٌ صَغِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَتَغَذَّى وَيَبْنُو
قَالُوا نَبَاتٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَحْسُ وَيَتَحَرَّكُ قَالُوا حَيَوَانٌ وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهُ
يَعْلَمُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ قَالُوا مَلَكٌ فَصَارَ جَمْعًا لِهَذِهِ الْمَعَانِي. فَإِذَا صَرَفَ هِمَّتَهُ
إِلَى جِهَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْهَاتِ يَلْتَفِطُ بِهَا. وَإِنْ كَانَ قَدْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى جِهَةِ
الطَّبِيعِيَّةِ فَيَكُونُ رَضِيًّا مِنْ دُنْيَاهُ بِالتَّغَذِّيِ وَتَنْفِيَةِ الْفُضُولِ. وَإِنْ كَانَ
إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَيَكُونُ إِذَا غَضِبَ كَسَبُ أَوْ شَيْئًا كَتَبَسَ أَوْ أَكُولًا كَثُورِ
أَوْ شَرِيحًا تَحْزِيرِ أَوْ ضَرَعًا كَكَلْبٍ أَوْ حَفُودًا كَجَمَلٍ أَوْ مُنْكَبِرًا كَنَدِيبٍ أَوْ
ذَا رَوْعَانٍ كَنَعْلَبٍ أَوْ يَجْمَعُ هَذَا كُلَّهُ فَيَكُونُ شَيْطَانًا مَرِيدًا. وَإِنْ كَانَتْ
صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى الْجِهَةِ الْمَلَكِيَّةِ فَيَكُونُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْعَالَمِ الْأَعْلَى وَلَا
يَرْضَى بِالْمُنْزِلِ الْأَسْفَلِ وَالْمَرْبِعِ الْأَذَنِي

النَّظَرُ فِي الْقَوَى

الْقَوَى صِنْفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِتَذْيِيرِ الْأَبْدَانِ وَتَقْوَامِ
مَنَافِعِ أَعْضَائِهَا مِنْ الْأَفْعَالِ وَالْإِذْرَآكَاتِ فَتُشْبِهُ أَعْمَالَهَا فِيهَا أَفْعَالُ
صُنَاعِ الْإِلَادِ وَسُكَّانِهَا. فَإِنَّ حَالَ الْبَدَنِ مَعَ الرُّوحِ وَهَذِهِ الْقَوَى تُشْبِهُ

مَدِينَةٍ عَامِرَةٍ بِأَلَايِمَا مَأْنُوسَةٍ بِسُكَّانِهَا مَفْتُوحَةِ الْأَسْوَاقِ مَسْلُوكَةِ
الطَّرَاقَاتِ مُشْتَغَلَةِ الصَّنَاعِ وَحَالَةٍ عِنْدَ النَّوْمِ وَهَذِهِ الْحَوَاسِ وَسُكُونِ
الْحَرَكَاتِ تُشْفِيهِ حَالِ الْمَدِينَةِ بِاللَّيْلِ إِذَا غُلِقَتْ أَبْوَابُهَا وَتَعَطَّلَتْ صُنَاعُهَا
وَنَامَ أَهْلُهَا

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْبَدَنَ كَبَيْتٍ مُنْقَشٍ بِنُقُوشٍ غَرِيبَةٍ وَصُورٍ عَجِيبَةٍ
وَالْوَانِ مُخْتَلِفَةٍ وَالْقَوَى نِلْكَ النُّفُوشِ وَالصُّورُ وَالنُّفُوشُ كَالسِّرَاجِ الَّذِي
يُبْدِرُ فِي أَطْرَافِ الْبَيْتِ وَيَسَبِّبُ وَضُوءَ ضَوْعِهِ إِلَى أَجْزَاءِ الْبَيْتِ يَرَى
فِي سَفِينِهِ وَحِيطَانِهِ وَقَرَشِهِ عَجَائِبَ تَبْهَرُ فِيهَا بَلْ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا
مِثْلُ الْخَيْسِ وَالْعَقْلِ وَالنَّهْمِ وَالْقَوَى الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَالْجَمَالِ وَغَيْرِهَا .
فَإِذَا فَارَقَ النَّفْسَ بَطَلَتْ هَذِهِ الْأَعْيَانُ كُلُّهَا كَمَا أَنَّ الْبَيْتَ عِنْدَ انْطِقَاءِ
السِّرَاجِ لَا يَبْقَى لِيَتْلِكَ الصُّورُ وَالنُّفُوشُ أَتَرَى . وَعَجَائِبُ الْقَوَى خَارِجَةٌ
عَنِ النَّهْمِ لَكِنْ أَحَبُّتُ أَنْ أَذْكَرَ بَعْضَ مَا أَذْرَكَهُ أَذْكِيَاكُمُ النُّفُوشَ مِنْ
الْحِكْمَاءِ مِنَ الْعَجَائِبِ الْمَوْدُوعَةِ فِي الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ الْقَوَى
الْقَوَى الظَّاهِرَةِ وَهِيَ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ

الْأَوَّلُ حَاسَةُ اللَّمَسِ وَهِيَ قُوَّةٌ مُنْبِئَةٌ فِي جَمِيعِ جِلْدِ الْبَدَنِ يُذَكِّرُ
بِهَا مَا يَلَاغِيهِ وَيُؤْثِرُ فِيهِ . فَإِنَّهَا أَوَّلُ حَاسَةٍ خُلِقَتْ لِلْحَيَوَانَ حَتَّى إِذَا
مَسَّتْهُ نَارٌ أَوْ حَدِيدٌ جَارِحٌ يُحْسِثُ بِهِ فَيَهْرَبُ مِنْهُ وَلَا يَتَصَوَّرُ حَيَوَانَ إِلَّا
وَلَهُ هَذَا الْخَيْسُ حَتَّى الدُّودَةُ الَّتِي فِي الطَّيْنِ فَإِنَّهَا إِذَا غَرَزَ فِيهَا إِبْرَةٌ
انْقَبَضَتْ

الثَّانِيَةُ السَّمُّ وَهِيَ قُوَّةٌ فِي مُقَدِّمِ الدِّمَاغِ تُذَكِّرُ الرُّوَاحِ الَّتِي يُؤْخِذُهَا

الْهَوَاءُ الْمَتَكِّفُ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ

الثَّالِثَةُ الْبَصَرُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُرْتَبَةٌ فِي عَصَبَةٍ مُجَوِّفَةٍ فِي الْعَيْنِ تُدْرِكُ
مُحْصُولِ الْأَشْيَاءِ خَوَاتِ الصُّوَرِ وَالْأَلْوَانِ. فَإِنَّ الضُّوْءَ إِذَا سَرَعَ فِي
الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَحَمَلَ مَعَهُ الْوَانَ الْأَجْسَامِ وَأَتَّصَلَ بِحَدَقَةِ الْحَيَوَانِ
وَسَرَى فِيهَا كَمَا يَسْرِبُ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ أَنْصَبَتْ الْحَدَقَةُ بِتِلْكَ
الْأَلْوَانِ كَمَا يَنْصَبُ الْهَوَاءُ بِالضِّيَاءِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحْسُ بِالْقُوَّةِ الْبَاصِرَةِ

الرَّابِعَةُ السَّمْعُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُرْتَبَةٌ فِي عَصَبٍ دَاخِلِ الصِّمَاحِ تُدْرِكُ
الصَّوْتِ الَّذِي يُؤَدِّي بِهِ إِلَيْهِ الْهَوَاءُ بِالتَّمَوُّجِ وَحَالَهُ نُشِيهُ بِتَمَوُّجِ الْمَاءِ
فَإِنَّ الْهَوَاءَ أَشَدُّ لَطَافَةً مِنَ الْمَاءِ. فَإِذَا وَقَعَ شَيْءٌ فِي الْمَاءِ تَحَدَّثُ مِنْ
وُقُوعِهِ دَوَائِرُ فَكُلَّمَا اتَّسَعَ ذَلِكَ الشَّكْلُ ضَعُفَتْ حَرَكَتُهُ وَتَمَوُّجُهُ إِلَى
أَنْ يَضْمَحِلَّ. فَكَذَلِكَ يَحْصُلُ مِنْ قَرَعِ الصَّوْتِ الْهَوَاءُ تَمَوُّجًا فَأَيُّ سَامِعٍ
حَصَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْجِ دَخَلَ أَذُنُهُ فَحَسَّ بِهِ الْقُوَّةَ السَّامِعَةَ

الْخَامِسَةُ الذَّوْقُ وَهِيَ قُوَّةٌ مُنْبَثَةٌ فِي جِزْمِ اللِّسَانِ يُدْرِكُ بِهَا مَا يَمَاسُهُ
مِنَ الْمَطْعُومِ بِوَاسِطَةِ الرُّطُوبَةِ الْعَذِيَّةِ الَّتِي تَحْتَ اللِّسَانِ. فَإِنَّ تِلْكَ
الرُّطُوبَةَ تُخَالِفُ الْجِسْمَ الَّذِي فِيهِ كَيْفِيَّةُ الطَّعْمِ فَتَتَكَيَّفُ بِتِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ
فَيَحْصُلُ الْإِحْسَاسُ بِالطَّعْمِ

فصل في الدواب

وهي النوع الثالث من الحيوان

هَذَا النَّوعُ أَحْسَنُ الْبَهَائِمِ صُورَةً وَأَكْثَرُهَا نَفْعًا. وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ لَطِيفَ الْبَدَنِ بَطِيَّ الْمَشْيِ كَثِيرَ الْعَدُوِّ مِنْ جَنْسِهِ وَتَحْتَ جَنْسِهِ وَحَرَكَاتُهُ قَاصِرَةٌ عَنِ الْوَفَاءِ بِمَقَاصِدِهِ مِنَ الطَّلَبِ وَالْهَرَبِ أَفْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ خَلَقَ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْحَيَوَانِ وَهَدَاهُ إِلَى تَذَلُّلِهَا وَتَضَرُّعِهَا تَحْتَهُ فِي أَنْحَاءِ مَقَاصِدِهِ لِتَقْوَمَ لَهُ مَقَامُ الْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ وَالْقَوَائِمِ لِلْبَهَائِمِ وَالْذَوَابِّ. وَزَعَمُوا أَنَّ أَذَانَهَا إِذَا مَا خُلِفَتْ فَوْقَ رَأْسِهَا ذَاتَ حَرَكَاتٍ شَتَّى لِيُعَاذِيَ الْقُتُبَ جِهَاتِ شَتَّى وَتَرَدَّ الْهَوَاءُ إِلَيْهِ فَتَكُونُ قَائِدَةُ السَّمْعِ أَكْثَرَ. وَلَمَّا كَانَ الْفَرَسُ أَذْنًا حَسَّاسًا مِنَ الْحِمَارِ خُلِفَتْ أَذُنُهُ أَصْفَرًا مِنْ أَذُنِ الْحِمَارِ وَذَنْبُهُ أَطْوَلَ مِنْ ذَنْبِ الْحِمَارِ لِأَنَّ الْفَرَسَ يَكْنِيهِ مِنْ قَرَعِ الْهَوَاءِ دُونَ مَا يَكْنِي الْحِمَارُ لِصَفَاءِ حِسِّ الْفَرَسِ وَكُدُورَةِ حِسِّ الْحِمَارِ وَكَذَلِكَ طُولُ ذَنْبِهِ لِأَنَّ إِحْسَاسَهُ يَلْدَغُ الْهَوَاءَ فَوْقَ إِحْسَاسِ الْحِمَارِ فَيَجْعَلُ طَافَاتِ ذَنْبِهِ طَوِيلَةً لِيَطْرُدَ بِهَا الْهَوَاءَ عَنْ بَدَنِهِ

وَلَمَّا كَانَ الْمَطْلُوبُ مِنَ الدَّوَابِّ السَّيْرُ صُلِبَتْ حَوَافِرُهَا لِيُسْكِنَ الْمَشْيُ الْكَثِيرَ عَلَيْهَا وَلِتَكُونَ سِلَاحًا دَافِعًا لِلْعَدُوِّ. فَإِنَّ كُلَّ حَيَوَانٍ لَهُ حَافِرٌ لَا قَرْنَ لَهُ لِأَنَّ الْمَادَّةَ لَا تَبْقَى بِهَا جَمِيعًا وَكُلُّ حَيَوَانٍ لَهُ قَرْنٌ لَا حَافِرَ لَهُ بَلْ لَهُ خُلْفٌ فَإِنَّ الْمَادَّةَ تَبْقَى بِهَا جَمِيعًا فَتَنْمُو آلَةُ الْمَشْيِ وَالسَّلَاحُ فَسُجُنَاتٌ مَنْ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ دُونَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ

فصل في النعم وفي النوع الرابع

هَذَا النُّوعُ كَثِيرُ الْفَائِدَةِ شَدِيدُ الْإِنْفِادِ لَيْسَ لَهُ شِرَاسَةُ الدَّوَابِّ وَلَا
 نَفَرَةُ السِّبَاعِ وَلَشِدَّةُ حَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهَا لَمْ يَخْلُقْ لَهَا سِلَاحًا شَدِيدًا كَأَنْبَابِ
 السِّبَاعِ وَبَرَايِنِهَا وَأَنْبَابِ الْحَشَرَاتِ وَابْرَهَآ . شَأْنُهَا الثَّبَاتُ وَالصَّبْرُ عَلَى
 التَّعَبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَخُلِقَتْ ذَلُولًا . وَخُلِقَ الْقَرْنُ سِلَاحًا لَهَا لِتَدَارِكَ
 تَقْصِيرَ الْحَافِرِ وَحِيلَ لَهَا بِدَلِ الْحَافِرِ ظِلْفُ تَقْصِيرِ الْمَادَّةِ عَنِ الْحَافِرِ
 وَالْقَرْنِ . وَرَبُّهَا صَرَفَتْ الْمَادَّةَ فِي جِهَةِ أَنْفَعِ وَتَرَكَتْ الْجِهَةَ الَّتِي فِي أَفْثِ
 مَنَعًا كَذَلِكَ أَلْفَكَ الْأَعْلَى لِلْبَغْرِ بِالِاسْنِ وَصَرَفَ مَادَّهَا إِلَى الْقَرْنِ
 وَالْقُوَّةَ الْمَدْبُوعَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى تُؤَيِّدُ الْحَيَوَانَ إِمَّا بِسِلَاحٍ أَوْ جُنَّةٍ
 أَوْ هَرَبٍ وَأَيُّ هَذِهِ فَيَدْتِ مَادَّتُهُ دُبْرَتُ بِمَادَّةٍ أُخْرَى حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَا
 يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَقَاءِ شَخْصِهِ وَنَوْعِهِ

ثُمَّ إِنَّ النِّعَمَ لَمَّا كَانَ أَكْلُهَا الْحَشِيشَ أَفْتَضَتْ أَلْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ لَهَا أَفْوَاهًا
 وَاسِعَةً وَأَسْنَانًا جِدَادًا وَأُضْرَاسًا صِلَابًا لِتَطْحَنَ بِهَا الصُّلْبَ مِنَ الْحَبِّ
 وَالنَّوَسِ . وَلَمَّا أَفْتَقَرَتْ إِلَى زِيَادَةِ قُوَّةٍ لِتَسْمُكِنَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبِ
 مِنْهَا خُلِقَ لَهَا كَرْسُ وَاسِعٌ لِيَحْمِلَ فِيهِ مِنَ الْعَلْفِ شَيْئًا كَثِيرًا يَبْنِي بِغِذَائِهَا
 وَإِذَا رَجَعَتْ إِلَى أَمَاكِيهَا تَجْعَلُهُ بِالْإِجْتِرَارِ مِنْهَا لِنُفْجِ . فَعِنْدَ ذَلِكَ تَهْبِئُ
 طَبِيعَتُهَا لَطِيفَةً مِنْ تَقْيِيلِهِ فَتَجْعَلُ التَّيْنَ الْيَاسَ لِحِمَا وَدَمًا . وَمِنْ الْعَجَبِ
 الْقُوَّةُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي أَضْرَاسِهَا فَإِنَّهَا بِاللَّبْلِ وَالنَّهَارِ فِي الطَّحْنِ
 لَا تَقْتَرُ إِلَّا قَلِيلًا فَلَوْ كَانَتْ مِنَ الْحَدِيدِ الذَّكَرِ لَا تَخْسَفُ وَتَقْتَنَتُ

وَلْتَذَكَّرْ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ

زَرَافَةٌ. رَأْسُهَا كَرَأْسِ الْإِبِلِ وَقَرْنَاهَا كَقَرْنِ الْبَقَرِ وَجِلْدُهَا يَجْلِدُ النَّسِيرَ
وَقَوَائِمُهَا كَمَا لِلْبَعِيرِ وَأَظْلَافُهَا كَمَا لِلْبَقَرِ. طَوِيلَةُ الْعُنُقِ جِدَا طَوِيلَةُ
الْيَدَيْنِ قَصِيرَةُ الرِّجْلَيْنِ وَصُورُهَا بِالْبَعِيرِ أَقْرَبُ وَجِلْدُهَا بِالْبَعِيرِ أَشْبَهُ
وَدَنْبُهَا كَدَنْبِ الظَّبْأَةِ. قَالُوا الزَّرَافَةُ مَتَوَلِّدَةٌ مِنْ نَاقَةٍ الْحَبَشَةِ وَالْبَقَرِ
الْوَحْشِيَّةِ وَالضَّبْعَانِ وَذَلِكَ أَنَّ الضَّبْعَانَ يَلِدَانِ الْحَبَشَةَ يَسِفِدُ النَّاقَةَ فَتُحْيِي
بَوْلَهُ بَيْنَ خِلْقَةِ النَّاقَةِ وَالضَّبْعَانِ. فَإِنْ كَانَ وَلَدُ تِلْكَ النَّاقَةِ ذَكَرًا
وَلَحِقَ بِالْمَاهَةِ أَتَتْ بِالزَّرَافَةِ

وَحَكَى عَلِيَّاتُ الْحَكِيمِ أَنَّ بِحَايِبِ الْجَنُوبِ بِقُرْبِ خَطِّ الْإِسْتَوَاءِ
بِالصَّنِيفِ تَجْمَعُ حَيَوَانَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ الْأَنْوَاعِ عَلَى مَصَانِعِ الْمَاءِ مِنْ شِدَّةِ
الْعَطَشِ قُرْبًا سَافَدَتْ غَيْرَ أَنْوَاعِهَا فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِثْلُ الزَّرَافَةِ وَالسَّمْعِ
وَالسَّارِ وَأَمْثَالِهَا. وَالزَّرَافَةُ مِنَ الْخَلْقِ الْعَجِيبِ لَيْسَ عِنْدَهَا إِلَّا ظَرَفَةٌ
الصُّورَةُ وَغَرَابَةُ الْحَاجِ

ظِبَاءُ الْبَسْكِ. فَإِنَّهَا كَظِبَاءِ يَلِدَانَا إِلَّا أَنَّ لَهَا نَاقَتَيْنِ مُعَقَّنَيْنِ خَارِجَيْنِ
مِنَ الْقَرْنِ كَمَا لِلْغَنَلِ. قُرْبًا أَصْطَبَدَتْ وَالْبَسْكِ فِي سُرْعَتِهَا غَيْرُ نَضِيجٍ
تَكُونُ فِيهِ زُعُوكَةٌ وَسَيْلَةٌ سَيْلُ الثَّيَارِ إِذَا قُطِنَتْ قَبْلَ إِذْرَاكِهَا فَإِنَّهَا
تَكُونُ نَاقِصَةً الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ. وَأَجُودُ الْبَسْكِ مَا أَلْقَاهُ الْفَزَالُ وَذَلِكَ
أَنَّ الطَّيْبَةَ تَدْفَعُ مَوَادَّ الدَّمِّ إِلَى سُرْعَتِهِ فَإِذَا اسْتَحْكَمَ الدَّمُّ فِيهَا وَنَضِجَ
يَحْدِثُ مِنْ ذَلِكَ أَذِيَّةٌ وَحِكَّةٌ فِي سُرْعَتِهِ فَيَفْرُغُ حِينِيذًا إِلَى صَخْرَةٍ حَادِيَةٍ فَيَمُوتُ
فِيهَا مُلْتَمِدًا بِذَلِكَ فَتَنْجَعُ الْمَادَّةُ حِينِيذًا وَتَسِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنْجَحَرُ كَأَنْفِجَارٍ

الْمُحْرَجِ وَالْأَمَائِلِ إِذَا تَفَجَّتْ فَيَحْدُ الْغَزَالُ يُخْرِجُهَا لَذَّةً . وَالنَّاسُ
يَتَّبِعُونَ مَرَاعِيهَا فِي الْأَجَالِ فَيَحْدُونَ ذَلِكَ الدَّمَّ قَدْ جَدَّ عَلَى نِكَ
الضُّخُورِ فَيُحْكُونَهُ وَيَدْعُونَهُ فِي نَوَاحٍ مَعَهُمْ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ . فَذَلِكَ أَفْضَلُ
الْيَسَكِ تَسْعِيلُهُ مُلُوكُهُمْ وَيَنْهَادُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ

فصل في السباع وهي النوع الخامس

ذُب . حَيَوَانٌ جَسِيمٌ يُحِبُّ الْعُزْلَةَ فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ يَدْخُلُ وَجَارَهُ
الَّذِي اتَّخَذَهُ فِي الْبَيْرَانِ وَلَا يَخْرُجُ حَتَّى يَطِيبَ الْهَوَاءُ إِذَا جَاعَ يَبْصُ
يَدِيهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَدْفَعُ بِذَلِكَ جُوعَهُ وَيَخْرُجُ مِنْ وَجَارِهِ فَصَلَّ الرَّبِيعِ
أَمَّنَ مَا كَانَ . وَبِخَاصِّهِ الْبَقَرُ فَإِذَا نَطَحَ الْبَقَرُ اسْتَلْقَى وَيَأْخُذُ يَدَيْهِ فَرَنْبِهِ
وَيَعَضُّهُ عَضًّا شَدِيدًا بَنَفَرُهُ

وَالذَّبَّةُ إِذَا وَلَدَتْ يَكُونُ وَلَدُهَا كَقِطْعَةٍ لَحْمٍ تَخَافُ عَلَيْهَا مِنَ النَّمْلِ
فَتَنْفُلُهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ فَإِذَا صَلَبَ بَدَنُ الْوَلَدِ أَقْرَبَتْهُ فِي مَوْضِعٍ .
وَرَبَّهَا تَتْرُكُ أَوْلَادَهَا وَتَرْضِعُ وَلَدَ الضَّبِّ . وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فَلَانٌ
أَحْمَقُ مِنْ جَهَنَّمِ فَإِنَّهُ مِنَ الذَّبِّ

فصل في الطيور وهي النوع السادس

هَذَا النَّوعُ مِنَ الْحَيَوَانِ مُخْتَصٌّ بِخَفَةِ الْبَدَنِ وَفَقْدِ أَعْضَاءٍ كَثِيرَةٍ
وَجِدَتْ فِي غَيْرِهِ . وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهَا خَلَقَ الْحَيَوَانَ
وَجَعَلَ بَعْضَهَا عَدُوًّا لِبَعْضٍ أَعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِمَّا قُوَّةً وَسِلَاحًا
يَدْفَعُ بِهَا عَدُوَّهُ كَمَا لِلدَّوَابِّ وَالسَّبَاعِ أَوْ آلَةً يَهْرُبُ بِهَا كَمَا لِلْوُحُوشِ
وَالطُّيُورِ . وَأَمَّا الْوُحُوشُ فَالْأَنَّهُمَا قَوَّاهُمَا وَأَمَّا الطُّيُورُ فَالْأَنَّهُمَا أَجْمَعَتْهُمَا .

فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلَّةَ أَقْتَضَتْ خِفَةَ الْجَنَّةِ إِذْ لَوْ كَانَتْ الْجَنَّةُ كَثِيرَةً أَقْتَضَتْ
كِبَرَ الْجَنَاحِ وَالْجَنَاحُ الْكَثِيرُ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ سُرْعَةُ الطَّيْرَانِ بَلْ يَكُونُ
طَيْرَانُهُ بَطِيئًا لَا يَزِيدُ عَلَى سُرْعَةِ الشَّمْسِ فَلَا يَحْصُلُ الْغَرَضُ الْمَطْلُوبُ
وَمِنْ الْعَجَائِبِ طَيْرَانُ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ وَعَدَمُ سُقُوطِهِ وَالْهَوَاءُ أَخَفُّ
مِنْهُ وَهُوَ أَثْقَلُ مِنْهَا. فَلَمَّا أَقْتَضَى هَذِهِ الْأَلَّةُ خِفَةَ الْجَنَّةِ نَقَصَ مِنْهَا أَعْضَاءَهُ
كَثِيرَةً تَوْجَدُ فِي غَيْرِهَا مِنْ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَلِدُ وَتُرْضِعُ لَيْسَتْ عَلَيْهَا
النَّهْوُضُ وَبَسْهَلُ الطَّيْرَانِ كَالْأَسْنَانِ وَالْأَذَانِ وَالْكَرْشِ وَالْمُتَانَةِ
وَحَرَزَاتِ الظَّهْرِ وَالْجُلْدِ الْخَفِينِ. وَإِذَا تَأَمَّلْتَ خِلْقَةَ الطَّيْرِ وَجَدْتَ نِسْبَةَ
قُدَامِهِ إِلَى أَسْفَلِهِ كَنِسْبَةِ يَمِينِهِ إِلَى شِمَالِهِ فَإِنْ كَانَ طَوِيلَ الرَّقَبَةِ تَطَوَّلُ
أَيْضًا رِجْلَاهُ وَلَمَّا قَصُرَتْ رَقَبَتُهُ قَصُرَتْ رِجْلَاهُ. وَلَوْ تَنَبَّ دَنْبُ الطَّيْرِ
لَمَالَ إِلَى قُدَامِ كَالسِّفِينَةِ الَّتِي خَفَّ مُؤَخَّرُهَا. قَالَ الْجَاهِلُ كُلُّ طَائِرٍ
جَيِّدُ الْجَنَاحِ يَكُونُ ضَعِيفَ الرِّجْلَيْنِ كَالزَّرَارِيرِ وَالْعَصَافِيرِ وَإِذَا قُطِعَتْ
رِجْلَاهُ لَا يَنْدِرُ عَلَى الطَّيْرَانِ كَمَا إِذَا قُطِعَتْ يَدُ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَا يَنْدِرُ
عَلَى الْعَدُوِّ. وَكُلُّ طَائِرٍ يُعْبُ الْمَاءُ يَزُقُّ فَرْخَهُ. وَمِنْ الطُّيُورِ مَا أُعْطِيَ
الْعَجَبُ فِي لَوْنِهِ كَالطَّائِزِ وَالْبَيْغَا وَأَيُّ بَرَأِيشَ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي
حَلْقِهِ كَالنَّحَامِ. وَمِنْهَا مَا أُعْطِيَ فِي حَجَرَتِهِ كَالْبَلَابِلِ وَالنَّعَابِرِ. وَمِنْهَا مَا
أُعْطِيَ الْعَجَبُ فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ كَاللِّقَاقِي وَالْكَرَّكِيِّ وَالنَّعَامِ. وَمِنْهَا مَا
أُعْطِيَ فِي صَنْعَتِهِ كَالْخَطَّافِ وَالنُّوْطِ وَالْقَنْبَرِ. وَسَنَدُّكَ بَعْضَهَا وَمَا
يَعْلُقُ بِهَا مِنَ الْعَجَبِ وَتَرْكِيبِ أَسْمَائِهَا عَلَى حُرُوفِ الْمُجَمِّمِ
بَلْبَلْ. يُقَالُ لَهُ بِاللَّارِ سِنَّةٌ هَزَارٌ دَسْتَانُ طَائِرٌ صَغِيرُ الْجَنَّةِ سَرِيعُ الْحَرَكَةِ

فَصِيحُ اللِّسَانِ كَثِيرُ الْأَلْحَانِ يَسْكُنُ الْبَسَائِنَ وَلَهُ شَغَبٌ وَهُوَ لِحْدَانُ يَامِ
الْوَرْدِ. يَقُولُونَ إِنَّهُ يُحِبُّ الْوَرْدَ فَإِذَا رَأَى مَنْ يَقْطِفُهُ يَكْثُرُ صِيحُهُ.
لَا يَصْبِرُ عَنِ الْمَاءِ سَاعَةً لِنَرِطِ حَرَارَتِهِ وَلَا يَتَزَوَّجُ إِلَّا فِي الْبَسَائِنِ
وَالرَّيْحُ تَعْصِفُ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ لَمْ
يَخْرُجْ أَصْلًا

حُبَارَى. طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ بِالْفَارِسِيَّةِ جَرَزٌ قَالُوا مَا فِي الطُّيُورِ أَشَدُّ
بَلَهًا مِنْهَا لِأَنَّهَا تَنْزُكُ بَيْضَهَا وَتَحْضُنُ بَيْضَ غَيْرِهَا وَفِي الْمَثَلِ كُلُّ شَيْءٍ
يُحِبُّ وَلَدَهُ حَتَّى الْحُبَارَى. وَإِذَا وَقَعَ ذَرْقُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الطُّيُورِ يَعْمَلُ
عَمَلَ الذِّبْيِ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ الْحُبَارَى سِلَاحُهُ سُلَاحُهُ. وَإِذَا قَصَدَ
الصَّفْرُ لَا يَزَالُ يَلْعُو وَيَنْزِلُ مَعَ الصَّفْرِ حَتَّى يَجِدَ فُرْصَةً فَرَمَاهُ بِذَرْقِهِ يَنْقُ
الصَّفْرُ مُنْبِدًا مِثْلَ الْمَكْنُوفِ. فَعِنْدَ ذَلِكَ تَجْنَبُ عَلَيْهِ الْحُبَارَى وَتَتَنَفَّسُ
رِيشَهُ وَفِي ذَلِكَ هَلَاكُ الصَّفْرِ. وَالْحُبَارَى إِذَا تَحَسَّرَ وَتَحَسَّرَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ
الطُّيُورِ فَيَنْبُتُ رِيشُ صَاحِبِهِ قَبْلَهُ فَيَهْوُ كَهَذَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ مَاتَ
كَهَذَا الْحُبَارَى

خُطَافٌ. طَائِرٌ لَا يَزَالُ يَنْتَقِلُ مِنَ الصُّرُودِ إِلَى الْجُرُومِ وَيَتَّبِعُ الرِّيحَ.
إِذَا عَرَفَ اسْتِنْبَالَ الصَّيْفِ يَأْخُذُ فِرَاحَهُ وَيَمْشِي بِهَا إِلَى الْوَكْرِ الَّذِي بِهِ
تَرَكَّهُ فِي الْيَلَادِ الْآخِرِ وَلَا يَبْقَى مِنْهَا وَاحِدٌ إِلَّا رَجَعَ إِلَى وَكْرِ الْقَدِيمِ.
وَيَأْخُذُ الْوَكْرَ مِنَ الطِّينِ الْخُلُوطِ بِالشَّعْرِ لِيَبْقَى بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَيَقْوَى
كَطِينِ الْحِكْمَةِ. وَمِنْ الْعَجَبِ أَنْ يَعْمَلَ بَعْضُهُ وَيَذُرُّهُ حَتَّى يَحِفَّ
ثُمَّ يَعْمَلُ الْبَعْضُ الْآخَرَ. فَلَوْ عَمِلَهُ كُلُّ دَفْعَةٍ وَاحِدَةٍ لَتَنَاقَلَ وَسَطَطَا

وَإِذَا أَرَادَ اخْتِادَ الْوَكْرِ عَاوَنَتْهُ الْأَخْطَاطِيفُ فَيَادَا فَرَعَتْ ثَائِبٌ بِالْمَاءِ فِي
 أَفْوَاهِهَا وَتَسْوِي بِهِ بَاطِنُ الْوَكْرِ وَتُمْلِسُهُ وَتَزِيلُ خُشُونَتَهُ . وَتَضَعُ
 السَّدَابَ فِي أَوْكَارِهَا لِتَدْفَعَ الْحَيَاتِ وَالذُّبَابَ وَالْبَعُوضَ . وَمِنْ الْمَشْهُورِ
 أَنَّ عَشَّ الْأَخْطَافِ يُحَلُّ فِي الْمَاءِ وَيَسْنِي صَاحِبَةَ الطَّلَقِ فَتَضَعُ بِسُهُولَةٍ
 خُفَّاشٌ . طَائِرٌ مَشْهُورٌ ضَوْءٌ بَصِيرٌ ضَعِيفٌ يَسْتُرُهُ شُعَاعُ الشَّمْسِ
 لَا يَخْرُجُ إِلَّا بَيْنَ الظَّلَامِ وَالضُّبَاةِ . شَبِيهُهُ بِالْقَارِ جَنَاحُهُ جِلْدَةٌ رَفِيفَةٌ وَلَهُ
 أَسْنَانٌ وَالْأُنثَى لَهَا ثَدْبَةٌ كَمَا لِلْقَارِ تَرَضُّعٌ أَوْلَادُهَا تَصِيدُ الذُّبَابَ
 وَالتَّبَقَ وَآمَالَهَا . وَرُبَّمَا تَأْخُذُ وَلَدَهَا فِي قَبْهَا وَتَطِيرُ وَتَرَضُّعُ وَلَدَهَا .
 وَتَأْكُلُ الرُّمَانَ عَلَى الشَّجَرَةِ وَتَتْرِكُهَا فِشْرًا مُجَوَّفًا . وَتَهْرَبُ عَنْ وَرَقِ
 الدُّلْبِ إِذَا نَزَلَ فِي مَكَانِهَا وَإِذَا عَلِقَتْ خُفَّاشَةٌ فِي شَجَرَةٍ فَرَبُّهُ جَاوَزَ
 الْجَرَادُ عَنْهَا

غَوَاصٌ . طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ بِالْقَارِ سَيَّةٌ مَا هِيَ خَوَارٌ . يُوجَدُ بِالْبَصْرِ عَلَى
 طَرَفِ الْأَنْهَارِ يَغُوصُ فِي الْمَاءِ مَعْكُوسًا يَفُوقُهُ شِدِيدَةً وَيَلْبَثُ تَحْتَ
 الْمَاءِ وَالْمَاءَ لَا يُعْلِيهِ مَعَ خِفَةِ بَدَنِهِ . حَكَى بَعْضُهُمْ قَالَ رَأَيْتُ غَوَاصًا غَاصَ
 وَطَلَعَ بِسِمَكَةٍ فَغَلَبَهُ الْغَرَابُ وَأَخَذَ السِّمَكَةَ مِنْهُ فَغَاصَ مَرَّةً أُخْرَى وَطَلَعَ
 بِسِمَكَةٍ أُخْرَى وَقَرَّبَهَا مِنَ الْغَرَابِ وَاشْتَغَلَ الْغَرَابُ بِأَخْذِهَا قَوَّيْبَ
 الْغَوَاصِ وَأَخَذَ بِرِجْلِ الْغَرَابِ وَغَاصَ بِهِ وَوَقَفَ تَحْتَ الْمَاءِ حَتَّى اخْتَشَقَ
 الْغَرَابُ وَخَرَجَ الْغَوَاصُ سَالِمًا

قَطَا . طَائِرٌ مَعْرُوفٌ سَيِّئُ بَصَوْنِهِ يُقَالُ فَلَانٌ أَصْدَقُ مِنَ الْقَطَا .
 قَبِيضٌ فِي الْبَرَارِيِّ وَيَتَّبِعُ عَنْهَا أَيْامًا وَتَعُودُ إِلَيْهَا يُقَالُ فَلَانٌ أَهْدَى مِنَ

سَمَلَتْهَا وَلَا يَنَامُ اللَّيَالِي وَيَأْتِي الْجَادَّةَ لِيَكُونَ عِنْدَهُ مِنَ الْمَاءِ بَيْنَ خَبَرٍ وَلَهُ
أَفْحُوصَةٌ عَجِيبَةٌ فِي وَسْطِ الْحَشِيشِ مِثْلَ بِهَا الْقَائِلُ مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ
مِثْلَ مَحْصٍ قِطَاعٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ يَتًا فِي الْجَنَّةِ

فَصَلِّ فِي الْهَوَامِّ وَالْحَشَرَاتِ وَفِي النُّوعِ السَّابِعِ
هَذَا النُّوعُ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُ أَوْصَافِهِ وَأَصْنَافِهِ لِكَثْرَتِهَا. قَالَ بَعْضُ
الْمُفَسِّرِينَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ تَحْقِيقَ قَوْلِ مَنْ قَالَ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
فَلْيُؤَدِّ نَارًا فِي وَسْطِ غَيْضَةٍ بِاللَّيْلِ ثُمَّ لِيَنْظُرَ مَا يَفْعَلُ تِلْكَ النَّارُ مِنَ
الْحَشَرَاتِ فَإِنَّهُ يَرَى صُورًا عَجِيبَةً وَأَشْكَالًا غَرِيبَةً لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى خَلَقَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْخَلْقَ الَّذِي يَعْنِي نَارَهُ يُخْتَلِفُ
بِاخْتِلَافِ مَوَاضِعِ الْغِيَاظِ وَالْجِبَالِ وَالسُّهُولِ وَالْبَرَارِيِّ. قَالُوا فِي كُلِّ
بُقْعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْبُقَاعِ الْوَنَاءُ مِنَ الْخُلُوفَاتِ مُخَالَفَةً لَهَا فِي الْبُغْيَةِ الْآخَرَةِ.
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَجَبُ فَائِدَةٍ فِي هَذِهِ الْهَوَامِّ مَعَ كَثَرَةِ ضَرَرِهَا وَلَمْ
يَذَرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِرَأْيِ الْمَصَالِحِ الْكَلْبَةِ كَرَسَالِ الْمَطْرِ فَإِنَّ فِيهِ مَصَالِحَ
الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ خَرَابٌ يَبْتَ الْعُجُوزُ

فَهَكَذَا خَلَقَ هَذِهِ الْحَشَرَاتِ مِنَ الْمَوَادِّ الْفَاسِدَةِ وَالْعُفُونَاتِ الْكَائِنَةِ لِتَصْنَعُ
أَهْوَاكَ مِنْهَا وَلَا يَعْزِضَ لَهَا الْفَسَادُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ أَوْبَاقِهِ وَهَلَاكِ الْخَيْوَانِ
وَالنَّبَاتِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَسَعَ الْبَقْرَ. وَالَّذِي يُحَقِّقُ ذَلِكَ أَنَا نَرَى
الذُّبَابَ وَالذُّبْدَانَ وَالْحَنَافِسَ فِي دُكَّانِ الْقَصَابِ وَالذُّبَابِ أَكْثَرُ مَا نَرَى

(١) ان الحشرات لم تكن عن المواد العائنة العفنة بل عن زرعها الخاص بها فوامحالة

هذه تتناول نظير كل حيوان على ما علمته العلوم الصحيحة المبينة على الاصول الصادقة

في دكان البزار والحداد. فاختصت الحكمة الإلهية صرف العنونات
لها لتصفو الهواء منها وتسلم من الوباء. ثم جعل صغارها مأكولا
لكبارها ولا أمثالا وجه الأرض منها. فليس في ملكوته ذرة إلا وفيها
من الحكم ما لا يحصى. وأعجب من هذا أن كل ما جعل الله سببا لهلاك
حيوان جعل له سببا لدفع ذلك السم. فإن الأطباء الأقدمين
وجدوا في لحم الحبة قوة تقاوم سمها فأدخلوها لحمها في الزنباقي.
والتجربة تشهد أن من لسعته العقرب يطلع الموضع برطوبة العقرب
يسكن إليها في الحال

ثم إن هذا النوع من الحيوان يختلف حالها عند الشتاء. فبينما ما
يموت من برد الهواء كالذئبان والبق والبراغيث. وبينما ما يكمُن في
الشتاء ولا يأكل شيئا كالحبات والعقارب. وبينما ما يذخر ما يكتفيها
ليشتاها كالفيل فإنها لا تعيش إلا طعم. ولتذكر بعضها مرتبا على حروف
التمجيد إن شاء الله تعالى

برغوث. هو أسود أحذب ضامر إذا وقع نظر الإنسان عليه أحس
به فيشبه نارة إلى البسبب وقارة إلى النمل حتى يغيب عن نظره
الإنسان. قال المجاحظ إنها تبيض وتفرخ. قالوا عمر خمسة أيام.
وعموال البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيصير بقا كما
يعرض للدعابيص الطيران فتصير فراشا. وزعموا أن البرغوث يأكل
القل الذي في الثياب ويموت من رائحة ورنى الدفلى

بعوض. هو حيوان في غاية الصغر على صورة اليليل وكل عضو خلق

لِلنَّارِ فَلْيَبْغُضِ مِثْلَهُ مَعَ زِيَادَةِ جَنَاحَيْنِ. فَتَسْبَحَانِ مَنْ قَسَمَ لَهُ الْأَعْضَاءَ
الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ وَالْقُوَى كَذَلِكَ كَمَا لِلْحَيَوَانِ الْكَبِيرِ. أَنْظِرْ إِلَى صِغَرِ
جِسْمِهِ فَإِنَّ الطَّرْفَ بِالشَّدَةِ يُذِرْكُهُ لِيَصْغُرَ. ثُمَّ إِلَى رَأْسِهِ فَإِنَّ رَأْسَهُ كَمِ
يَكُونُ مِنْ جِسْمِهِ وَفِيهِ الْقُوَّةُ الْبَاصِرَةُ وَالسَّامِعَةُ. ثُمَّ إِلَى دِمَاعِهِ وَأَنْظِرْ كَمِ
يَكُونُ دِمَاعُهُ مِنْ رَأْسِهِ فَلَمْ يَلَمْ فِيهِ الْقُوَى الْبَاطِنَةُ الْخَمْسُ. فِيهَا الْخَمْسُ
الْمُشْتَرِكُ لِأَنَّهَا تَرَى الْحَيَوَانَ تَمْشِي إِلَيْهِ. وَفِيهَا الْخَيَْالُ لِأَنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ
عَلَى الْحَيَوَانِ تَغِيْسُ خُرُطُومَهَا وَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى الْحَائِطِ لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ.
وَفِيهَا الْوَهْمُ لِأَنَّهَا تَفْرُقُ بَيْنَ مَنْ يَقْصِدُهَا فَتَهْرُبُ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَقْصِدُهَا
فَتَبْقَى. وَفِيهَا الْحَافِظَةُ لِأَنَّهَا إِذَا أَجْنَذَبَتِ الدَّمَ تَهْرُبُ فِي الْحَالِ لِعِلْمِهَا
بِأَنَّهَا أَوْجَعَتْ فَتَأْتِيهَا صَدْمَةُ الْمَتَأَلِّمِ. وَفِيهَا الْمَتَفَكِّرُ لِأَنَّهَا إِذَا أَحْسَنَتْ
مَحَرَكَةَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ تَهْرُبُ لِعِلْمِهَا أَنَّهَا مُهْلِكَةٌ وَإِذَا سَكَنَ يَدُهُ عَادَتْ إِلَى
مَكَانِهَا لِعِلْمِهَا أَنَّ الْمَنَا فِي ذَهَبٍ وَأَنَّ مَحَلَّ الْغِذَاءِ خَلَا. وَلَهَا خُرُطُومٌ
أَدْوَى شَيْءٍ يُبْكِنُ أَنْ يَقَالَ وَمَعَ دِفْتِهِ مَجُوفٌ حَتَّى يَجْرِي فِيهِ الدَّمُ الرَّفِيقُ
وَخُلِقَ فِي رَأْسِ ذَلِكَ الْخُرُطُومِ قُوَّةٌ تَضْرِبُ بِهَا جِلْدَ الْفِيلِ وَالْجَامُوسِ
تَنْفِذُهُ فِيهَا وَالْفِيلُ وَالْجَامُوسُ يَهْرَبَانِ مِنَ الْبُعُوضِ فِي الْمَاءِ

دُودُ الْقَرَى. دُورِيَّةٌ إِذَا شَبِعَتْ مِنَ الزَّرْعِ طَلَبَتْ مَوَاضِعَهَا مِنْ
الْأَنْجَارِ وَالشُّوكِ وَمَدَّتْ مِنْ لُعَابِهَا خُيُوطًا دِقَاقًا وَنَسَجَتْ عَلَى نَفْسِهَا كُبَّةً

(١) قد قسم القزويني القوى الباطنة في الحيوان الى قسمين الى مدركة والى عقلية
فنسب المدركة الى الحيوان الحوض وقد نشأت عن مبله الغريزي. اما العقلية فقد احصاها
بالحيوان الناطق وهو الانسان لا غير

مِثْلَ كَيْسٍ لِنُكُونَ سِرْبًا لَهَا مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالرِّيحِ وَالْأَمْطَارِ وَنَامَتْ
إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ بِإِلْهَامِ اللَّهِ تَعَالَى

وَأَمَّا كَيْفَةُ أَفْتِنَايَهَا فَمِنْ عَجَائِبِ الدُّنْيَا وَهِيَ أَنَّهُمْ أَوَّلَ الرَّبِيعِ
يَأْخُذُونَ الْبَرْدَ وَيَشْدُونَهُ فِي خِرْقَةٍ وَيَجْعَلُ نَحْتَهُ نَدَى أَمْرَأَةٍ لِيَصِلَ
إِلَيْهِ حَرَارَةُ الْبَدَنِ إِلَى أُسْبُوعٍ . ثُمَّ يَنْتَدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ وَرَقِ التُّوتِ
الْمَقْصُوصِ بِالْمِقْرَاضِ فَيَحْكُ الدَّوْدُ وَتَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ الْوَرَقِ ثُمَّ
لَا تَأْكُلُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي النَّوْمَةِ الْأُولَى . ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى الْأَكْلِ
فَتَأْكُلُ أُسْبُوعًا ثُمَّ تَتْرَكَ الْأَكْلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي النَّوْمَةِ
الثَّانِيَةِ . وَهَكَذَا فِي الْمَرَّةِ الْأُخْرَى وَيُقَالُ إِنَّهَا فِي النَّوْمَةِ الثَّالِثَةِ . وَبَعْدَ
النُّومَاتِ بَطْلَقَ لَهَا مِنَ الْعَلْفِ لِتَأْكُلَ كَثِيرًا وَتَشْرُعَ فِي عَمَلِ الْفِلِجَةِ .
فَبَظَهَرَ عِنْدَ ذَلِكَ عَلَى ظَهْرِهَا نَحْبٌ مِثْلُ نَحْبِ الْعَنْكَبُوتِ وَبَرَدَادُ شَيْءٍ
فَشَيْءٍ فَإِذَا مَطَرَ فِي هَذَا الْوَقْتِ مَطَرٌ يُلِينُ الْفِلِجَةَ بِرُطُوبَةِ النَّدَاوَةِ
وَتَنْفُخُهَا الدَّوْدَةُ وَتَخْرُجُ مِنْهَا وَقَدْ نَبَتَ لَهَا جَنَاحَانِ فَتَطِيرُ وَلَا يَحْصُلُ
شَيْءٌ مِنَ الْإِبْرِيْشِمِ . وَإِذَا فَرَعَتِ الدَّوْدَةُ مِنَ الْفِلِجَةِ عَرِضَتْ عَلَى الشَّمْسِ
لِتَمُوتَ الدَّوْدَةُ فِيهَا وَيَحْصُلُ مِنَ الْفِلِجَةِ الْإِبْرِيْشِمُ . وَيَتْرَكَ بَعْضُ
الْفِلِجَاتِ لِنَفْسِهَا الدَّوْدَ وَتَخْرُجُ وَتَبْيَضُ وَيَضُهَا بِخَفْظِ السَّنَةِ الْآتِيَةِ فِي
ظَرْفِ نَفْيٍ مِنَ الْحَزَفِ أَوْ الزَّجَاجِ . وَالشَّيْبُ الْإِبْرِيْشِمِيَّةُ تَنْفَعُ مِنَ الْحِكْمَةِ
وَالْحَرْبِ وَلَا يَتَوَلَّدُ فِيهَا الْقَمَلُ

عَنْكَبُوتٌ . أَصْنَافُهُ كَثِيرَةٌ لِكُلِّ صِنْفٍ فِعْلٌ عَجِيبٌ مِنْهَا الطُّوبَى لَهُ
الْأَرْجُلُ فَإِنَّهَا لَهَا عَرَفَتُ صَغَفَ قَوَائِمِهَا وَأَنَّهَا تَعْرِضُ عَنِ الصَّيْدِ أَعَدَّتْ

لِلصَّيْدِ مَصَابِدَ وَحَبَائِلَ مِنَ الْخَبُوطِ فَعَمَدَتْ إِلَى فُرَجَوَيْنِ حَائِطَيْنِ
مُتَقَارَيْنِ . وَبُنِيَ لُعَابُهُ الَّذِي هُوَ خِيْطُهُ إِلَى جَانِبٍ لِيَلْصُقَ بِهِ ثُمَّ بَعْدَ
ذَلِكَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ وَهَكَذَا ثَانِيًا وَثَالِثًا وَهَذَا هُوَ السَّدَى . ثُمَّ يُجَكِّمُ
لُحْمَهُ حَتَّى يُمْ النَّسِجَ وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى تَنَاسُبِ هَنْدَسِيٍّ حَتَّى يَصِغَ النَّسِجُ .
ثُمَّ يَقْعُدُ فِي زَاوِيَةِ مَرَصِدًا وَقَوْعَ الصَّيْدِ فَإِذَا وَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الدُّبَابِ
أَوْ الْبَقِ بَادَرَ إِلَى أَخِيهِ

وَمِنْهَا صِنْفٌ آخَرُ قَصِيرُ الْأَرْجْلِ يُسَمَّى الْفَهْدَ فَإِنَّهُ يَصِيدُ الدُّبَابَ عَلَى
شِبْهِ صَيْدِ الْفَهْدِ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَمْكُنُ فِي زَاوِيَةٍ فَإِذَا طَارَتْ دُبَابَةٌ بِقُرْبِهِ
وَقَبَّ إِلَيْهَا . وَرَبَّمَا مَدَّ خَيْطًا مِنَ السَّنَفِ وَعَلَّقَ نَفْسَهُ فِيهِ مُنْكَسًا فَإِذَا
طَارَ دُبَابٌ بِقُرْبِهِ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ وَأَخَذَهُ . وَمِنْهَا صِنْفٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ
الْكَيْتُ وَهُوَ سِتٌّ عُمُورٍ فَإِذَا رَأَى الدُّبَابَ لَطَى إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ وَقَبَّ فَلَمْ
يُحِطْ وَثَبَتْهُ وَهُوَ أَفَةُ الدُّبَابِ . وَمِنْهَا صِنْفٌ يُقَالُ لَهُ الرُّبَيْلَا إِذَا مَشَى عَلَى
الْإِنْسَانِ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ مِنْ لُعَابِهِ . وَيُسَمَّى عَقْرَبُ الثَّعْبَانِ لِأَنَّهُ يَقْتُلُ
الثَّعْبَانَ . وَمِنْهَا صِنْفٌ دَقِيقُ الصَّنْعَةِ يَهْبِي نَسْجَةً وَبَصْعَدُ يَنْتَهَ فَإِذَا وَقَعَتْ
فِي مَصِيدَتِهِ دُبَابَةٌ تَضْطَرِبُ فِيهَا قَبْشِي إِلَيْهَا وَيَبْصُ رُطُونَهَا
وَالدُّبَابَةُ تَطْنُ مِنَ الْآلَمِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ وَيَحْمِلُهَا إِلَى خِرَازِنِهِ لِلذَّخِيرَةِ
وَكَثَرُ مَا يَقَعُ فِي مَصِيدَتِهِ عِنْدَ غَيْبَةِ الشَّمْسِ

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعَنَاقِبَ الْآلَانَاتِ هِيَ الْعَوَامِلُ وَالذُّكُورَ خُرَقُ
لَا تَعْمَلُ شَيْئًا . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ السَّدَى مِنَ الْآلَانَاتِ وَاللُّحْمَةَ مِنَ
الذُّكُورِ لِأَنَّ اللُّحْمَةَ أَقْوَى مِنَ السَّدَى وَهِيَ كَالشَّرِيبِكَيْنِ فِي الْعَمَلِ أَنَّ

كَأَلَسْنَا ذِمَّةَ الْيَلْبِذِ

فَرَأَسَ . هُوَ الْحَيَوَانُ الَّذِي يَتَهَافَتُ عَلَى السِّرَاجِ وَيَحْتَرِقُ . ذَكَرَ خَفِيفُ
السَّمَرِ قَنْدِيئِي صَاحِبُ الْمُعْتَصِدِ أَنَّهُ كَثُرَ الْقَرَاشُ عَلَى الشَّعْرِ بِحَضَرِ
الْمُعْتَصِدِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فَجَمَعْنَاهَا فَكَانَتْ مَكُونًا كَأَنَّهُ مُزَرَ فَكَانَ اثْنَيْنِ
وَسَعِينَ شَكْلًا . زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْقَرَاشَ دُعُوصٌ نَبَتَ جَنَاحُهَا .
وَسَبَبُ وَقُوعِهَا عَلَى النَّارِ مَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ إِذَا رَأَتْ السِّرَاجَ بِاللَّيْلِ
تَظُنُّ أَنَّهُ فِي يَتِّ مَظْلَمٍ وَأَنَّ السِّرَاجَ كَوْزٌ مِنَ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ إِلَى الْمَكَارِ
الْمُحِي . فَلَا تَزَالُ تَطْلُبُ الضُّوءَ وَتَرْمِي نَفْسَهَا فِيهَا إِلَى أَنْ تَحْتَرِقَ

تَحُلُّ . حَيَوَانٌ ذُو هَيْئَةٍ لَطِيفَةٍ وَخَلْقَةٍ ظَرِيفَةٍ وَبُنْيَةٍ نَجِيفَةٍ وَسَطٍ بَدَنِ
مُرَبَّعٍ مَكْعَبٍ وَرَأْسُهُ مَدَوَّرٌ مَبْسُوطٌ وَمَوْخَرٌ مَخْرُوطٌ . وَرِجْلٌ فِي وَسْطِهِ
بَدَنُهُ أَرْبَعَةُ أَرْجُلٍ وَيَدَانِ مَنَاسِبَةٌ الْمَقَادِيرِ كَأَضْلَاعِ الشَّكْلِ الْمُسَدَّسِ
وَقَدْ جُعِلَ فِيهَا مُلْكٌ وَتَوَارَثَ الْمُلْكُ أَوْلَادُهَا عَنْ آبَائِهَا . فَإِذَا
الْبَعَاسِيبَ لَا تَلِدُ إِلَّا الْبَعَاسِيبَ . وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ الْبَعُوبَ لَا يَخْرُجُ مِنْ
الْكُورِ لِأَنَّهُ إِنْ خَرَجَ خَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ النَّحْلِ فَيَنْفُ الْعَمَلُ وَإِنْ هَلَكَ
الْبَعُوبُ وَقَتِ النَّحْلُ لَا تَعْمَلُ شَيْئًا فَتَهْلِكُ عَاجِلًا . وَالْبَعُوبُ تَكُونُ
جَنَّتُهُ كَجَنَّةِ تَحْلَتَيْنِ وَهُوَ يُوَزِّعُ الْعَمَلَ عَلَى النَّحْلِ حَتَّى تَرَى بَعْضَهَا يَهْمُ
الْأَسَاسَ وَبَعْضَهَا يَعْمَلُ اللَّيْتَ وَبَعْضَهَا يَعْمَلُ الْعَسَلَ . وَمَنْ لَا يَحْسِرُ
الْعَمَلَ لَا يُجْلِيهَا فِي وَسْطِ النَّحْلِ بَلْ يُخْرِجُهَا وَيَنْصُبُ بَوَابًا عَلَى بَابِ الْحَلِ
لِيَلَا يَدْخُلَ إِلَيْهَا مَنْ وَقَعَ عَلَى النِّجَاسَاتِ فَإِنْ وَقَعَ ثَمْبَةً مِنَ النَّحْلِ عَلَى
النِّجَاسَاتِ مَنَعَهَا الدُّخُولَ

وَأَتَّخِذُ يَوْمَهَا مَسَدَةً مِنْ أَجْجَبِ الْأَشْيَاءِ وَالْفَرْضُ مِنَ الْمَسَدَاتِ
الْمَسَاوِيَّاتِ الْأَضْلَاعِ لِحَاصِبِهِ يَقْصُرُ فَمَنْ الْمُهَنْدِسِ عَنْ إِذْرَاكِهَا
لَا تُوجَدُ نِلْكَ الْخَاصِبَةُ فِي الْمَرْبَعِ وَلَا فِي الْخُمْسِ وَلَا فِي الْمُسْتَدِيرِ.
وَهِيَ أَنْ أَوْسَعَ الْأَشْكَالِ وَأَجْوَدَهَا الْمُسْتَدِيرُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَمَّا الْمَرْبَعُ
فَيَخْرُجُ مِنْهُ زَوَايَا ضَائِعَةٌ وَشَكْلُ الْخَلِّ مُسْتَدِيرٌ مُسْتَطِيلٌ فَتَرَكَ الْمَرْبَعُ
أَحْتَى لَا تَضِيعَ الزَّوَايَا فَتَبْقَى خَالِيَةً وَلَوْ بَنَاهَا مُسْتَدِيرٌ لَبَقِيَ خَارِجَ الْبُيُوتِ
فَرَجَّ ضَائِعَةٌ فَإِنَّ الْأَشْكَالَ الْمُسْتَدِيرَةَ إِذَا جُمِعَتْ لَا تَجْتَمِعُ مُتْرَاصَةً وَلَا
شَكْلًا فِي الْأَشْكَالِ دَوَاتِ الزَّوَايَا يَقْرُبُ فِي الْإِحْوَاءِ مِنَ الْمُسْتَدِيرِ ثُمَّ
فَتَتَرَاصُ الْجُمْلَةُ مِنْهُ يَمُتُّ لَا يَبْقَى بَعْدَ أَجْفَاءِهَا فَرَجَةٌ إِلَّا الْمَسَدُ
فَمَا نَظَرُ كَيْفَ أَلْهَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ

أَوْ تَعْمَلُ فَصْلَيْنِ فِي الرَّبْعِ وَالْخَرْبِ فَتَجْمَعُ بِالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ مِنْ
يُورَقِ الْأَشْجَارِ وَزَهْرِ الْيَمَارِ الرُّطُوبَاتِ الدُّهْنِيَّةِ الَّتِي تَبْنِي بِهَا مَنَازِلَهَا
أَوْهَا يَشْفِرَانِ حَادَانِ تَجْمَعُ بَيْنَهُمَا مِنْ تَعْرِجِ الْأَشْجَارِ رُطُوبَاتٍ لَطِيفَةٍ
أَلْجَزَتْ عُنُوقَ الْأَكْثَرِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عَلَى طَبَائِعِ. وَخُلِقَ فِي جَوْفِهَا
فَحْوَةٌ طَائِفَةٌ تُصَيِّرُ نِلْكَ الرُّطُوبَاتِ عَسَلًا حُلُوا لَذِيذًا غِذَاءً لَهَا وَلَوْلَادِهَا
فَوَمَا فَضَلَ عَنْ غِذَائِهَا تَجْعَلُهُ مَخْزُونًا فِي بَعْضِ الْبُيُوتِ وَتُعْطِي رَأْسَهَا
وَلَطِيفَاءَ رَفِينِي مِنَ الشَّمْعِ حَتَّى يَكُونَ الشَّمْعُ مُحِيطًا بِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَجْوَابِ
كَأَنَّهَا رَأْسُ الْبَرَانِيِّ مَسْدُودَةٌ بِالْقَرَاطِيسِ وَتَذْخُرُ ذَلِكَ لِأَجْلِ الشِّتَاءِ
وَتَبِيعُ فِي بَعْضِ الْبُيُوتِ وَتَحْضُنُ وَتَنْفُخُ وَتَأْوِي إِلَى بَعْضِ الْبُيُوتِ
وَتَقَامُ فِيهَا أَيَّامَ الشِّتَاءِ وَيَوْمَ الْبَرْدِ وَالرِّيحِ وَالْأَمْطَارِ وَتَقُوتُ مِنْ ذَلِكَ

الْعَسَلِ الْخَزُونِ فِي وُلُودِهَا لَا إِسْرَافًا وَلَا تَقْتِيرًا إِلَى أَنْ تَأْتِيَ أَيَّامُ
الرَّبِيعِ وَتَخْرُجَ الْأَزْهَارُ وَالْأَنْوَارُ فَتَرْعَى كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي
وَلَمْ يَزَلْ هَذَا أَدْبَاهَا بِإِلْهَامٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَمِنْ عَجَائِبِ النُّحْلِ أَنَّهَا إِذَا
عَرَفَتْ أَخَذَ الْعَسَلِ وَأَحْسَتْ بِالذُّخَانِ جَعَلَتْ تَأْكُلُ مِنْهُ أَكْلًا ذَرِيعًا
حَتَّى بَعْضُهُمْ أَنَّ خَلِيَّةً مِنْ خَلَائِا الْعَسَلِ مَرِضَ تَحْلُهَا فَجَاءَ نَحْلُ خَلِيَّةٍ
أُخْرَى بِقَاتِلِهَا عَلَى الْعَسَلِ الَّذِي فِي بُيُوتِهَا يُرِيدُ إِخْرَاجَهَا مِنَ الْخَلِيَّةِ
لِيَسْتَوِلِّيَ عَلَى عَسَلِهَا فَأَقْبَلَ قِيمَ الْحَمَلَابَا يُعَاوَنُ النُّحْلَ الضَّعِيفَ الْمَرِضَ
وَكَانَ يَلْسَعُهُ النُّحْلُ الْغَرِيبُ دُونَ الْمَرِضِ كَمَا نَهَا عَرَفَتْ أَنَّهُ يَذْفَعُ عَنْهَا.
وَأَمَّا الْعَسَلُ فَذَكَرُوا أَنَّ الْأَبْيَضَ عَمَلُ شَبَابِهَا وَالْأَصْفَرَ عَمَلُ كَهُولِهَا
وَالْأَحْمَرَ عَمَلُ شَيْبِهَا

الذي المنقول
من كتاب عجائب المخلوقات وشرائب الموجودات
للقرطبي

فهرس

وجه

من كتاب العروديون المتباه في أيام العرب والبربر من عاصرم من ذوي السلطان
كبر لعبد الرحمان بن خلدون المحضري
المنذمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذهبهم والاماع بما يعرض للورخين من المغالط
الاهام وذكر تي من اسبابها

٢

من كتاب نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب تأليف العلامة المقرئ
في وصف الاندلس

١٥

في الفاء الاندلس للسلين بالتمباد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن
د

٢٦

من كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة ارض مصر لابي
ليف

المقالة الاولى وهي ستة فصول

- ٢٠ الفصل الاول . في خواص مصر العامة لما
- ٢٤ الفصل الثاني . فيما تختص به من النبات
- ٢٧ الفصل الثالث . فيما تختص به من الحيوان
- ٤٠ الفصل الرابع . في اقتصاص ما شوهد من اثارها القديمة
- ٥٥ الفصل الخامس . فيما شوهد بها من غرائب الاسية والسفن

المقالة الثانية

- ٥٧ لنيل وكعبة زبادنو واعطاء عل ذلك وقواينو
- من تحفة النظر في غرائب الامصار وعجائب الاسرار لان عبد الله محمد بن عبد الله
- ٦٢ محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة
- ٧٠ حكاية خصيص
- ٧٦ حكاية ابي يعقوب يوسف
- من كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للشيخ الامام محمد بن محمد القزويني
- ٨٢ ر في الكائنات وهي الاجسام المتولدة من الامهات
- ٨٨ النظر الاول . في المعدنيات

۸۹	النظر الثاني . في النبات
۹۰	القسم الاول . الشجر
۹۳	القسم الثاني من النبات . النجوم
۹۵	النظر الثالث . في الحيوان
۹۶	النوع الاول . الانسان
۹۷	النظر في القوى
۹۸	القوى الظاهرة وفي الحواس الخمس
۱۰۰	فصل في الدواب
۱۰۱	فصل في النمل
۱۰۳	فصل في السباع
۱۰۴	فصل في الطيور
۱۰۷	فصل في الموام والحشرات



